

الدكتور / جابر قمّيحة
أستاذ الأدب العربي

رواية: ولّيمة لأعشاب البحر
في ميزان
الإسلام والعقل والأدب

دار الأعنصر

د. الأحمدي
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع حسن حجازي - القاهرة
هاتف : ٧٩٥١٧٤٨ - ٧٩٤٤٧٤٨ - فاكس : ٧٩٤٦٠٣١
ص. ب. : ٤٧٠ القاهرة - الرمز البريدي : ١١٥١١



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل وتوطئة

حمداً لله رب العالمين ، وصلاة وتسليماً على رسول الله وآله
أجمعين . أما بعد : فما أكثر أخطاءنا !! وما أشدها !! وما أغربنا حينما
نترك الخطأ يأخذ مساره في طمأنينة عجب حتى يستفحل ويتحول
إلى خطيئة !! . وما أكثر الذين صرخوا ، ويصرخون : اتركوا المُلْك
للمالك .. وذرّوا الأمور في طريقها تمضي وتسير ، وإن كان لها خطر
فهو ضئيل يسير ، وعمره قصير .. لا تخافوا ، ولا تراعوا !! .

فإذا ما قرعنا أجراس الخطر قبل نزوله ، أو وهو في باكورته برعم في
شجرة الشرا ترفعت الأصوات صاخبة عالية (أعلى من صوت المعركة) :
* السكون .. السكون .. السكون .. السكون .. لا تقلقوا
الناس .. فللأبدان والعقول حقوق يجب أن تراعى !! ..

* لكن بالله عليكم .. انتبهوا .. انتبهوا أيها السادة !! . ويأتى
الجواب : اعتقالات .. واضطهادات .. أو تقرّيعات ، وتعنيفات ...
وانتهامات لا تحصى ولا تعد .

* دعاة فتنة !! .. ركاب موجة ... سوداويون ، صفراويون ...
في التشاؤم مغرقون .. مسرفون .

* يا سادة ... معظم النار من مستصغر الشرر ؛ فاتقوا الله ،
وقوا أنفسكم وأهلكم نازاً ، وقودها الناس والحجارة .

* لا تبالغوا ... ولا تسرفوا علينا وعلى أنفسكم .. فنحن أنقى
وأبقى منكم .. مثقفون نحن .. وتنويريون نحن .. أما أنتم
فالسطحيون .. الجاهلون .. الرجعيون .. الظلاميون .. المتقوقعون !! .

** ولكن الوقاية - ياسادة خير من العلاج !!
** ولماذا الوقاية ؟ إن الوقاية مكلفة .. إنها تهدر الوقت ،
وتأكل المال .. ونحن على العلاج قادرون !!

* * *

فإذا ما وقع الفأس في الرأس .. الرأس المكشوف العارى شرع
السادة يفكرون في العلاج .. بدءًا بإيقاف النزف ، وانتهاء بالضمادات
والمضادات .. وتمر الأيام والشهور ، والرأس الجريح المضمّد في انتظار
لطف الله ورحمته .. وتأتى التقارير مشيدة ببراعة الأطباء المعالجين ،
وسهرهم المتواصل ، ومتابعتهم المخلصة .

وما كان أغنانا عن هذه النازلة بكل أبعادها لو أننا أخذنا حذرنا ،
ومنعنا فأس العدوان من الاقتراب ، وحَصَّنَّا الرأس بخوذة الوقاية
والنجاة ، وزرعنا في العقول الوعى السديد ، وغرسنا في القلوب الحزم
الشديد ، وألغينا من قاموس حياتنا كلمة منحوتة منكودة اسمها
« معلهش » . وسجلنا مكانها : يقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ،
وحب الحق والخير والجمال ، واعتنقنا - عقيدة وسلوكًا - من
الحكم أعلامها وأرقاها .. ومنها هذه الثلاث التى تدور فى فلك واحد :

١ - معظم النار من مستصغر الشرر .

٢ - الوقاية خير من العلاج .

٣ - إذا نحن طامنا لكل صغيرة

فلا بد يوما أن تساغ الكبائر

أقول هذا بعد أن رأينا فأسًا تنطلق انطلاق الصاروخ من أقصى
شمال الشام إلى مصر لتصيب الرأس .. بل الرءوس فى « يوافيخها » ..
عجبًا !! يحاول الضحية أن يدفع عن رأسه حد الفأس براحة كفه
العارية ، فتصيب اليد ، وتعض فى الرأس فتدميه .. ويحاول بعض
« أولاد البلد » - أنا رأيتهم وأعرف بعضهم - أن يساهموا فى منع
الفأس العضوض القاصمة ، أو التخفيف من قوة اندفاعها على الأقل ..
فصاح الجنرال « الوسيم » جدًا - كبير الحرس الرأسى - :

« ويلكم اتركوا الفأس .. فهي مباركة الجوى والمرسى ، وظالم
ابن جائر من يوقف مسيرتها .. إنها فأس عربية ، لا تفجعوا صاحبها
فيها ؛ فإكرام الضيف - ولو كان فأساً ، واجب من واجبات الشهامة ،
والأريحية ، والرجولة !!

(ملاحظة : أمن على توجيهه جنرالات من الحرس الرأسى ، وإن
كانوا أقصر منه قامه ، وأقل وسامة) .

وأنظر إلى الرأس فلا أرى إلا النزف ، والدموع ، والأوجاع ،
والآلام .. ولكنى أشهد - للحق دون مجاملة - أن الجنرال الرأسى
صاح فى الضحية :

« أتصرخ ؟ ما هذا ؟ .. فضحتنا يا رجل .. تحمل ، واصبر ..
فالصبر ضياء .

ساعتها تذكرت كلمة رائعة لسعد زغلول : « عجت للذى يقول
للمضروب : لا تبك ، ولا يقول للضارب : لا تضرب » !!!

* * *

ومن حق القارئ أن يسأل : هل كانت هذه هى الفأس الأولى
فى رأس الفكر والحكمة ، وقيم الدين والمجتمع ؟!
معدرة .. أجيب .. ولكن على أن أرجع إلى الوراء قليلاً ..
ولا ضير ولا ملامة فقد صَنَّفْنَا « التنويريون » فى فصل « الرجعيين
الظلاميين » !!

* * *

من عدة سنوات قرأت إعلاناً فى الصحف المصرية عن كتاب
وُصف مؤلفه بأنه « رائد التنوير الدينى » ، واعتقدت أننى سأجد تحت
الوصف اسم جمال الدين الأفغانى .. أو محمد عبده .. أو رشيد رضا ..
ولكنى وجدت تحت هذا الوصف اسم المستشار محمد سعيد
العشماوى .. والريادة تعنى الأولوية والابتكار ، والإتيان بما هو جدير
بالتقدير والاعتناق ، والقدره على التأثير المنتج .. وهذا يعنى - إذا
ماأنا بمنطوق الإعلان - أن نسقط من حسابنا أمثال الأفغانى ..

ومحمد عبده .. ورشيد رضا .. وابن باديس .. وحسن البنا .. ومحمد عبد الله دراز .. وقرأت كتب الرجل كلها .. وأقول صادقاً : إنني حاولت أن أعثر على « بصيص من نور » في كل ما كتب في مجال الفكر .. والفقه .. والسياسة .. واجتمع .. والتاريخ .. فعجزت .. ولم أجد إلا محاولات مرعوشة - على درب المستشرقين - لتجريد الإسلام من طوابعه السياسية ، وعزله عن كل ما يمت للحكم والقيادة بصلة .. ويصف أصحاب دعوة « الإسلام دين ودولة » بأنهم « فجار .. أشرار .. جهال » !!

أما نظام الخلافة الإسلامية فهو - في نظره - :

« لا يختلف عن أى نظام متخلف في السطو .. والسيطرة .. والغشومة .. والظلم .. والاستبداد .. والتنكر لحقوق الإنسان .. وتنكب حدود الله .. وهو نظام جاهلي غشوم مناف لروح الدين ، مناف لمعنى الشريعة » - « والخلافة لم تخدم الإسلام حقيقة .. بل إنها أضرت به حين ربطت العقيدة بالسياسة ، ومزجت الشريعة بنظام الحكم »^(١).

هذا وما زال السيد عثماوى يردد - اعتماداً على أخبار ملفقة زائفة : أن القرآن الذى بين أيدينا به كثير من الأخطاء فى القواعد واللغة^(٢).

* * *

والتزوير عنده وارد لا غضاضة فيه ، ولا عيب عليه ، ولا مانع عنده من التصدى لتفسير القرآن بالهوى .. فقله تعالى : ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... ﴾ [المائدة : ٣] .

(١) محمد سعيد العثماوى : « الخلافة الإسلامية » (١٣ ، ٢٥) .

(٢) العثماوى : السابق (١٥١ ، ١٥٢) .

يقول العشماوى :

« الآية الكريمة نزلت بعد أداء النبي ﷺ والصحابة فريضة الحج .. ومن ثمَّ فإن المقصود بها أن الله سبحانه وتعالى أكرم المؤمنين بإكمال فرائض الدين وشعائره .. وليس المقصود بها أن الدين كان ناقصاً وكمل » وأحال العشماوى على تفسير القرطبي - طبعة دار الشعب ص ٢٠٥٩ وما بعدها^(١) .

وبالرجوع إلى القرطبي نراه يقرر أن النقص وارد .. ولكن من النقص ما ليس بعيب .. كنقصان أيام الشهر ، ونقصان صلاة المسافر ، ونقصان أيام الحيض عن المعهود ، ونقصان أيام الحمل .. فنقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم الله تعالى هذه ليست بشين ، ولا عيب^(٢) . ولوقيل كانت ناقصة عما عند الله أنه ضامه إليها ، وزائده عليها لكان ذلك صحيحاً فهكذا .. هذا في شرائع الإسلام ، وما كان شرع منها شيئاً فشيئاً إلى أن أنهى الله الدين منتهاه الذي كان له عنده^(٣) .

وأنتى القرطبي بوجه ثان .. وهو أن إكمال الدين يعنى أنه وفقهم للحج الذى لم يكن بقى عليهم من أركان الدين غيره ، فحجوا . فاستجمع لهم الدين أداء لأركانه ، وقيامًا بفرائضه^(٤) .

وهذا الوجه لا ينفي النقص بالمفهوم السابق ، وهو نقص لا يعيب التشريع .. بل يتفق مع سنة الإسلام في التدرج التشريعي^(٥) . ووصف الأديان السابقة بهذا الوصف لا يعنى الإزراء بها .. وإنما لأنها كانت أدياناً مرحلية .. كل منها لمرحلة زمانية معينة من عمر البشرية ، ثم كان الإسلام الدين الخاتم الصالح لكل زمان ومكان ، والذي أعلن رسول الله ﷺ استكمال كل عناصر البقاء والخلود في حجة الوداع بآية المائدة التى « لم ينزل الله بعدها حلالاً ولا حراماً »^(٦) .

(١) سعيد العشماوى : « جوهر الإسلام » (٩٣) .

(٢) « تفسير القرطبي » (٢٠٥٩) . (٣) « تفسير القرطبي » (٢٠٦٠) .

(٤) السابق : الصفحة نفسها .

(٥) انظر : جابر قميحة : « المدخل إلى القيم الإسلامية » (٤٢ - ٥٦) .

(٦) « تفسير الجلالين » (٩٣) .

وفى هذا المعنى جاء حديث رسول الله ﷺ ، وقد رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - :

« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاً وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (١).

ففى الحديث - كما يقول ابن حجر - ضرب الأمثال للتقريب للأفهام ، وفضل النبى ﷺ على سائر النبيين ، وأن الله ختم به المرسلين ، وأكمل به شرائع الدين (٢).

* * *

ومن آرائه المنحرفة ما قاله فى آية الحراية : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

يقول العشماوى : وواضح من الآية وسبب تنزيلها أنها تقضى بالجزاء على من يحارب الله ورسوله ﷺ .. أى يحارب دين الله ، وشخص الرسول ﷺ .. فهى بذلك من الآيات ، المخصصة بشخص النبى ﷺ .. والنبى ﷺ وحده هو الذى يوقع الجزاء على من يحاربه ، ويحارب الله فى شخصه ، وهو الفيصل العدل فى تحديد شخص من حاربه ، وما يعتبر حرباً عليه .. أما بعد النبى ﷺ ، وبعد خلفائه الراشدين .. فمن ذا يكون كذلك ؟ الخلفاء ومنهم الفاسقون .. أم الفقهاء وفيهم المغرضون ؟ (٣)

وهذا يعنى عملياً إلغاء حد الحراية من قائمة الحدود التى شرعها

(١) متفق عليه . واللفظ للبخارى . كتاب « المناقب » .

(٢) ابن حجر العسقلانى : « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » (٦٤٦/٦) .

(٣) العشماوى : « أصول الشريعة » (١٢٩) .

اللَّهُ سبحانه وتعالى ، وبعدها هبت أقلام موكوسة تدعى أن رجم الزانى المحصن ليس من الإسلام^(١) .

* * *

وفى الأسواق مجموعة كبيرة من الكتب مطبوعة طباعة فاخرة جدًا لكاتب « الأهالي » اليسارى « خليل عبد الكريم » وكلها تسير على نهج موضوعى واحد يتمثل فى الانتقاص الفاحش من ثوابت الإسلام ، ورسوله ﷺ ، والصحابة .

وأكتفى بنقل فقرة واحدة مما كتبه عن « مجتمع يثرب » فى عهد النبى ﷺ :

« كانت نزعة معافسة النساء لدى رجال (المجتمع اليربى) من القوة بحيث دفعتهم إلى تحطيم الحواجز التى أقامتها (النصوص المقدسة) صراحة ، وبلا مواربة .. مثل :

من يظهر من امرأته ثم يعتليها قبل التكفير ..

وأخر يركب زوجته وهى حائض أو مستحاضة .

وثالث يطؤها فى نهار رمضان ..

ورابع ينكح امرأة أبيه ، أو يعاشرها دون عقدة نكاح ..

والمملوك الذى يشرع فى مفاخدة جارية سيده .. وقد يحدث العكس .

المرأة تسعى إلى أجير زوجها ليشبعها ، ويروى لها ظمأها لعجز زوجها عن ذلك ... إلخ .

كل هؤلاء : ذكوراً وإناثاً يعلمون علم اليقين أن الفعل الذى قارفوه حرمتهم عليهم الشريعة التى بلغها محمد .. ولكن نزعة التلاقى بالآخر تغلبهم وتقهرهم ، وتملك عليهم نفوسهم وعقولهم ووجدانهم ، وتعطل ملكة التفكير السديد عليهم ، فلا يرون فى « النصوص المقدسة » إلا قيوداً تحول دون انطلاقهم .. »^(٢) .

* * *

(١) من هؤلاء ؟ الدكتور أمينة نصير !!

(٢) خليل عبد الكريم : « مجتمع يثرب » (٤٣) .

وأستاذة « مسلمة » تدرس لطلابها وطالباتها في الجامعة الأمريكية بالقاهرة رواية لمغربى ساقط بعنوان « الخبر الخافى » ، كلها وصف داعر بألفاظ صريحة مكشوفة للأعمال الجنسية الشاذة القذرة فى بيوت الدعارة ، ودافعت الأستاذة عن نفسها بأن « هذه هى الموجة الجديدة فى الأدب ، وهى موجة يجب أن يستوعبها الطلاب » !!

* * *

وذكرنى ذلك بقصيدة نشرت فى مجلة رسمية بعنوان « الوشم الباقى » تنهج نفس النهج الساقط ، وتزيد عليه كتابة الأصوات الجنسية السريية ، وهى أصوات محترفات الدعارة (المكونة من الهمزة والحاء - أو الهمزة والحاء المشددة والواو) .

* * *

و « سيد » من قمم « التنوير » يكتب فصولاً وفصولاً عن « جنائية الغزو الإسلامى » لمصر ، ويصف جيش عمرو بن العاص - رضى الله عنه - بأنه حملة غزو واحتلال .

* * *

ويلتقط الخيط « شاعر » تنويرى جداً ، فيصور الفتح الإسلامى لمصر بأنه « غزو همجى » ، ويشبه الفاتحين المسلمين بالهمج والجراد والغربان ، فيقول من كلام طويل :

همج ...

رمت بهم الصحارى جنة المأوى ...

تهزّ كلابهم فيها ...

وتجأر فى المدى قطعانهم

يمشون فى سحب الجراد

كأن وجوههم لغربان ...

وأعينهم لذؤبان

وأرجلهم لثيران

يدوسون البلاد
ويزرعون خرابهم فى كل واد
أبناء أوزوريس صاروا لليباب
يا أيها الرمل ارتحل
يا أيها الرمل ارتحل
واذهب لشأنك يا جراد .

* * *

وكاتبة « تنويرية » تكتب مقالاً تصف فيه طالبات الجامعة
المختشمت ، واللأئى لا يبدن شيئاً من زينتهن بأنهن « لابسات
أكفان » . وتصف الاحتشام « بأنه ردة حضارية » !! .

* * *

وآخر ما « أفرزته » الدكتورة التنويرية (ن) ما صرحت به فى تحقيق
صحفى من أن « ختان الذكور » عملية وحشية مؤذية وضارة ، وتصرخ
فى غضب « كيف تقطع هذه الجلدة مع أن لها فوائد متعددة !!! » .
(ملاحظة : السيدة (ن) تتحدث عن ختان الذكور لا الإناث) .

* * *

وتنويرى - فى برنامج تلفازى - يصف الحضارة العربية
الإسلامية أن « نصفها حضارة لواط » .

* * *

وتنويرى كبير « جدًا » - ينازع « تنويريًا آخر » فى لقب « رائد
التنوير » - يدعو فى قناة تلفازية إلى المساواة بين الذكر والأنثى فى
الميراث .. فلما استوقفه مقدم البرنامج قائلاً : « ولكن هذا التحديد
من الثوابت التى جاءت بها الشريعة !! أردف قائلاً : إن الأنثى فى
الجاهلية لم تكن ترث .. فبدأ محمد ﷺ بتحديد نصيبها بنصف
الذكر .. أى فتح لنا الطريق ، وعلينا أن نكمل بالتسوية بين الجنسين ..

وتحدث عن الفقهاء المجتهدين بقوله : « هم رجال .. ونحن رجال » .
(ملاحظة : ترى ماذا يبقى من هذا التنويرى إذا ووزن بأحد
الأئمة الأربعة ؟ وما رصيده من عدة المجتهد وآلياته ؟) .

* * *

وفي صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٩٩٩/٦/١٦ يتساءل
أحمد عبد المعطى حجازى فى غضب : « ... هل نريد حقاً أن نحرق
عقولنا من الخرافة ، ونعالج نفوسنا من الخوف ، ونعامل أجسادنا بما
هى جديرة به من اعتزاز واحترام ؟ » .

وتحرير عقولنا ، واحترام أجسادنا فى نظر حجازى لا يتحقق
إلا برسم الأجساد عارية ، والسماح بإدخال الموديلات العارية إلى
كليات الفنون ليرسمها الطلاب .. بل يتمادى أحمد حجازى فيدعو
الفنان صلاح طاهر وآخرين أن يرسموا له صورة من هذا النوع
العارى « حتى يراه الناس فى الواقع ، وربما رأوه على نحو أفضل »
كما يقول بالحرف الواحد .

* * *

وفى مجال الحديث عن « الفئوس فى الرؤوس » ، وعن جو
الاختلالات الذى نعيشه يتمثل أماننا أخطر جهاز إعلامى وهو
« التلفزيون » بقنواته المختلفة .. والذى استطاع بنجاح فائق أن يدمر
كثيراً من قيمنا حتى أصبح رمضان - شهر الصيام والقرآن والعبادة
والقيام - مرتبطاً ارتباطاً عضويّاً « بالفوازير » .. الفوازير التى تسلت
إلى نفوس الناس ، وهيمت عليها حتى أصبحت علامة من علامات
التوقيت الزمنى فيواعد اثنان على اللقاء بعد الفوازير بساعة أو قبلها
بساعة .. وهكذا .. ولما طالب بعض « الظلاميين » الذين نحن منهم
بإيقاف البث التلفازى من المغرب إلى ما بعد العشاء بساعة حتى يفرغ
الناس عمليّاً وذهنيّاً ونفسيّاً لصلاة المغرب والعشاء والتراويح ، هبت
فى وجوههم العواصف ، وكيّلت لهم الاتهامات ، فكان الإحباط
والأسى والصمت !! .

وكنا نعجب أن وجود التلفاز بهذا الهراء الخبيث ، وغيره كثير ..
فى مصر بلد الأزهر والعلم .. والدين .. والمآذن .. والتاريخ العريق إلى
أن جاءت كريمان حمزة ، وفجرت قنبلة خطيرة فى كتاب من تأليفها
سمته « لله يا زمرى » كشفت فيه المستورات المنكودة المنكوسة داخل
المبنى الكبير .. وخلف كواليسه .. والذى يقرأ الكتاب الذى أحدث
ضجة كبرى يخرج بانطباع صادق مؤداه أن الخلل فى السياسة
والسلوكيات الإدارية والفنية وإغفال ثوابت الدين والأمة وكرامة
الإنسان ومشاعر الآخرين ... كل ذلك حول هذه المؤسسة إلى « غابة
إعلامية » لا مكان فيها للانضباط والقيم والمعارية العادلة .
وأترك الكاتبة تعبر فى كتابها بصوتها عن موقفين .. وهناك
عشرات من أمثالها :

ليلة القدر فى مسجد أسد بن الفرات :

فى ليلة القدر اعتاد الداعية عمر عبد الكافى أن يصلى بالناس
ويدعو دعاء طويلاً .. وكان نجم الرجل قد ارتفع ارتفاعاً لا يتناسب
مع صغر سنه .. وتدفق المصلون من كل صوب وحذب خلف هذا
الداعية .. أنهار من البشر سدت شوارع الدقى .. وراح مخرج
برنامجى (الرضا والنور) الأستاذ أحمد طه يصور لإحدى الشركات
الخاصة هذا المشهد الفريد .

وكل هذا الاندفاع نحو داعية شاب ، قوى فى إلقائه ، قوى فى
إيمانه .. واستمتع الجميع بروح دينية عالية المستوى فى هذه الليلة المباركة .
فجر هذا النجاح قنبلة أعداء النجاح .. قنبلة من الحقد الأسود ..
والغيرة العمياء .. والحسد المشثوم غطى رمادها على كل خير .. ومنع
الرجل من الخطابة فى مسجد أسد بن الفرات .. وظلم الرجل ظلم
الحسين ، وذبحوا الداعية الإسلامى الشاب بسكين الأمن تارة .. وسكين
الفتنة الطائفية أخرى .. وحرمت مصر عالمًا شابًا كان يمكن بشيء من
ذكاء السلطة استقطابه لإصلاح الضمائر الخربة ، ووقف استباحة المال
العام .. وإعادة بناء الشخصية المصرية السوية .. والحفاظ على طهارة
القلب .. وزرع كل القيم التى كم نحن فى حاجة إليها .. ولكنها إرادة الله .

قضية دعاة متفصلة وجاهزة :

كنت سعيدة قريرة العين بالعمل كنائب رئيس مجلس إدارة إحدى الصحف الخاصة .. وبينما كنت جالسة إذ دخل علينا شاب قدمه لي رئيس التحرير على أنه ضابط في أمن الدولة .. ودار بيني وبين هذا الضابط حديث حول الدكتور عمر عبد الكافي .. حاول فيه الضابط إلحاق تهمة إفساد العلاقة بين المسلمين والمسيحيين ، وضرب الوحدة الوطنية بالشيخ عمر ... وحاولت بدوري إقناعه أن أى مسلم دارس لأبسط مبادئ الدين لا يمكن أن يقوم بذلك ... وأن علاقة المسلم بأخيه القبطى علاقة يجب أن تقوم على حسن المعاملة .. ورحت أذكر له بعض الأحاديث الشريفة .

قال رسول الله ﷺ : « من آذى لى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته » .

وهكذا نرى أن رسول الله ﷺ سمي أهل الكتاب بأهله الذمة ليضعهم فى ذمته .. أى فى عنقه .. ثم فى أعناق المسلمين بعد ذلك . إذن فمحال أن يقوم أى داعية إسلامى بالدعوة إلى الفتنة الطائفية ولكن الذى يفعل ذلك يكون إنساناً جاهلاً جاهلاً تاماً بحقائق الدين .. أليس الله هو القائل فى سورة المائدة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَنذَرْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ - ٨٥] .

تلملم الرجل فى مقعده وأخذ نفساً عميقاً وقال متجاسراً بوقاحة
لم أرها فى حياتى :

انظروى بقى يا مدام كريمان ... بقى عمر عبد الكافى هذا إن لم
تلبسه جريمة ضرب الوحدة الوطنية فهناك قضية دعارة جاهزة ومتفصلة
عليه هيلبسها فوراً ... احنا موش عايزين له أثر .. أى أثر ...

صعقتنى الكلمات المنحطة ... ودارت بى الحجره ، ثم انسحبت
خارجة من المكتب مبهوته من شدة الفجور والظلم ... وقلت فى نفسى :
هل يمكن إلحاق مثل هذه التهمة برجل أكثر ما يميزه فرط الحياء ...
فماذا يمكن أن يلحق بى أنا شخصياً عند اللزوم ؟

لا أعرف ما الذى أصابنى غير أنى كرهت عملى فى هذا المكتب
الذى يتعامل مع مثل هذا النوع من البشر ، واشمأزت نفسى تماماً
وكرهت التعاون مع رئيس التحرير الشاب الصغير ابن أحد أئمة
المساجد الذى تربطنى به وبأسرته صلات عميقة من المودة والثقة ...
تركت العمل فى هذه الجريدة نهائياً دون أن أعرب عن السبب ..
إذ إن الحديث على هذا المستوى يذكرنى بوحشية الموساد ... وبمراكز
القوى فى عهد عبد الناصر وتجاسرهم على الإخوان المسلمين ...
وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الفتى ليتكلم بالكلمة من
مساخط الله لا يلقى لها بالاً يَهْوَى بها فى النار سبعين خريفاً »^(١).

* * *

كان هذا هو الموقف المأساوى الأول ، وهو لا يحتاج إلى تعليق ،
ونترك الكاتبة لتقدم لنا الموقف المأساوى الثانى بكلماتها فى كتابها :

على جشتى إذاعة « العشرة المبشرون بالجنة » :

انغلقت الأبواب أمامى .. فشيخ الأزهر اعتذر لأن له برنامجاً
خاصاً .. ومفتى الجمهورية يظهر بصفة يومية فى جميع القنوات ..
وأنا أبحث عن الجديد الشيق .. يبقى الدكتور أحمد شلبى أستاذ

(١) كريمان حمزة : « لله يازمى » (١١٨ - ١٢١) .

التاريخ .. ماذا يمكن أن أسجله معه يومًا في رمضان ؟ أشار على زوجي المهندس سامي القاضي بكتاب « العشرة المبشرون بالجنة » .. وكان الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الشريف الأسبق - رضى الله عنه - وأرضاه قد أثاره وتحدث عنه وهو « العشرة المبشرون بالجنة » الذين جاء ذكرهم في حديث شريف ، قال ﷺ : « أبو بكر في الجنة .. وعمر في الجنة .. وعثمان في الجنة .. وعلى في الجنة .. وطلحة في الجنة .. والزبير في الجنة .. وسعد بن أبي وقاص في الجنة .. وسعيد بن زيد في الجنة .. وعبد الرحمن بن عوف في الجنة .. وأبو غبيدة بن الجراح في الجنة » .

كما أن الدكتور أحمد شلبى هو مؤلف كتاب « العشرة المبشرون بالجنة » .. اتصلت بالدكتور شلبى الذى رحب بالفكرة وبدأت المذاكرة والتحصيل واشتريت « العبقريات » للعقاد ، وكتاب « العشرة المبشرون بالجنة » للأستاذ عبد اللطيف عاشور الذى يكتب بأسلوب صوفى محبب لدى الجماهير، ولأن الدكتور أحمد شلبى يكتب بأسلوب أكاديمى بحث .. وخلطت بين الاتجاهات الثلاثة .. بالإضافة إلى خواتيم الحلقات من كتاب « الحلية » ورحنا ننتقى أجمل الأماكن للتسجيل حتى أنى سافرت فى رحلة نيلية على الباخرة بين الأقصر وأسوان وسجلت مع الدكتور أحمد شلبى على ظهر الباخرة وهى تجوب نيل مصر .. ودفعت ثمن التذاكر من جيبى ولم أتجاسر على طلب المبلغ المدفوع من التلفزيون .. إذ إن رئيس التلفزيون يرى بأريحيته أن البرامج الدينية لا تسجل إلا فى الاستديو لا حاجة لها بالجمال ولا الأبهة .. وتم تسجيل ثلاثين حلقة جاءت على مستوى طيب والحمد لله .

أخبرت السيدة سهير الإترى بإتمام العمل والمونتاج ومراجعة الرقابة .. فسعت لوضع البرنامج فى وقت جيد ..

جن جنون رئيس التلفزيون .. صاح صارخًا : على جثتى إذاعة « العشرة المبشرون بالجنة » ! ودارت أحاديث كثيرة يندى لها الجبين بين رئيس التلفزيون ونائب رئيس القناة الثانية .. الذى راح بدوره

يوصل لى كلمة بكلمة .. وإليك أيها القارئ الكريم أسلوب رجل
مستول فى التلفزيون .. قال رئيس التلفزيون :
- العشرة المبشرون بالجنة !! ولماذا عشرة ؟
لماذا لا يكونون اثنين .. أو ثلاثة .. أو خمسة من أين تأتى لها
رقم عشرة ؟!!

العشرة من أيام الرسول ﷺ !! لماذا .. مفيش واحد من اليومين
دول مبشر بالجنة .. واحد من السلطة مثلاً .. يعنى عاطف صدقى^(١)
موش مالى عينيها ؟! ولا صفوت الشريف موش من المبشرين بالجنة ؟!
الست كريمان موش ذكية بالمره كانت تختار اثنين من الماضى ... واثنين
من الحاضر ... لا ... لا والله لن تذاع الحلقات ... على جشتى .
- ده حتى الصحفى (فلان) قال للوزير : إن العشرة المبشرين
بالجنة كلهم إرهابيين لا يمكن !!!

ومنعت الحلقات ... وأسقط فى يدى ... وطار بى زوجى إلى
الغردقة حيث أمضيت العشرة الأوائل فى رمضان فى Grand Hotel
نائمة على ظهري ودموعى لا تجف .. وأرفع الأمر لله .

« اللهم حل هذه العقدة ! وأزل هذه العسرة ولقنى حسن الميسور !
وقنى سوء المقدور ، وارزقنى حسن الطلب ! وقنى سوء المنقلب ! اللهم
حُجِّتى حاجتى ! وعُدِّتى فاقتى ! ووسيلتى انقطاع صلتى ! شفيعى
دموعى ! ورأس مالى احتياجى ! وعجزى كنزى ! اللهم قطرة من
بحارك تروينى ! وذرة من عفوك تكفينى ! علمك بحالى يغنى عن
سؤالى يا أرحم الراحمين »^(٢).

* * *

وهذه الشواهد ، وتلك الجذاذات تمثل نماذج ، بل إشارات قليلة
جداً لغيوض من السلع الفاسدة التى يتجر بها التنويريون فى سوق
الفكر والأدب ، فى مصر ، والوطن العربى .

(١) كان عاطف صدقى رئيساً للوزراء آنذاك .

(٢) « الله يازمى » (١٢٤ - ١٢٧) .

والذى يقرأ إصدارات وزارة الثقافة فى عهد الوزير فاروق حسنى يرى سيلاً من « الإبداعات » الشعرية والقصصية تلطم القيم الدينية والخلقية والآداب العامة والذوق الجمالى ، وكأن ذلك ناجم عن خطة موضوعة لتدمير هذه القيم ، ولاتبلى ، ويكون الخطأ خطيئة إذا كان فى عمل نقدى من عمل الرعى الذى لاحظ فيه للأحلام والتحليقات والتهويمات ، وكل - أو أغلب - هذه الأعمال الصادرة عن وزارة الثقافة تضع الدين مقابل العلم .. أى تضع التفكير الدينى مقابلًا دميماً ذميماً للتفكير العلمى المستنير ، وتحت يدي آخر إصدارات وزارة الثقافة النقدية^(١) ، وهو يصفق لكتب ساقطة .. موضوعيًا .. وفنيًا .. وفكريًا بالمعايير النقدية الحصيفة - بصرف النظر عن قيمتها الدينية ، وموقفها من الدين ، وهذه الكتب هى : « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، وكتاب « فى الشعر الجاهلى » لطله حسين ، وكتاب « مقدمة فى فقه اللغة العربية » للويس عوض ، وكتاب « الأنبياء فى القرآن الكريم » لأحمد صبحى منصور ، ورواية : « مسافة فى عقل رجل » لعلاء حامد .

وعن هذه الكتب يقول الكاتب : « إنها كتب تخاطب العقل ، أى أنها تستخدم لغة العلم ، أو تخاطب الوجدان وحاسة النقد لدى الإنسان .. وبذلك يكون مفهومًا هجوم المؤسسات الدينية عليها ، وهى مؤسسات لا تستخدم إلا لغة الدين »^(٢).

وأكتشف - من كلام الكاتب نفسه - أنه لم يقرأ هذه الكتب التى صفق لها وهلل ؛ فهو يذهب إلى أن الأزهر كان وراء مصادرة كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق « مجرد أنه ذكر أن النبى محمدًا ﷺ عندما حكم فى المدينة كملك ، حكومة تقوم على ذات الأساس الذى كان موجوداً لدى القبائل العربية فى عهد ما قبل الإسلام »^(٣) . ويحيل الكاتب استقاء هذه « المعلومة » على كتاب على عبد الرازق ، وكتاب : « الخلافة الإسلامية » لسعيد العشماوى .

(١) وهو كتاب : « أنساق القيم فى الإبداع المصرى » لطلعت رضوان : سلسلة كتابات نقدية رقم ١٠٣ - مايو ٢٠٠٠ .
(٢) طلعت رضوان : السابق (٣٠) .
(٣) السابق (٢٩) .

وبالرجوع إلى الكتابين نجد أنهما يذكران نقيض ما ذكره الكاتب : فعلى عبد الرازق يورد قول الرسول ﷺ لرجل ارتعد في حضرته : « هون عليك .. فإننى لست بملك ولا جبار .. وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة » . ويعلق بقوله : فذلك صريح فى أنه ﷺ لم يكن ملكا ، ولم يطلب الملك ، ولا توجهت نفسه - عليه الصلاة والسلام - إليه ^(١) .

ويقول سعيد العشماوى عن النبى ﷺ فى المدينة أنه لم يحكم الناس أصلاً - كملك أو أمير أو رئيس أو سلطان ، وإنما حكمهم عرضاً كنبى من الله ورسوله ﷺ إلى الناس ^(٢) .
والأمثلة التى عرضناها لا يمكن أن تنتسب للفكر السوى ، ولا للفن النظيف ، كما لا يمكن أن تنتسب للحرية البناء الراقية .. فالحرية بلا ضوابط من القيم السامية والوعى الرشيد تتحول إلى فوضوية مدمرة .

فالفن السوى لا ينهل من المراحض والمستنقعات ، والشذوذ والسفاهة ، ولكنه يمثل النبض الصادق ، والتطلعات الإنسانية فى ظل القيم الرفيعة ، خلوصاً إلى بناء مجتمع سليم ناهض .

ومن الخلل النفسى والتخبط والتناقض أننا - نحن الظلاميين - كلما نقدنا « الإفراقات » اللا أخلاقية ، واللا أدبية - التى ألمعنا إلى بعضها - هاج التنويريون ، واعتبروا نقدنا عدواناً على حرية الفكر والأديب فى الإبداع . وإننى لأتساءل : إذا كان من حق الأديب أن يتمتع بحرية الإبداع .. أليس من حقنا أن نتمتع بحرية النقد ؟
فإذا ما ظهر وانكشف ما فى دعواهم من خلل وتناقض ، لوحوا بورقة أخرى وصرخوا : هذا تطرف .. وإرهاب فكرى .. ولم أصدق

(١) « الإسلام وأصول الحكم » (١٥٠ ، ١٥١) .

(٢) « الخلافة الإسلامية » (٩٠) .. ومن غرائب ما رأيت أن الكاتب طلعت رضوان يكتب فى ثبت مراجعه : القرآن الكريم . ويكتب بجانبه أكثر من طبعة منها طبعة الأزهر ، وطبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف . أقول : هذا غريب لأن القرآن يحال عليه برقم الآيات لا الصفحات .

عينى وأنا أقرأ للسيد رئيس هيئة قصور الثقافة عندما سُئل عن الدوافع وراء حملة النقد لرواية « وليمة لأعشاب البحر » التى قامت الهيئة بطبعتها ونشرها بأن هؤلاء مجموعة « فشلت فى أن تحكم بالقوة والسلاح ، فأرادت أن تحكم حركتنا ، ولا أعتقد أن المسألة تخرج عن هذا الإطار » ص ٧ من أخبار الأدب ٢٠٠٠/٥/٧

وفى العبارة إحياء واضح بإثارة السلطة التنفيذية واستعدادها على هؤلاء النقاد أو « مجموعة القوة والسلاح » يؤكد هذا المعنى ما ذكره السيد رئيس القصور فى رده (الغاص بالأخطاء النحوية واللغوية لا المطبعية) والمنشور فى صحيفة الشعب فى ٢٠٠٠/٥/٢ ، يقول : « لكن هناك بعض الجماعات الأصولية السياسية والثقافية دأبت على تهويل ما تظن أنه خطأ فى محاولة لإثارة البلبلة ، وفرض هيمنتها ، وترويع المسؤولين والمثقفين والمبدعين بحيث يظل المجتمع أسير (يقصد أسيراً) لتلك الصورة التى يروجون لها ، ويعملون ضمن شبكة واسعة منظمة للسيطرة على مقدرات حياتنا الثقافية » .

ويقول : « ولعل مقال محمد عباس فى الشعب أبلغ دليل على المنهج الإقصائى والانتقائى الذى يقوم به البعض فى محاولة تصوير أنفسهم بأنهم هم وحدهم حماة الأديان والمحدثين (يقصد المتحدثون) باسم الله جل جلاله على الأرض » ، ويتحدث عن الدكتور محمد عباس ويصفه بأنه « ليس ناقدًا أدبيًا ، بل هو رجل يكتب فى موضوعات عامة لإشغال الحرائق ، ومقالاته السابقة التى يهاجم فيها كل المسؤولين بمصر والمنشورة بالشعب وعلى رأسهم رئيس الدولة توضح الغرض المستتر الذى يهدف إليه » .

ومرة أخرى نرى فى كلام « رئيس الهيئة » استعداد ، واستعداد للسلطة التنفيذية وعلى رأسها رئيس الجمهورية . وهذا يدل على شعور أكيد بضعف موقف الدين يدافعون عن رواية « حيدر » . يدل على ذلك تصويره لناقضى الرواية بأنهم ينتمون إلى جماعات أصولية وثقافية .. وهذا كذب بواح ، فمن الناقدين والناقضين قضاة ومحامون وأساتذة فى الجامعات لا علاقة لهم بأى تنظيم أو تيار أصولى .. ومن هؤلاء الأستاذ فاروق جوييدة الذى كتب فى الأهرام بتاريخ ٢٠٠٠/٥/٧

مقالاً قوياً جداً .. جداً بعنوان « الثقافة الجادة » نسف فيه بحق وعقلانية « الحيدرية والحيدريين » المدافعين عن « أدب المراحض » ، وقد وجدت صعوبة كبيرة في اختيار بعض فقرات منه ، فكله من أوله إلى آخره جدير بالنشر على أوسع نطاق .. وأكتفى منه بالقطوف الآتية :

« .. ما هو الهدف من نشر رواية سورية لحيدر حيدر من ميزانية أجهزتنا الثقافية ؟ وكيف تصدر من أموال تخص نجوع مصر وقراها وشبابها المطحون ؟ .. » .

« .. إن هذه الكتابات تعتمد تماماً على حديث الغرائز ، حيث لا أسلوب .. ولا فكر .. ولا هدف .. ولا قيمة .. وهي أبعد ما تكون عن جماليات الفن والإبداع .. هناك فرق كبير بين فنون تؤكد قيم الجمال حتى لو قدمت نماذج سلوكية قبيحة ، وفنون أخرى تروج القبح وتدعو إليه » .

« لو خرج رجل مجنون إلى الشارع ، ووقف عارياً في ميدان التحرير فإن الشرطة سوف تلقى القبض عليه ، ويعاقبه القانون .. فماذا عن هؤلاء الذين يمارسون العري في الكتابة ، ويجدون من ينشر لهم ، ويدافع عنهم ، ويعطيهم الأموال من جيوب الشعب الغلبان ؟ » .

« .. لو أن شخصاً قرر الآن أن يطبع كتاباً ، ونحن على أبواب الانتخابات البرلمانية ، وأن يثار فيه من الحزب الوطني ويشوه رموزه .. هل يجد في أجهزة الثقافة من ينشر له هذا الكتاب ؟ » .

* * *

ويصف رئيس الهيئة الدكتور محمد عباس بأنه « ليس ناقدًا أديبًا » ، وكنت أتمنى أن يعرف لنا « الناقد الأديب » من وجهة نظره وأنا أقول : بل هو أديب وناقد من الطراز الأول بكل المقاييس .. فالرجل له قصص وروايات لها قيمتها الفكرية والفنية ، وله نهج جديد في

كتابة « المقال » ، وقد رأيت بعض أساتذة الأدب في إحدى الجامعات العربية يصف محمد عباس بأنه رائد « فن المقال الدرامي » ، ويقدم نماذج من هذا الفن لطلابه كمادة دراسية ضمن منهج « الفنون النثرية في العصر الحديث » ، ولا يستطيع منصف أن ينكر أن محمد عباس معروف مشهور على مستوى الوطن والأمة العربية والإسلامية ، وجاليات العرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا من سنوات ككاتب شديد المراس ، متميز المنهج والأسلوب .. يقصد بكتابات وجه الله ومصلحة الوطن ، ونصرة الإسلام .. ومن عجب أن يكتب أحد الصحفيين مقالاً طويلاً - ضمن منظومة الهجوم الضاري على محمد عباس - عنوانه « محمد عباس لا هدف له إلا الشهرة » أخبار الأدب : ٢٠٠٠/٥/٧ - ص ١٨ ، وأنا أعلم علم اليقين أن الرجل زاهد في الشهرة ، يتهرب دائماً من الأضواء ، ويرفض كل دعوات القنوات التلفازية الفضائية .. منها دعوة وجهت إليه في رمضان الماضي للظهور في برنامج « الاتجاه المعاكس » بقناة الجزيرة ، وآخرها دعوة للظهور في نفس القناة في برنامج « المشهد الثقافي » . ولو أراد الرجل الشهرة والجاه والنفوذ ، وبهارج الحياة وزخارفها لأحنى رأسه ، ولو قليلاً ، وسائر الاتجاه السائد .

* * *

واتهام محمد عباس بحرصه على التهييج والإثارة ، وإشغال الحرائق ... اتهام ساقط .. لأن شعبنا يا سيدى - مسلميه ومسيحييه - شعب متدين بطبيعته ، وهو يتحرك ويتصدى بصورة عفوية لكل من يخذش دينه .. فالرجل الأمي الجاهل قد يسب أحدهم أباه ، فلا يرد الإهانة عفواً وتسامحاً ، ولكن إذا سب دينه هاج وماج ، وتكون معركة قد تسيل فيها دماء .

وأذكر في هذا المقام - في عهد السادات - بعد حصولنا على درجة الدكتوراه دعينا في عيد العلم لحفل احتفاء وتكريم للحاصلين على هذه الدرجة في مبنى أمانة الحزب الوطنى على شاطئ النيل ، وحضر الحفل الرئيس السادات وزوجته ، واستضافوا في الحفل رجلاً جاوز الثمانين قيل لنا : إنه الأستاذ الذى كان يدرس مادة « الرياضيات »

فى المرحلة الثانوية للطالب محمد أنور السادات .. بدأ الرجل بالحديث من المنصة مخاطبًا سيدة مصر الأولى ، وكان ضمن ما قال :
« .. لقد خلق الله الجمال وقسمه نصفين ، فخصك بنصفه الأول ، ووزع نصفه الثانى على بقية نساء العالمين .. » .

وظهر الامتعاض على الوجوه والغضب ، بسبب هذا النفاق الرخيص ، وبدأ « الأستاذ » يتحدث عن السادات بقوله : « إن فى خلق السموات والسادات لآيات لقوم يعقلون » ، فانتفض الحاضرون ، وصرخوا فى صوت واحد :

« انزل يا منافق !!

انزل يا فاجر !!

حركة عفوية تلقائية ، ظهرت - والله - كأنما اتفق عليها ، وتدريب الحاضرون عليها من أيام ، وأغلب من حضر هذه الواقعة ما زالوا أحياء منهم : الدكتور أحمد أمين مصطفى الأستاذ بكلية الألسن .. والدكتور عبد اللطيف عامر رئيس قسم الشريعة بجامعة الزقازيق .. والدكتور عبد الرؤوف أبو السعد عميد كلية التربية بدمياط .. وكان ضمن الثائرين أساتذة مسيحيون .. ويحمد للسادات أنه كلف من يهمس فى أذن الرجل بالبعد عن « منطقة المقدسات » فى حديثه .. فاعتدل الرجل . (مع ملاحظة أن الدكتور محمد عباس لم يكن فى هذا الحفل) .. فشعبنا بطبيعته شعب متدين ، سليم الفطرة .. فمصر - كما يقول الأستاذ فاروق جويده - « عشقت الأديان قبل أن تظهر فيها الأديان .. وهى التى احتضنت كل رسالات السماء من التوراة والإنجيل والقرآن ، وهى التى أكرمت العائلة المقدسة ، وحفظت للإسلام دوره وتاريخه » .
الأهرام ٢٠٠٠/٥/٧

ومن مصر خرجت الجيوش لتحقيق أعظم انتصارين فى التاريخ : على الصليبيين فى (جطين) .. وعلى التتار فى (عين جالوت) .. وبالنصر فى المعركة الأخيرة التى كان شعارها : « وإسلاماه » أنقذت مصر « أوروبا » من التدمير التتارى ، فلولا هزيمتهم لانطلقوا إلى « مضيق جبل طارق » ، ثم شمالاً إلى أوروبا ليُخَيِّكُمُوا الحلقة بعد الوصول إلى آسيا الصغرى .

* * *

ويحمل الحاملون على محمد عباس - لأنه كشف سواة « أدباء المراحض »، ويتهمونه بالتهويل .. والتضخيم .. والتهيج .. والخطابية .. والعاطفية .. والتطرف .. وأقول : إنها عملية إسقاط رخيصة ، فمهاجمو الرجل هم أقرب الناس إلى هذه الصفات والسلوكيات . ولنفتح ص ٢٢ من روز اليوسف (٢٠٠٥/٥/٦) وفي صدر الصفحة نقراً ما يأتي :
أشرس حملة إرهاب فكرى تشهدها مصر - إهدار دم وزير الثقافة، ومبدع سورى ، وأربعة مثقفين مصريين .. إعلان الجهاد المقدس ضد « وليمة لأعشاب البحر » هدفه أن نصبح وليمة للمتطرفين .. الروايات لا تقرأ بأسلوب « جوبلز »^(١) النازى ، ولا بطريقة وكلاء الله على الأرض - لم تشهد مصر إرهاباً فكرياً منذ عدة سنوات مثل الذى شهدته الأسبوعين الماضيين - فتاوى تكفير بالجملة لا تحتاج إلا الضغط على الزناد - بيانات إهدار دم كافية لتفجير آلاف الألغام ألقيت عمداً فى ساحتنا الثقافية والفكرية لتحرق الجميع دون تفرقة - مقاصد (!!) لاجتثاث الرءوس ، وقطع الرقاب داخل محاكم التفتيش الحديثة - انتصر الخوف ، وسيطر الفرع ، وساد الرعب ، وأصبحنا نقف فى طابور إعدام ننتظر دورنا » (ص ٢٢) .

ومن هذا التهويل كثير ... وكثير ... يشدك إلى عصر المقاصل وسجن الباستيل والدماء فى ميادين باريس أيام الثورة الفرنسية .. وهذا هو التطرف الحقيقى .. والدولة تحارب ما تسميه بالتطرف الدينى الذى تعتبره رجعية ، وردة حضارية ، وتدميراً للوطن .. ولكن ما رأى المستولن فى « التطرف اللادينى » .. التطرف الإنكارى الذى يتعامل أصحابه مع الإسلام كأنه « مشط كبريت » يحرقونه عوداً عوداً ويلقون به ، فلا يبقى منه إلا « الغطاء الخارجى » الذى لا يغنى ، ولا يشبع من جوع .. وقد أصبح الهجوم على الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه وقيمه العليا هو أقرب طريق وأسهل لتحقيق الشهرة والمجد والمال .

* * *

(١) جوبلز : هو وزير الإعلام فى عهد هتلر .

والذين دافعوا عن هذه الرواية سلكوا مسالك متعددة :

١ - أحدهم دافع عنه بمقولة أن الرجل ذو خلق رفيع ، وله نضاله المعروف ، وأعمال فنية أخرى رائعة .

(وهو دفاع واه لأنه دفاع خارج الموضوع ، وصفاته هذه تشدد من تجريم العمل فحسنت الأبرار سيئات المقربين) .

٢ - وبعضهم دافع بمقولة « حرية الفن » فمن حق المبدع أن يقول ما يشاء .

(وهو رأى هدام لأن الحرية بكل أشكالها لها قيود وضوابط .. وإلا أصبحت فوضوية مدمرة .. فمثلاً حرية العمل مكفولة بنص الدستور ، ولكنها مقيدة بقيود وضوابط ثقيلة منها : احترام قانون العمل ، وألا تكون مادة التجارة محرمة كالمخدرات التي يعمل بها ... إلخ . على أن الذين ينادون بحرية المبدع يعتبرون نقدنا للإبداع المريض إرهاباً فكرياً !!) .

٣ - وبعضهم يرى « حيدر » بأن هذه العبارات إنما جاءت على السنة بعض شخصيات الرواية وليس الروائي مسئولاً - بالضرورة - عن حوار شخصياته ، أو يكون هذا الحوار ممثلاً لرأيه هو .. إنما هو ملتزم في ذلك بواقعية التصوير .

والتهافت هنا واضح .. لأن الروائي مخترع هذه الشخصيات وأسلوبها في التعبير . كما أن « الواقعية » لا تعنى تسجيل الواقع ونقله كما هو .. وإلا ما كانت الرواية رواية ، ولا الفن فناً .. لأن الواقعية تعنى مصداقية التصوير ، وتصفية الواقع ، وتنقيته بوجودان الفنان الواعي ، وعقله الفعال .

والنقاد يجمعون على هذا الحكم .. وهي مسألة سنعود إليها فيما بعد بشيء من التفصيل إن شاء الله .

٤ - وبعضهم يدافع عن الرواية بالإحالة على شهادات سابقة كتبت من شهور أو سنوات بتقديرها والثناء عليها .. كالدكتور على الراعى رحمه الله .

(وهذه الإحالة توحى بضعف موقف الخيلين . على أن هذه الآراء

لا تلزمنا .. وهى فى ذاتها تحتل النقد بل النقض ، كما أنها لا تبرئ الرواية مما فيها من عبارات هابطة سافلة) .

ثم أقول : إننا لو حكّمنا - بعيدًا عن الدين - الحد الأدنى من « الذوق السوى » ما استساغ ألفاظ « الخراء » وما دار فى فلكها .. ثم أسأل ما سر إصرار الكاتب على هذه العبارات ، وهل تتأثر الرواية فنيًا وموضوعيًا لو أسقطت من الرواية أو استبدل بها غيرها ؟

* * *

وأذكر القارئ - على سبيل الإلماع - ببعض ما قدمه التنويريون على مائدتهم :

١ - لا علاقة للإسلام بالسياسة ، ونظام الخلافة الراشدة نظام جاهلى فاسد .

٢ - فى القرآن آيات أدخل عليها تحريف ، وهو لا يخلو من الأخطاء اللغوية والنحوية .

٣ - التشكيك فى الحدود الإسلامية ، والدعوة إلى رفعها أو بعضها من الشريعة .

٤ - سقوط أجهزة الإعلام - وخصوصًا التلفاز - فيما حرم الله بالإساءة إلى الدين بالعروض اللاأخلاقية ، والرقص العارى ، والفوازير ، وحرمان أصحاب « الرأى الآخر » ، وخصوصًا الإسلاميين من التعبير عن آرائهم .. فالمسيطرون على هذه الأجهزة والقنوات من عتاة العلمانيين واليساريين .

٥ - مجتمع المدينة أيام رسول الله ﷺ كان مجتمع دعارة وانهيأ خلقى .

٦ - أدب الفراش والدعارة - قصصًا وشعرًا - يمثل جوهر التجديد والوعى الراقى .. وبعضه تسرب ليكون مادة دراسية جامعية .

٧ - فتح المسلمين لمصر كان غزوًا همجيًا وحشيًا .

٨ - التحشم والحجاب تخلف ورجعية ، وردة حضارية !!

- ٩ - فى ختان الذكور ضرر .. ووحشية .. ويجب تحريره .
- ١٠ - الحضارة العربية الإسلامية حضارة لواط .
- ١١ - ثوابت الشريعة فى الميراث وغيره يجب أن تتطور وتتغير .
- ١٢ - احترام العقل والجسد لا يتحقق إلا بالسماح برسم الأجساد عارية فى كليات الفنون كمادة دراسية لارتقاء الفن .
- ١٣ - الإساءة إلى ذات الله والدين ووصف القرآن بأنه « خراء » عمل فنى رفيع علينا احترامه وعدم التعرض له !! .
- وغير ذلك كثير ... وكثير جداً .

* * *

كانت هذه بعض مظاهر الخلل الفكرى والثقافى والأدبى الذى نعيشه ابتداء من العقدين الأخيرين بصفة خاصة ... لا صوت - له اعتبار - إلا الصوت الحكومى .. والعلمانى .. واليسارى . أما الصوت الإسلامى فخافت .. أو مخنوق .. أو ممنوع .. تراكمات نفسية ثقيلة عنيفة كانت تتجدد ، وتزداد وتتكثف .. الإحباط .. أو اليأس .. أو الغضب الدفين .. مشاعر تجذرت .. وترسخت فى النفوس .

ثم جاءت « وليمة لأعشاب البحر » ، لتتكأ الجراح ، وتوقظ ما نام ، وتريح الرماد عن مبيض نار أوشك أن يكون له ضرام .. فكانت مظاهرات ومؤتمرات واحتجاجات . ولم يتصدَّ المسئولون فى وزارة الثقافة للمشكلة بوعى وتفهم ، وواقعية ومصداقية ، وتابعتهم الصحف القومية ، وبعض صحف المعارضة ، وأصرروا على التماذى فى الباطل والتطرف ، مدعين أن الرواية ليس فيها ما يهدد الإسلام والخلق .. بل زاد تماذيتهم تماذياً فادَّعوا أن الرواية تؤدى للإسلام خدمات جليلة (!!) .

* * *

وعلى أية حال عكفت على قراءة الرواية قراءة متأنية فاحصة ، ورأيت أن من حق الإسلام على الأدب أن أقدم فيها دراسة موضوعية منصفة ، أمل أن تكون وافية بالغرض ، وجعلت الدراسة قسمين :

القسم الأول : عنوانه : « مع الرواية دينًا وأدبًا » .
والقسم الثاني : عنوانه : « الرواية بين التحدى والتصدى » .
ولا أفصل القول فى المقصود بهذين القسمين .. فالقارئ على إدراك ذلك قدير .. ثم إنى ذيلت الكتاب « بوثنائق » مختلفة استكمالاً للفائدة ...

وأخيرًا أدعو الله أن أكون قد وفقت فيما خلصت إليه من أحكام .. إنه نعم المولى ونعم النصير .

د . جابر قميحة

ج . مصر . ع
الحيزة . الأورمان
رمز بريدى ١٢٦١٢
ص . ب ٢٤١

ربيع الآخر ١٤٢١
يوليو ٢٠٠٠

القسم الأول
مع الرواية
أدبًا ودينًا

عرض الرواية

« وليمة لأعشاب البحر » لحيدر حيدر ، أعطاهما كاتبها هذا العنوان لأن بطل الرواية .. أو واحدًا من أهم أبطالها ، وهو « مهدي جبر » انسحب من الحياة بعد معاناة طويلة ، ووقائع وتجارب مرة قاسية ، وألقى بنفسه منتحرًا ، ليكون طعامة أو « وليمة لأعشاب البحر » .

وتدور أحداث الرواية في العراق والجزائر .. وإن كان حضور الأخير أظهر وأكثر امتدادًا في الظاهر على الأقل .. والأحداث، منها التاريخي الحقيقي .. ومنها الروائي المخترع ومنها ما يروى مباشرة .. ومنها ما يستحضر بالتذكر وأسلوب الاسترجاع أو الاجترار وهو ما يسمى بالـ (Flash Back) .. وهذا ما حرم الأحداث « التدفق التصاعدي » المنتظم ، الذي يجعل خط المنطق الروائي متفققًا وموازيًا للمنطق الزماني من البداية إلى النهاية ، بدون « تقاطعات » أو « مقاطعات » .

قسّم الكاتب روايته ثمانية فصول .. عناوينها بالترتيب : (الخريف - الشتاء - الربيع - الأهوار - الحب - نشيد الموت - ظهور اللويثان - الصيف) . والمساحة الزمانية في الرواية تستغرق عهد عبد الكريم قاسم في العراق ، وأبومدين في الجزائر ، ويطلق عليه في الرواية (بوخروبة) . يفجع الماركسيون في حكم « الزعيم الأوحده » ، فيلجأون إلى تشكيل التنظيمات المسلحة ، وتبدأ المواجهة - أو المواجهات - المسلحة غير المتكافئة .. وأشهرها وأشدّها كانت في مستنقعات « الهور » حيث سقط الرفاق صرعى ، « وتهاوى من بقى منهم في الشوارع والأزقة والأقبية برصاص كواثم الصوت والبلطات القاطعة ، وضغطات الكونكريت التي تهشم الرأس بين مخالبيها ، وسائر مستحدثات القتل المستوردة ، وينجو من ينجو هاربًا عبر فجاج الأرض »^(١) .

(١) « الوليمة » (٤١٣) .

وأهم من هرب من هذه المجزرة ، ومن جحيم الإرهاب الذى شنه الزعيم الأوحى على الشعب العراقى شخصيتان محوريتان هما : مهدي جواد ، ومهيار الباهلى اللذان يَمُما شطر الجزائر بعد أن استقلت بعشر سنين .. فاستقبلتهما مدينة « بونة » الجزائرية الساحلية .. جاء ، والتقيا على غير اتفاق أو ميعاد مأخوذين بعظمة بلد المليون شهيد ، ويجمع بينهما المذهبية الماركسية ، وصدمة الهزيمة والانكسار ، ومعاناة التعذيب فى السجون والمعتقلات ، والطموح إلى التغيير الشامل ، وفقاً لأحلام الأيديولوجية التى يعتنقان .

ويلتقى جواد بالفتاة الجزائرية « آسيا لخضر » أمام مدرسة القديس أو غسطين الثانوية ، واتفقا على أن يعلمها اللغة العربية فى دروس منزلية خاصة ، ويصبح الدرس وسيلة ومفتاحاً للقاء والسهر والخروج والمتعة .

ويحاول مهيار الباهلى أن يعرض عن الهزيمة الساحقة التى نزلت بالماركسيين فى العراق فيواصل جهوده متصلاً بالثوريين الجزائريين .. ولكنه لم يجد الاستجابة المأمولة .. فالشعب الجزائرى - بعد الاستقلال ، وتحت وطأة الحكم الوطنى الشمولى - يعيش جزءاً من الخوف ، وانعدام الوزن والثقة .

ويلتقى مهيار بـ « فلة بوعناب » ، وينزل فى بنسيون هذه التى كانت مجاهدة قديمة ، وتشرح له الوضع السيئ الصادم فى جزائر ما بعد الاستقلال « ... الدنيا فوضى ، والبلاد بلا قوانين ولا مؤسسات ، والصراعات محتدمة داخل جبهة التحرير التى تحولت إلى حزب مخلوط : يمين ويسار ووسط .. عسكر .. وتجار .. وإقطاع .. وفلاحون .. ومثقفون .. مخلوطة عجيبة وغريبة !! »^(١).

الثورة الوطنية انتهت ، والرجال صاروا فى مواقع السلطة والمسئولية .. وهانحن اللواتى قاتلن فى الجبال والمدن نتحول إلى الخدمات المنزلية : جميلة بوحريد تزوجت من محاميتها ، وهاجرت معه .. جميلة بوعزة دخلت فى النسيان .. أنا مع آلاف النساء صرنا إلى ما يشبه المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال^(٢).

(١) « الوليمة » (٨٢) .

(٢) المرجع السابق (٨٣) .

وتغدو المسيرة فى اتجاهها الطويل منظومة مكشوفة من المواقف الجنسية الحادة المستغرقة فى الارتواء اللامشروع والسهر والخمر ، مرتبطة بالطبيعة غالبًا ، وخصوصًا طبيعة البحر والشاطئ ، فى صور تختلط فيها الرومانسية بالسريالية . ونواجه فى الرواية صورة أخرى من صور الاستلاب هو الاستلاب الاجتماعى - من وجهة نظر « آسيا لخضر » - حين يتزوج أو .. « يستولى » « يزيد ولد الحاج » على أمها « لا لا فضيلة » بعد استشهاد أبيها « سى العربى » برصاص الفرنسيين ، ويحاول الزوج الجديد أن يحكم الأسرة كلها : زوجته لا لا فضيلة ، وآسيا ، وشقيقتها منار وشقيقها رابع . إنه بيت سى العربى يحتفل برب الأسرة الجديد يزيد ولد الحاج « ولى النعمة ، منقذ الأسرة من الفقر واليتم والتشرد فى أعقاب استقلال الوطن .. الرجل الأمى ، تاجر المارشى نوار ، المالك عشرين مليونًا من الدنانير ، يتحرك ، ويفكر بمستوى ملكيته »^(١).

ولكن هذه السطوة لم تمنع آسيا من الثورة فى وجهه ، وسبه بأقذع السباب مما أصابه بالجزع ، ودفعه إلى الهرب بعد أن شعر بانتهيار كبريائه ، وربما بالندم لأنه تسبب فى إثارة آسيا ، إذ سب الأم وبناتها ، ووصفهن بصفة لأخلاقية .

التوتر الحاد هو السمة النفسية العصابية التى تسيطر على سلوكيات الجميع وتوجهاتهم ، وهو نتيجة طبيعية لمجموعة الإخفاقات المتلاحقة المحصودة على كل المستويات : إخفاق المجتمع الجزائرى فى تحقيق مطامحه فى الاستقرار والتوازن بعد الاستقلال ، وانكسار الماركسيين فى العراق ، وسحقهم ، ثم إخفاقهم فى فتح « أسواق » دعوية لهم فى الجزائر .

واقترنت بعض الشخصيات القيادية بدفن شعورهم بالخيبة والإحباط فى الخمر والنساء .. ومنهم من رأى الحل فى الانتحار كما فعل « عطشان ضيوى » القائد العسكرى عضو الحزب الشيوعى العراقى الذى ألقى بنفسه منتحراً من الطابق الخامس بأحد الفنادق بمدينة بون بألمانيا^(٢).

(١) « الوليمة » (٦١٨) .

(٢) المرجع السابق (٤٦٩) .

ويحاول مهدي جواد الانتحار بقطع شريانه ، ثم يغمد لفافته المشتعلة في
الجرح ، ، ويروح في غيبوبة كان من الممكن أن يكون فيها نهايته لولا إنقاذ مهيار
الباهلي له .

وإذا كانت هذه المحاولة قد أخفقت فإن الأخرى والأخيرة قد نجحت ، فنرى
مهدي جواد « ... يخطو نحو البحر ، على الرمل يتعري ، ثم يصعد صخرة ،
يتنفس بعمق الهواء الرطب ، وباندفاع طائر يقذف جسده في البحر »^(١) .
وبهذا المشهد المأساوي تنتهي الرواية .

* * *

(١) « الوليمة » (٦٩٠) .

البناء الفني

بين يدى هذا المبحث قد يكون من الفائدة الإشارة إلى عدة حقائى تتعلق بالرواية .. منها الشكلى .. ومنها الموضوعى .. وهى فى مجموعها تلخص فيما يأتى :

١ - أن كتابة الرواية استغرقت عدة سنوات .. أى أن حيدر حيدر كتبها على فترات متقطعة ما بين الشام ، والجزائر ، وبيروت ، وقبرص .. وذلك باعتراف كاتبها .

٢ - أن الرواية حين ظهرت ظلت ممنوعة من دخول أغلب البلاد العربية لمدة اثنى عشر عامًا - باعتراف المؤلف - وهذا يعنى أنه كان هناك إجماع شبه تام - على مستوى الفكر العربى - على خروج الرواية على المفاهيم والمسلمات الفكرية والعقدية^(١) .

٣ - صفحات الرواية فى طبعتها الأولى سنة ١٩٨٣ (ولم يذكر فيها بلد الطبع ، ولا الدار الطابعة) بلغت ٣٧٨ صفحة بالحروف الصغيرة .. أما طبعة وزارة الثقافة المصرية فبلغت ٦٩٠ صفحة بحروف أكبر .

والطبعتان متماثلتان حتى فى علامات الترقيم التى لم يستخدم الكاتب منها إلا : النقطة دائمًا .. وعلامتى الاستفهام والتعجب أحيانًا .. ونادرًا ما يستعمل الفاصلة .

ومن يقرأها يشعر بأنها مصابة بتضخم فادح غير حميد ، وسبب ذلك التكرار والإسهاب إلى درجة الغلو فى وصف مظاهر الطبيعة وأبعاد البيئة ، ومواقف بعض الشخصيات ، وكذلك الحقائق والوقائع والتقارير التاريخية المطولة .. وهو مأخذ سجله على الرواية من ناصروها ، ووقفوا فى صفها^(٢) ولو حذفنا ما فيها من تورمات لجاءت فى نصف حجمها الحالى .

(١) وهذا اعترف به حيدر فى حديثه مع الصحفية أمنية طلعت . (أخبار الأدب ٢٠٠٠/٥/٧) .

(٢) انظر : « الرواية فى الوطن العربى : نماذج مختارة » للدكتور على الراعى عن (أخبار الأدب

٢٠٠٠/٥/٧) .

٤ - والرواية سياسية فى المقام الأول ، وتنتج - كروايات الحداثة وما بعد الحداثة .. إلى تعرية الواقع الراهن ، وهزّه والكشف عن منطقته^(١) وهى تبرز التجربة الشيوعية فى العراق ، وتهاجم القوى البرجوازية فى العراق والجزائر بصفة خاصة ، مع الاستشراق الممتد إلى « المجتمع الأفضل » فى ظل الأيديولوجية الشيوعية ، والنظر إلى الكفاح المسلح كطريقة مثلى .. بل منهج وحيد لتحقيق « أول كميونية عربية »^(٢) .

* * *

والرواية - كما هو معروف - فن نثرى خيالى طويل .. أو قصة طويلة تجمع فيها عدة عناصر فى وقت واحد مثل السرد .. والوصف .. والأحداث .. والشخصيات .. والحوار .. والمغزى .. وكل ذلك فى بناء فنى له قيمته الفكرية وقيّمته الجمالية ، وقيّمته الشعرية .

وليس هناك موضوعات تختص بها الرواية .. بل إن الحياة بما فيها ، ومن فيها ، فى ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها المتخيل تتسع لمنح الرواية موضوعاتها ، وعلى أساس هذه الموضوعات يقسم النقاد الرواية إلى أنواع : سياسية .. اجتماعية .. تاريخية .. نفسية .. إلخ^(٣) .

والحرية التى تتمتع بها الرواية فى أن تطول كما تشاء ، وتتسع جوانبها وأطرافها كما تشاء ، تهين لها أن تتناول موضوعها من أول نقطة ، وأن تلم بجميع ملامساته وجزئياته ، وألا تقتصر على عدد محدود من الشخصيات والأحداث ، وألا تقف دون حادثة خارجية أو خالجة داخلية .. وهذا ما يؤهل القصة لأن تتولى

(١) انظر فى ذلك : عابد خزندار : رواية ما بعد الحداثة (٦٧) ، وإن جاء ذلك بأشكال نرفضها .

(٢) محمود أمين العالم : رواية عن الأوضاع الفاسدة : نشيد الثورة العربية المجيدة .

(دراسة بمجلة أخبار الأدب ٥/٧/٢٠٠٠) .

(٣) انظر : الدكتور محمد عنانى « الأدب وفنونه » (١٢٤) ، ومجدى وهبة « معجم

مصطلحات الأدب » (٣٥٤) ، ولمعرفة أنواع الرواية واتجاهاتها انظر الصفحات : (٢٢ - ٤٨٥ -

٦١٤ - ٦٠٥ - ٥٦٢ - ٣٥٧ - ٤٢٦ - ٣٧١ - ٥١٣) .

التعبير الكامل عن التجربة الشعورية التي تختارها أُنثى كانت طبيعتها ولونها ،
ومجالها فى الزمن أو فى الشعور^(١) .

والرواية عمل فنى متكامل ، وله عناصره التى تشكل هذا العمل ، وتعدد هذه
العناصر إنما هو تعدد صناعى لأن هذه العناصر لا قيمة لها إلا بقدر وجودها فى
العمل القصصى منصهرة فيه ، يتفاعل بعضها مع بعضها الآخر .. فهناك البيئة
أو المكان والزمان ، والأحداث والوقائع والشخصيات والحبكة والسرد والحوار .
ولنا مع هذه العناصر وقفات فى نطاق الرواية الحيدرية : « وليمة لأعشاب
البحر » :

(١) سيد قطب : النقد الأدبى .. أصوله ومناهجه (٧٦) .

أولاً : البيئة

معروف أن الأحداث تقع بفعل الشخص، ولا بد للأحداث والشخص من بيئة مكانية وزمانية تمارس فيها وجودها .. وبذلك يبدو جو من الواقعية على العمل القصصى .. ليس هذا فحسب .. فلبينة دور دينامى فاعل فى الأشخاص والأحداث والموجودات ، وفى إبراز بعض الملامح النفسية للشخصيات ، فتعلق الشخصية بمكان معين ذى مواصفات متفتحة أو موحشة يكون له تأثيره ودلالته على طبيعة الشخصية .. وللقاد كلام كثير فى هذا المجال .

والمساحة المكانية فى هذه الرواية موقعان أو وطنان هما : العراق والجزائر .. فهما المكانان المباشرين للذات تحركت فيهما الشخصيات والأحداث ، ويمكن أن نطلق عليهما « المكان الفعلى » .. لأن الرواية اتسعت لمساحات مكانية أوسع أماذا ، وتستغرق الوطن العربى كله .. ولكن بالتذكر والاسترجاع Flash back .. وذلك فى إشارات يحاول بها الكاتب خدمة المضمون الفكرى ، والبناء الفنى للرواية .

وكان حظ البيئة الجزائرية أوفى من حظ البيئة العراقية .. وجاء ذلك طبعياً لافتعال فيه .. لأن بيئة العراق مرتبطة بأزمة الإخفاق والانكسار .. وبالمقابل كانت بيئة الجزائر مرتبطة بالأمل والاستشراق ، والتطلعات الآملة إلى تحقيق مالم يتحقق بالمعركة الخاسرة وغير المتكافئة مع قوات عبد الكريم قاسم .. وإن ظل للعراق مكانها فى منطقة التذكر والتحريك النفسى .

وداخل هذه المساحة المكانية الشاسعة واسمها الجغرافى : الجزائر .. كان هناك مساحات أصغر هى - بالمنطق التنازلى - « بونة » المدينة الساحلية ، والشواطئ والبنسيون الذى تملكه وتديره « فلة بوعناب » .. والحجرة التى استأجرها مهدي جواد من الشيخ محمد .. وهناك البارات والشوارع والمتنزهات ، وكل أولئك مثل مسرحاً مكانياً للأحداث والأشخاص .

وعلى مدار الرواية كلها نرى غرام الكاتب بالبحر لا يعادله غرامه بأى مكان

آخر .. فهو يشدنا إليه بأسلوب رومانسي - صوفي أحياناً - أخذ أسر حتى ليحس المرء أنه لا ينقصه إلا الوزن والقافية حتى يصير شعراً .. وظاهرة التشخيص من أبرز ملامحه ، مع قدرة على التحريك والتلوين والإنطاق في مشاهدته التي يرسمها للطبيعة .. يقول في صباح مدينة « بونة » :

« صباحات أفريقيا عذبة رغم برودتها القاسية ، فجر حزين وغامض كأسرار الغابات ، يحمل في هبوب ريحه روائح مفعمة بالبرارى ، وشفوف البحر .
إن الغموض الذى يوشى غلاف المدينة ، يطوقها بشفافية الأسى والصمت ..
هذه الموسيقى الموجهة بالأسرار تتجلى تحت الفجر الرطب حيوية وشوقاً .
العمال والفلاحون والطلبة ، وهذه الطيور الصائخة عبر الغابات ، وفوق مياه البحر توقظها شمس بونة فتندفق بكل دينامية أفريقيا العذراء .

وصباحات هذه القارة المضاء والخضراء تقول شيئاً متناقضاً يصل منابع الدهشة .. ما أعذب هذه القارة ، وما أقصر الإقامة هنا !! هذا ما يحسه الغرباء بعد وقت^(١) .

وتتجلى شاعرية الكاتب وهو ينتقل ذهنياً إلى مساحة مكانية أخرى تختلف عن السابقة تماماً إنها « مكانية » الأهور المنطقة السبخة الطينية في العراق حيث دارت المعركة بين فصيل شيوعى وقوات عبد الكريم قاسم بمصفحاته ، ومدافعه ، وطيرانه ، والحركة فى هذه المساحة قوية متلاحقة ، عالية النبرة :

« تحت سطوة الهجوم تجلى القتال التراجعى داخل هذا الحقل المغناطيسى شبيهاً بالانقذاف داخل دوارات بحرية ، يَدَوُّ تحت الشفق الزعفرانى المرشوم بالوحل كأنما يدورون ببطء داخل رحم غرينى اندفعوا للاحتماء به كأطفال مهددين ، لكنه كان يبتلعهم على مهل كلما أوغلوا فى أعماقه .. فى لحظة مفلته من نطاق الوعى تراءى لهم كأن شيطاناً سحرئاً ممغنطاً تشكل من نداء الحياة والموت والطفولة ، وجنيات النهر والغابات ، والضباب ، ووهداث الأرض ، نهض من أعماق الطمى ، وراح يسحبهم إلى جوفه ... »^(٢) .

فالمكان فى الطرح السابق لم يكن مجرد ساحة للمعركة ، لكنه تحول بقسوته

(٢) « الوليمة » (٤٠٦) .

(١) « الوليمة » (١٤٦) .

إلى رمز للغدر الذى قام بابتلاع المناضلين دونما رحمة أو تساهل .. وكأنه هو
والحكام الطغاة وجهان لعملة واحدة .

* * *

وفى مقام الحديث عن المكان الروائى نلاحظ أنه يمثل غالبًا طرفًا لازمًا فى
ثنائية يمكن أن نسميها « ثنائية المكان والجسد » ونقصد المكان بمفهومه الواسع
الذى يصدق على البحر والشاطئ والبيت والحجرة والسرير والكاكين ... إلخ ،
ونعنى بالجسد الجنس بدرجاته المختلفة ، وما تعلق به من مظاهر السقوط المختلفة
كشرب الخمر .

فوصف البحر - بصفة خاصة - لا يأتى إلا متلبسًا بمشاهد جنسية ، أو مواقف
شاذة فى أغلب الأحيان .

وهذه الازدواجية تواجهنا من أول صفحة استهل بها الكاتب روايته فى حديثه
عن شاطئ مدينة بونة الجزائرية « وكان صباحًا مضيئًا ، فى سماء صاحية ، النوارس
وهى تخفق بدت كأنما تعلن عن غيبتها بذلك الطيران الأبيض الواهن . وفوق
الأعشاب وأوراق الدغل كان الندى يتلألأ تحت شمس خريفية ولم تلتفت .
سبقتة خافقة بذراعيها كجناحي طائر فى فضاء أبيض .. السرعة والريح رفعتا
تنورتها الخضراء فبدا كالرخام فخذها الناصعان المكتنزان ... »^(١) .

وعلى نحو أشد حدة يكثر المؤلف من مشاهد هذه الثنائية فى مزجية تحكمها
الغريزة البهيمية ، والمزاج الشاذ ، وبصورة تثير التقزز والملالة ، مع محاولات
ادعائية مخالطة لرفع طبيعة هذه الثنائية بردها إلى طوابع إنسانية جذرية ، يصبح
الخروج عليها خروجًا على الأصل ، فيلجأ المؤلف لتبرير السلوك الشاذ - إلى خلق
انتفاء مفتعل إلى البساطة الإنسانية الأولى ، والمحاضن الطفولية الطاهرة .. فعلى
شاطئ بونة « يخرج مهدى من الحقيبة البيرة والساندوتش والفواكه والراديو ...
ينضو ثيابه ، هى الأخرى تتعري ، أحدهما يسبق الآخر إلى البحر ، صرخة
أو شتيمة ، ثم يصطفق البحر ، وينخص تحت انغمار الجسدين ولكنهما هنا

(١) « الوليمة (٩) .

يلعبان لعبة الطفولة فى غياب الأبوين .. الطفلان هاهما يخلعان القمط الأول للمهد .. إنهما يتطهران من دنس التربية المقدسة ، والعائلة المقدسة فى أملاح البحر^(١) .

... كانت الفتاة والرجل والبحر الآن بعيدين عن المدينة فى تلك المساحة من العراء ، ابتداءً يمرحان كطفلين خارج قوس الحصار^(٢) .

كان حظ البيئة الجزائرية فى الرواية أوفى فى حظ البيئة العراقية بالمعيار الكمى وبالمعيار الكيفى إذا قصرنا هذا المعيار على الجانب العاطفى .. إذ نجد استجابة المؤلف وتجاوبه مع بيئة الجزائر وخصوصاً البحر أقوى وأشد توهجاً ، ولكنه كان أقوى تأثيراً ، وأعمر بالمصادقية الفنية فى عرض ميدان معركة الأهوار مستغلاً كل طاقات المكان الطينى الخثون ، مبرزاً قوة التفاعل بين المكان والشخص ، ووقائع التلاحم وتطورها من نصر مبدئى عاجل إلى انكسار رهيب ، مروراً بمعاناة الجراح والدم وانسحاب البقية القليلة اعتماداً على إمكانات المكان الفقيرة ، وكان « للزمن » - ضوءاً وظلاماً .. فجراً .. وليلاً - دوره الفاعل فى الحركة المتكاملة لهذه العناصر المتلاحمة .

ولا كذلك فى بيئة الجزائر أو بونة بصفة خاصة ، ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة أهمها :

- ١ - الإصرار على إقحام الجنس فى أغلب المشاهد (البحر - البنسيون - المنزل - الحجرة ... إلخ) ، وكأنه مقصود لذاته ، أو كأن المؤلف لم يرسم أبعاد المكان إلا ليدب عليه الجنس الساقط ومتعلقاته من خمر وعريضة وشذوذ .
- ٢ - إغراق الوصف فى تعليقات وتخريجات فلسفية ترهق المعروض ، وتجمد العناصر الجمالية ، وتشل حركة القارئ نفسياً بحلول الذهنية الباحثة محل شعوره المأسور أو المستجيب ، فيضيع النفسى أمام العقل القهرى .

(١) « الوليمة » (٦٣٢) .

(٢) « الوليمة » (١٣) ، وانظر كذلك الصفحات : (٤٩ ، ١٦٦ ، ٢٢٦ ، ٦٠٨) . وكان بنسيون « فلة بوغنا » مرعى من مراعى الجنس . ولها فى تبرير ذلك منطق غريب ساقط . انظر : (الرواية ٣٢٣ ، ٣٢٤) .

٣ - التكرار الذى يقتل الطرافة ، وقد يدفع القارئ إلى سوء الظن بالمؤلف ، واتهامه بفقر مكنوزه من قدرة الابتكار ، وإمكانات المغايرة والتنويع .

كما نرى فى المشهدين التاليين :

- استيحاش البحر والشجر ورطوبة الرمل .. أفق مديد أخضر فضى أسود ، وملايين الجن وراء الخليج المظلم تستحم فى غمرة الزبد ، ووحشية الخلجان الصخرية^(١) .

- عذرية العالم عبر أصواتهم وهديرهم افتضت بكارته .. ملايين من الجن والأبالسة هبطت من كوكب غامض من أين أتوا ، وكيف اكتشفوا هذه البقاع المنسية ...؟^(٢) .

والمعروف أن المكان فى العمل الروائى تختلف أبعاده ودلالاته وإيحاءاته باختلاف وضعه فى سياقات الرواية تبعاً للشخصيات المرتبطة به ، والأحداث الواقعة عليه ، وبتعبير آخر تختلف حقيقته الوجدانية باختلاف الأحداث والشخصيات والمواقف والزمن . أما ثبوت أبعاده فى صورة واحدة فيعنى إدخاله فى باب العلم ، وعزله عن عالم الأدب .

لكن الصورة المكانية فى رواية حيدر تكاد تكون ثابتة وخصوصاً صورة البحر المكررة مرات ومرات فى تضاعيف الرواية ليس بينها ملامح فارقة .. العناصر واحدة : الماء .. الرمل .. النوارس .. الأعشاب .. الجن .. المردة .. التعرى .. الجنس .. الجنس العارم الزاعق !! .

أما الصبغة النفسية أو الفنية الخاصة المميزة بين البحر هنا .. فى هذا الموقف .. والبحر هناك فى موقف آخر فهى ناصلة أو ميتة حتى أن القارئ يستطيع أن يبدل وضعيات البحر بإحلال بعضها محل بعضها الآخر دون أن يترتب على ذلك أى خلل فنى .. وفى هذا المقام نذكر القارئ بكلمة أحد كبار النقاد « لو أن ألف شاعر نظموا فى الربيع شعراً ، فلا قيمة لما نظم إن لم نكن أمام ألف ربيع » .

* * *

(١) « الوليمة » (٤٥٧) .

(٢) « الوليمة » (٦٣٤) ، وانظر الصفحات : (٥٦٠ ، ٦٣٢ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧) .

والزمن هو الجناح الثانى للبيئة ، والمقصود به - فى إيجاز شديد وبعيداً عن التنظيرات والجدليات - الفترة الزمنية التى وقعت فيها أحداث الرواية وتحركت شخصياتها .. وهو تحديد علمى حاد .. ولكن لا يقوم الفن الروائى بدونه « فالحدث من حيث هو يجب أن يتسم بالزمنية ، والزمن من حيث هو يجب أن يتصف بالتاريخية فى أى شكل من أشكالها .. وإذا كان الروائيون الجدد يرفضون بإصرار تاريخية الأحداث ، وواقعية الشخصيات فى أى عمل من الأعمال السردية فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا بأن إبداعاتهم الروائية - مهما تحاول التملص من الزمن ، والتنكب عن سبيله ، فإنها واقعة تحت وطأته . فالزمن إذن ضرب من التاريخ ، والتاريخ هو أيضاً فى حقيقته ضرب من الزمن .. فهما متداخلان .. بل هما شئ واحد^(١) .

* * *

فإذا ما آمننا بأن الرواية لا تدور إلا فى مكان وزمان - على اختلاف نقدى معروف فى التعريف والتحديد - واجهنا فى رواية حيدر نوعين من الزمان هما :

١ - الزمان التاريخى .

٢ - الزمان النفسى .

والزمن التاريخى فى الرواية هو الشريحة الزمنية التى وقعت فيها أحداث الرواية ، وتحركت فيها شخصياتها وانعكست تأثيراتها على الموجودات والمجتمع والأفراد والقيم السائدة .

والزمن التاريخى للرواية - كما أشرنا من قبل - يتمثل فى سنوات عهد عبد الكريم قاسم حاكم العراق ، وعهد أبو مدين فى الجزائر .. وهما عهدان يلتقيان فى إجهاض تطلعات جماهير الشعبين العراقى والجزائرى إلى تحقيق الآمال فى نشوء مجتمعات الاشتراكية الحقيقية .. ومن ثم فجعت الشعوب فى قادتها الثوريين الذين خيبوا آمالها .

والزمن التاريخى جاء بأثقال من التفصيلات الحداثية والتسجيلية والأيدولوجية

(١) « مرتاض : » فى نظرية الرواية » (٢١٠) .

والسياسية مما ينال من فنية الرواية .. وهذا الزمن فى الرواية أخذ وضعيتين :

١ - وضعية الاستقلال أو الانعزال فى فصول أو فصل كامل مستقل فى الرواية كما ظهر فى فصل « نشيد الموت »^(١) وهو الفصل الذى عرض فى تفصيل لمعركة الأهوار بين الماركسيين وقوات الحكومة العراقية .

٢ - وضعية التجزئ والتوزيع .. فالمؤلف يوظف بعض الوقائع الجزئية على مواقع فى الرواية .. وغالبًا ما يكون ذلك عن طريق التذكر ، ولو على سبيل الإجمال والإلماع وكانت تجربة الأهوار هى أكثر الوقائع إلحاحًا على الذاكرة بحرارتها ، وشدائدها .. فهى تقفز إلى عقليات الشخص فى سنوات حياتهم بالجزائر^(٢) .

وهذا الإثقال التاريخى من أهم المآخذ التى تسجل على الرواية حتى فى نظر من ناصروها ، وأعلوا من شأنها مثل الدكتور على الراعى ومحمود أمين العالم .. يقول الدكتور على الراعى : « فإذا ما انتقلت الرواية إلى الأحداث الثورية فى العراق ، وجدنا الحيوية تنقص نقصًا ملحوظًا إزاء إصرار حيدر حيدر على أن يورد ثبتًا تاريخيًا بحقيقة ما حدث ، يكتبه فإذا به أشبه ما يكون بالتقارير السياسية التى يدبجها أمناء الأحزاب أو قادة اللجان الرئيسية .. إن هذا الجزء من الرواية يستفيض ويعترض السياق الروائى .. ورغم جهود الكاتب لتخليصه من ربة التقريرية فإنه يبقى قريبًا منها إلى حد واضح^(٣) .

وكذلك محمود أمين العالم يأخذ عليها : ما يغلب عليها فى بعض صفحاتها وفقراتها من الطابع التسجيلى السياسى .. بل التاريخى السياسى الذى يشير أحيانًا إلى واقعها المرجع بأحداث وأشخاصه الحقيقيين بأسمائهم^(٤) .

* * *

(١) « الوليمة » (٣٥٥ - ٤٠٩) .

(٢) انظر : (الوليمة : ٥٥٤ - ٥٧٣ - ٦٣٧ - ٦٣٩) .

(٣) الدكتور على الراعى : « الرواية فى الوطن العربى » عن مجلة « أخبار الأدب » - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ .

(٤) محمود أمين العالم « نشيد الثورة المجهضة » مجلة « أخبار الأدب » - العدد السابق .

أما الزمن النفسى : فهو الزمن الذى يزداد طوله على النفس فى حال الشدة والضيق والكرب ، ويقل طوله عن مداه الحقيقى على هذه النفس ، حتى لكأن الأسبوع يوم ، واليوم ساعة ، والساعة مجرد لحظة من الزمن فى أحوال السعادة والغضارة والنعيم^(١) .

ويمكن التعرف على هذا الزمن النفسى فى الرواية بالنظر إلى الأحداث ، ومعرفة طبيعتها ، وطبيعة تفاعل الشخصية وهذا يحتاج لمبحث طويل مستقل .

* * *

ولكننا نقف وقفة غير طويلة أمام الأزمنة الثلاثة فى العربية ، ومكان كل منها فى الرواية ، وهى أزمنة الماضى والحاضر (المضارع) ، والمستقبل .. وهو يكون قريباً إذا ألصقت السين بالفعل فى أوله ، ويكون بعيداً إذا سبق الفعل بـ « سوف » ، ويدل الفعل كذلك على المستقبل إذا كان مضارعاً سبقه أو ألحق به من الأسماء أو الأفعال ما يدل على المستقبل مثل : غداً - فيما بعد - فى الأسبوع القادم ... إلخ . والأصل فى العمل الروائى أن يكون الفعل الماضى هو الآلية المثالية للتعبير عن الحكاية .. وهذا وضع طبعى لأن الراوى أو المؤلف - بعمله الروائى - يقدم تجربة عاشها ، ومعاناة مرَّ بها .. فالتعبير بالماضى عن « تجربة » مضت هو التوفيق الوحيد بين المعيش والتعبير عن واقعه وأبعاده وآثاره ومتعلقاته .

ولكن القاعدة ليست على إطلاقها .. فهى لو صحت - إلى حد كبير - فى السرد ، نجد أنها لا تطرد فى الوصف والحوار مثلاً .. ويرد المضارع كثيراً فى الوصف . وقد يأتى فى السرد تعبيراً عن الماضى لاستحضار المشهد ، والإيحاء بأنه إن غاب عن الرؤية .. فهو لم يغب عن المشاعر والضمير .

ويستخدم الفعل للمستقبل فى حالات التطلع والاستشراف أو ما يمكن أن نسميه « سبق ما قبل الحدث » وذلك بتقديم جزئية - على سبيل التنبؤ - من حدث يقع مستقبلاً . ومن ذلك على سبيل التمثيل :

(١) الدكتور مرتاض : « فى نظرية الرواية » (٢٠٨) .

- فيما بعد سيتساءل الرجل الغريب : أى ذنب ارتكبت ؟ أهناك التباس فى الأشياء ؟^(١).

- فيما بعد سيقول عنه أحد أصدقائه الإنجليز بعد أن سمع بغيابه الطويل : كان خالد مزيجاً من « جيفارا » و « دانتون »^(٢).

- عندما سيتحدث عن ذلك التبدد الخلوى والهجران ستقول له ...^(٣) . وقد يتلبس الحاضر بالمستقبل فى عبارة واحدة .. مثل : آنذاك ، أو فيما بعد ، سيعصى عليهما معرفة المواطن أو الكهوف^(٤) .

وقد تتلبس الأزمنة الثلاثة كما نرى فى العبارة التالية :

- وكان ينتظر وهو جريح لا يقوى على الحركة .. أخيراً قدموا .. جروهم كالكلب ، وقالوا : ظفرنا بك إذن يا ابن الفاسقة ، وقال : هذا حقيقى .. وقالوا له : إنك خنزير لا تساوى فلساً .. وقال : هذا صحيح ، وقالوا له : إنك لن تكون بعد الآن ، وقال : إننى لا أستحق أن أكون بعد الآن^(٥) .

ونلاحظ أن الإحالات المستقبلية للأفعال ، والتي تمثل وعداً بالعودة إليها فيما بعد بصيغة الماضى لا يقف عندها الراوى مرة أخرى .. وكأنه حدث وقع وانتهى .. وإن عبر عنه بصيغة المستقبل ، ودلالة ذلك تأكيد الوقوع ، وهو ملمح من ملامح التجديد فى الفن الروائى .. غير أن للقرآن فى هذا المجال آيات بينات .. مثل قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ النَّبِيُّ كَانُوا عَلَيْهَا ... ﴾ [البقرة : ١٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ . [القمر : ٤٥]

والملاحظة الأكثر وضوحاً هى التداخل الزمنى - كما بينا آنفاً - مع التحرر من الترتيب الزمنى الذى يتفق مع منطقية الأحداث . والواقع أن من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن يتوافر هذا الترتيب بمفهومه الحاد للرواية ؛ فيكفى

(٢) « الوليمة » (٢٤٢) .

(٤) « الوليمة » (٥٢٣) .

(١) « الوليمة » (١١١) .

(٣) « الوليمة » (٣٤٤) .

(٥) « الوليمة » (١٦٩) .

- كما يقول « تودوروف » أن يوجد أكثر من شخص واحد حتى يصبح هذا الترتيب المثالي أبعد ما يكون عن القصة « الطبيعية » . والسبب في ذلك هو أنه علينا للحفاظ على ذلك الترتيب أن نقفز عند كل جملة من شخص إلى آخر لنقول ما كان يفعله هذا الشخص الثانى فى تلك الأثناء .. ذلك أن القصة نادرًا ما تكون بسيطة .. فهى غالبًا ما تضم عدة خيوط ، ولا تلتقى هذه الخيوط إلا عند لحظة ما^(١) .

* * *

(١) « طرائق تحليل السرد الأدبى » (٤٢) .

ثانيًا : الحَدَث

الوقائع أو الأحداث فى الرواية هى مجموع الأفعال الصادرة من الشخصيات ، وترتبط بها برابطة السببية .. ومن ثم يجب أن تكون متفاعلة مع الشخصيات ، ومتفاعلة بعضها مع بعضها الآخر ، ومتفاعلة مع بيئة الرواية .. وللأحداث - كما هو معروف - دورها الكاشف لطبائع البيئة ، وأبعاد الشخصيات وتحقيق المغزى الذى يحرص الكاتب الروائى على تحقيقه ، وعليها تعتمد الحكمة التى عرّفها فورستر بأنها مجموعة من الحوادث مرتبة ترتيبًا زمنيًا يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج^(١).

وتعتمد الروايات البوليسية على الحكمة التى تجعل اهتمامها الأول تسلسل الأحداث تسلسلاً يشد القارئ ، ويجذبه من البداية للنهاية .

أما النوع الثانى من الحكمة فهو الذى يعتمد على الشخصيات ، وما ينجم عنها من أفعال ، وما يدور فى صدورهما من عواطف يجعلها الكاتب محور الرواية ، ولا يأتى الحدث هنا لذاته بل لتفسير الشخصيات التى تسيطر على الأحداث وتحركها حسب رغبتها وخطتها^(٢).

ولعل النوع الثانى من الحكمة هو الأقرب إلى رواية حيدر مع تحفظات نعرض لها فيما بعد .. فالذى يهمنى الآن هو التعرف على نوع الأحداث وأبعادها ومكانها فى السرد الروائى وجودًا وتفاعلاً .

* * *

يتوزع الرواية نوعان من الأحداث هما :

١ - أحداث تاريخية حقيقية .

٢ - أحداث متخيلة .

(١) « أركان القصة » (١٠٥) .

(٢) انظر : (عزيزة مريدن : القصة والرواية ٤٢) .

والحدث التاريخي المحوري في الرواية هو نهوض مجموعات شيوعية ماركسية بالكفاح المسلح في معركة في الأهوار بالعراق ضد قوات عبد الكريم قاسم ، وكانت معركة خاسرة انتهت بالهزيمة الساحقة للماركسيين : قتل .. وأسر .. واعتقال .. وتعذيب رهيب .. وتشرد .. وهروب .. وملاحقات بالعيون والصنائع والعلاء .. وظل هذا الحدث التاريخي هو الحدث الأساسي المحوري الذي لم تنقطع امتداداته إلى مناحي الرواية من أولها إلى آخرها على سبيل الذكر والاسترجاع ، وفي إطار هذا الحدث تعقد اجتماعات ، وتدور مناقشات وحوارات أيديولوجية ثقيلة دميعة ، وترتب على هذا الإقحام الكثيف :

١ - إصابة الرواية بتضخم غير حميد لولاه لانخفاض حجمها إلى نصف ما هي عليه .. مع ملاحظة أن الكاتب قد وظف الاسترجاع الذهني في تكرار كثير من المشاهد التاريخية والمتخيلة .

٢ - إضعاف الطابع الدرامي للرواية ، وتفتير القيم الشعرية والتعبيرية فيها .. إذ بدت هذه التاريخيات كالعضو الغريب داخل الجسم . وهذا ما تنبه إليه الدكتور على الراعي في الدراسة التي كتبها عن الرواية .. وفيها يقول :

فإذا ما انتقلت الرواية إلى الأحداث الثورية في العراق ، وجدنا الحيوية تنقص نقصاً ملحوظاً إزاء إصرار حيدر حيدر على أن يورد ثبوتاً تاريخياً بحقيقة ما حدث ، يكتبه فإذا به أشبه ما يكون بالتقارير السياسية التي يدبجها أمناء الأحزاب أو قادة اللجان الرئيسية .. إن هذا الجزء من الرواية يستفيض ويعترض السياق الروائي ^(١) .

وكذلك أخذ محمود أمين العالم على الرواية أنه :

« غلب على بعض صفحاتها وفقراتها الطابع التسجيلي السياسي .. بل

(١) « رواية سياسية تشوق إلى نهضة العرب » . دراسة الدكتور على الراعي في « أخبار الأدب »

التاريخى السياسى الذى يشير أحياناً إلى واقعها المرجع بأحداثه وأشخاصه
الحقيقيين بأسمائهم»^(١).

* * *

ومن هذا المحور التاريخى انطلق الكاتب - فى استطراد - إلى فرعيات
تاريخية مقطوعة الصلة - أو على الأقل ضعيفة الصلة - بمعروضه التاريخى المحورى ،
فرعيات تاريخية أو تاريخسبورية فى ثرثرة أسلوبية بلا كوايح .. فمن استطراداته
- وما أكثرها !! - « .. امتداد لا يحده البصر من البردى والقصب والماء يعود لأزمة
قديمة تبدأ من نهاية القرن الخامس الميلادى فى عصر « قوباذا الأول » ملك
الساسانيين .. فوق هذا الامتداد الأخضر الساكن ، والشبيه بحيوان خرافى من
ديناصورات العصور الأولى ، يعيش بشر شبه مفصولين عن عالم اليابسة .. مخلوقات
فصلتها مئات الأعوام ، وسطوح الماء والبردى عن نبض الزمن الآخر ... »^(٢).

وقال الرواة : وفى عصر قوباذا بعد ملايين السنين من الخلق الأول كانت
السدود ممتدة على طول ساحل دجلة والفرات ، وكان الساسانيون يروون سهوبهم
من بحيرات الماء ...^(٣).

ثم يقفز الكاتب إلى كربلاء ، وقبر على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى
التجف الأشرف ، والحسين والعباس - رضى الله عنهما - فى كربلاء ، وموسى
الكاظم فى الكاظمية ، وعلى الرضا فى مدينة مشهد^(٤).

ثم يخلص إلى الحديث عن تاريخ ظهور أول بؤرة ماركسية مقاتلة فى النصف
الثانى من القرن العشرين ، وكان ظهورها فى أهوار العوينة والغموكة والحمار^(٥).

بعدها يتحدث عن الخوارج والشيعة والزنج والقرامطة وثورة العشرين^(٦) ،
ثم عن العهد الملكى ، والثورات التى قامت به ، ثم عن انتفاضة الـ (٥٦)
الشيوعية ...^(٧) ، ثم يهرول إلى الأهوار التى يعيش فيها آلاف البشر الهامشيون

(١) « نشيد الثورة العربية المجهضة » . دراسة لمحمود أمين العالم ، فى المرجع السابق .

(٢) « الوليمة » (٢٥٣) .

(٣) « الوليمة » (٢٥٢) .

(٤) « الوليمة » (٢٥٥) .

(٥) « الوليمة » (٢٥٤) .

(٦) « الوليمة » (٢٥٦) .

(٧) « الوليمة » (٢٥٦) .

حياة بائسة منحنطة تذكر بعصور ما قبل التاريخ^(١). ويستعرض تاريخ تأسيس القواعد المسلحة سرًا بعد تكريس خط آب الانقسامى .. الخط الذى كرسه القيادة العائدة من موسكو فى أعقاب فشل انقلاب سليم فخرى ، وإعدام السكرتير العام سلام عادل^(٢). ولا مانع من أن يورد نص التقرير الذى كتبه الرفيق منير أحمد عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، ونشره فى مجلة قضايا السلم والاشتراكية فى ك ١٩٦٤ :

« إن النضال من أجل الطريق اللارأسمالى يحتم علينا إعادة النظر فى برامجنا فى ميادين النشاط الجماهيرى .. كان الحزب الشيوعى العراقى يعتقد فى الماضى بأن إقامة حكم شعبى تحت قيادة الطبقة العاملة هو شرط جوهري لتحقيق الإصلاحات الجذرية و ... و ... إلخ^(٣).

وغير ذلك كثير .. وكثير مما يسىء إلى البناء الفنى للرواية ، بل إنه لا يخدم الحقيقة العلمية - على فرض صحته - لأنه سيق فى رواية . والرواية لا تصلح أن تكون مرجعًا علميًا . وربما رجع ذلك الإغراق إلى تعاطف الكاتب مع الأيديولوجية الماركسية فى خطها المسلح ، وحماسه المتوهجة لهذا الاتجاه ضد خط اللجنة المركزية للحزب .. الخط التحريفى التصفوى .. والتعبير عن هذا - كما يقول محمود أمين العالم - لا يتم على لسان بعض شخصياتها فحسب .. وإنما فى النسيج السردى للرواية كذلك ، وهو لا يقف عند حدود التبنى الأيديولوجى لوجهة النظر هذه .. بل قد يتورط أحيانًا فيسوق أقاويل باطلة ، ويلبسها ثوب الحقائق مثل « ومن موسكو حرض الأب الروحى خروشوف العزيز قيادة الحزب على ضرورة حل الحزب الشيوعى العراقى أسوة بالحزب فى مصر^(٤).

وخلاصة ما نراه فى العلاقة بين الوقائع التاريخية والرواية تتمثل فيما يأتى :
١ - يجب أن تكون محدودة قليلة العدد حتى لا تتحول الرواية - لغزارة ما تضم من وقائع - إلى تاريخ .

(١) « الوليمة » (٢٥٧) .

(٢) « الوليمة » (٢٥٨) .

(٣) « الوليمة » (٢٥٩) .

(٤) محمود أمين العالم . مرجع سبق .

- ٢ - أن يكون لها مكانها الطبيعي في السياق الروائي دون إقحام أو افتعال .
- ٣ - أن يكتفى بالإشارة أو الإلماع إلى الواقعة إذا كان في ذلك الكفاية .
- ٤ - أن تطوع الوقائع للمنطق الفني الروائي حتى لا تبدو عضوًا غريبًا في بنية النسيج السردى ، ولا مانع - استجابة لهذا المقتضى الفني ، من إحداث بعض التغييرات أو التحريفات في الوقائع - وخصوصًا الثانوى منها - على ألا يصطدم ذلك بالمسلمات العقلية والسنن الكونية ، والقيم الدينية .

* * *

والوقائع التاريخية في الرواية ، وخصوصًا تلك التى تغطى « المرحلة العراقية » لم يطوعها الكاتب التطويع الفني المطلوب حتى تتوافق مع السرد الدرامى فى الرواية .. بل جاءت كأنها مقصودة لذاتها .. ومن السهل عزلها عن المسار الروائى ، والاكتفاء بالإشارة إليها ، أو الحديث عنها فى إيجاز مقطر متلاحمة مع العناصر الفنية الأخرى .. وذلك كان هو الأوفق والأنسب للعمل الروائى .

وقد حاول الكاتب أن يديم التواصل النفسى بين هذه الأحداث ، وشخصيات الرواية ، وخصوصًا مهدي جواد بآيتين :

الأولى : التذكر والاسترجاع Flash back

والثانية : اليوميات التى كان يسجلها مهدي جواد أحيانًا ، وهى قليلة جدًا إذا نظرنا إلى كم المواقف من ناحية ، وحجم الرواية من ناحية أخرى .

والافتعال ظاهر فى هذه اليوميات ، كما أنها تفتقر إلى أن تتحلى كل منها « باللمح » الفارق موضوعيًا وفنيًا ، حتى تكون مناسبة لمكانها فى نسيج السرد الروائى .

* * *

وفى الرواية وقائع وحقائق تاريخية مرتبطة بالبيئة الجزائرية التى هرب إليها « مهدي جواد » و « مهيار الباهلى » وغيرهما من الماركسيين .. ولعل من أهم هذه « الحقائق » انحراف المجاهدين الثوريين بعد الاستقلال ، وقيام حكومة جزائرية

عاصرت أحداث الرواية فيها عهد « هواري بومدين » الذى لم ينهج النهج الماركسى الحاد .. وهنا نجد الكاتب متجردًا من الحياء ، مجنّدًا كل قواه وآلياته من سرد وحوار وشخصيات لتشويه صورة المجاهدين والثوريين .. وكانت « فلة بوغتاب » هى البوق القوى الصاخ الذى دأب على ترديد هذا التشويه بصفة دائمة :

- فالشعب من البسطاء والفقراء والمجاهدين لم يجنوا من الحروب غير حصاد النبذ والجوع .. لهذا هم الآن حاقدون^(١).

- وضباط الجيش ، وأمناء الحزب ، ورجال الدولة الماسكون بزمام الحكم ، والثوريون القدامى ، والمجاهدون ، والشهداء - قبل أن يستشهدوا كان لهم لياليهم الحمراء مع « فلة بوغتاب »^(٢).

- الثورة الوطنية انتهت .. الرجال صاروا فى مواقع السلطة والمسئولية .. وهانحن اللواتى قاتلن فى الجبال والمدن نتحول إلى الخدمات المنزلية : جميلة بوحيرد تزوجت من محاميها ، وهاجرت معه .. جميلة بوغزة دخلت فى النسيان .. أنا مع آلاف النساء صرنا إلى ما يشبه المومسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال^(٣).

والكاتب قد ألح على هذا المعنى إلحاحًا شديدًا - لافى الحوار فحسب .. ولكن فى السرد كذلك .. وكأنه حقيقة واضحة لا يعنورها الشك .. والأغرب من ذلك أن يورد تبريرًا أبشع لهذا الانهيار الجنسى بالنظر إليه كمعادل موضوعى « للجمهورية » التى لم تتحقق فى الواقع الجزائرى^(٤).

والأحكام السابقة مخالفة لواقع الجزائر ، وهى تتضمن تعميمات خطيرة ، وكلها تعطى انطباعات بأن الشعب الجزائرى كله - بما فيهم أبطال الجهاد - شعب غارق فى الزنى والدعارة .

وكيف تكون الدولة مسقولة عن زواج جميلة بوحيرد بمحاميها ، واعتزال

(١) « الوليمة » (١٢٦) .

(٢) « الوليمة » (١٨١) .

(٣) « الوليمة » (١٨٣) .

(٤) انظر : (الوليمة ٣٢٣ ، ٣٢٤) .

جميلة بوعزة المجتمع ، واحتراف آلاف النساء البغاء ؟! إنه تصوير ساقط لا يتفق مع واقع الشعب الجزائري المسلم .

* * *

وأهم الأحداث المخترعة أو الخيالية فى البيئة الجزائرية تنبع أو تنعكس من مجموعة من العلاقات بين الشخصيات الروائية . وهى :

- علاقة آسيا بمهدى جواد .
- علاقة فلة بمهيار الباهلى .
- علاقة يزيد ولد الحاج بـ « لا لا فضيلة » .
- علاقة فلة بالآخرين .

وكلها علاقات يحكمها الجنس العاتى على اختلاف فى الدرجة ، وليس فيه صورة مشروعة ماعدا علاقة يزيد بـ « لا لا فضيلة » .. فقد كانت مبنية على الزواج .. وإن ظهر فى الرواية شهوانيًا أكلًا مغرماً بمتاع الحياة من ألد الأطعمة والأشربة وأعلى الملابس والرياش .

* * *

والأحداث بصفة عامة كانت تمضى بطبيعة متثابرة ، تفتقر إلى التنوع والإثراء ، وكثير منها مكرر مع تغير الزمان والمكان فى نطاق البيئة الواحدة .. ومن عجب أن نرى وقائع البيئة العراقية - وهى فى أغلبها تاريخية واقعية بالمفهوم العلمى - أكثر تجددًا وتدفعًا من الوقائع فى البيئة الجزائرية ، مع أنه كان فيها من الفضائات ما يسمح بحرية الحركة الفنية فى نطاق الأحداث والأشخاص .. ولكن الكاتب كانت مشغله بالطرح الأيديولوجى عرضًا وإدانة أكثر من مشغله بالجانب الفنى ، كما أن إقحام الجنس فى أغلب المواقف أرهق الكاتب وأرهق الرواية فكراً وأسلوباً .. وذلك بافتعال واضح لا يخطئه النظر .

* * *

وتسطيح الوقائع والأحداث ، وضعف التفاعل بينها ترتب عليه وصول الصراع

حتى لا يكاد القارئ يشعر بوجوده إلا سطحيًا ، وفي مواطن محددة كالصراع بين أبناء « لا لا فضيلة » - وآسيا بصفة خاصة - وبين يزيد ولد الحاج زوجها .. وكذلك بين الماركسيين المهاجرين من العراق والسلطة الجزائرية ، وبين آسيا ومهدى جواد ولا لا فضيلة وأسرتها وبين الشيخ محمد .. إلا أن ذلك كله كان « خارجيًا » يفتقر إلى تعميق .

وربما كان الصراع النفسى الداخلى الوحيد فى نفس مهيار الباهلى بين ديمومة الوفاء للماركسية ودماء رفاقه المراقبة فى الأهوار ، والانهياء الجنسي على يد فلة بوعناب ، وانتصر الأخير ، ولم يعد مهيار تبريرًا فلسفيًا له .

* * *

وكان الجميع يتحركون وكأنهم أسرى للفلسفة الوجودية التى ترى أن كل فرد عالم بذاته يضع لنفسه أخلاقه وأدابه وعقائده وآراءه^(١) . وهو الحكم فيما يأتى ، فليس لأحد من المجتمع أن يحدد له مفاهيمه أو أخلاقه أو تقاليده ، أو عقائده أو تصرفاته أو سلوكه^(٢) . وإيجاد الذات وتأكيد الإنسان الفرد لوجوده الذاتى - فى نظر سارتر - لا يتحقق إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهوته .. وتعترف سيمون دى بوفوار - صديقة سارتر بأن من طبيعتها أن تجنح دائمًا إلى لذائذ الجسد^(٣) . وقد صرحت آسيا بأنها مثلها الأعلى .

والانسحاب من الحياة بالانتحار أمر محمود فى الوجودية .. لأنه يعنى احتجاجًا عمليًا على عبثية الوجود ، والاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش^(٤) . وهذا ما انتهى إليه مهدى جواد .. لم يواصل مسيرته « النضالية » ولكن واصل السير إلى البحر وألقى بنفسه فيه ليكون وليمة لأعشابه .. وهو - ولا شك - حل انهزامى لا مبرر له ، وخصوصًا أن مهدى ورفاقه لم يتعرضوا فى الجزائر لبعض ما تعرضوا له فى العراق من قتل ومطاردات واعتقالات .

(١) عباس العقاد « بين الكتب والناس » (٢٥) .

(٢) محمد قطب « جاهلية القرن العشرين » (١٩٢) .

(٣) صالح الشامي « الظاهرة الجمالية فى الإسلام » (٥٢) .

(٤) انظر : (الدكتور مصطفى غالب : سارتر والوجودية ٧٨ ، ٧٩) .

ثالثاً : الشخصيات

إذا كانت الرواية تعبيراً فنياً عن أفكار وقضايا أو أيديولوجية معينة يعتنقها الكاتب فهي من ناحية أخرى - كما يقول النقاد - معرض لأشخاص جدد يقابلهم القارئ ليتعرف عليهم ، ويتفهم دورهم ، ويحدد موقفهم .. ومن هنا تأتي أهمية فن رسم الشخصية في الرواية .. وهو ما يسمى بالتشخيص :

Characterization^(١) .

وابتداء نقرر أن الشخصية يجب أن يكون لها كيانها المميز ، وطابعها الخاص المستقل ، وأبعادها الفارقة التي تحول بينها وبين الذوبان في الشخصيات الروائية الأخرى مهما توافرت ملامح شبيهة بينها وبين غيرها من هذه الشخصيات .. كما أنها مستقلة كذلك عن شخصية المبدع .. وإن كانت روحه تنعكس على سماتها على اختلاف في درجة هذا الانعكاس الذي قد يكون من القوة بحيث يتحول إلى لون حاد من التلبس بشخصية البطل أو إحدى الشخصيات المحورية .

« كما يجب أن يكون للشخصية وجودها الإيجابي في الرواية .. بمعنى أن يؤمن القارئ أن وجود هذه الشخصية كان ضرورة من ضرورات العمل الفني .. فالعقل لا يستسيغ أن تكون الشخصية مجرد كائن يردد كلمات رتيبة^(٢) .

والشخصية الروائية ليست كائناً مسطحاً ذا مساحة مبسطة ممتدة .. بل هي كائن حي له جوانب وأعماق وأبعاد .. وهذه الجوانب ، أو هذه الأبعاد تتمثل في ثلاثة هي :

- ١ - الجانب الخارجى - أو البرانى - ويشمل الصورة الحسية ، والمظهر العام ، والسلوك الظاهرى للشخصية .
- ٢ - الجانب الداخلى - الجوانى - ويشمل الملامح والأحوال النفسية والفكرية .

(١) انظر : (عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه ١٥٢ - ١٥٤) .

(٢) Styan : The Elements of Drama P. 165 .

٣ - الجانب الاجتماعي : ويشمل المركز الذى تشغله الشخصية فى المجتمع ، وظروفها الاجتماعية بوجه عام ، وطبيعة العلاقات التى تربطها بمن حولها^(١) . ولا يعنى هذا التقسيم أن هذه الأبعاد والجوانب متباعدة ، أو منفصلة ، لأن الجانب الخارجى المادى إنما هو مرآة ينعكس عليها العمق الداخلى ، والشخصية ببعديها الخارجى والداخلى يكون لها دائماً مركزها واتصالها بدائرة المجتمع العام .. والشخصية - مهما كانت موهلة فى الانعزالية - لا يمكن أن تنفصل عن هذه الدائرة .. بل يبقى لها اتصال بها على نحو من الأنحاء .

* * *

والرواية التقليدية كانت تهتم بإبراز الأبعاد الثلاثة للشخصية .. ولكن الرواية الحديثة أخذت تتخلص من هذا الإسار ، فهى لا تعبر الجانب الخارجى أو الجسمى أى اهتمام إلا بقدر ما يخدم القصة .. ومن جهة أخرى لم يعد بطل الرواية مثالاً فى سلوكه ، وقدرته على تخطى الصعاب .. بل إن المذهب الماركسى رفض فكرة البطل من أساسها ، وأحل محلها أنماطاً للشخصية من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة لها تأثيرها القوى فى المجتمع ومجريات الأمور^(٢) .

وتأسيساً على أهمية الأدوار التى تؤديها الشخصيات ومقدار وجودها الفاعل فى الرواية قسمت إلى شخصيات رئيسية أو محورية ، وشخصيات ثانوية . وعلى أساس توقفها وتحركها وتطورها إلى شخصيات مسطحة أو جامدة أو نمطية ، وشخصيات نامية أو متطورة أو مدورة^(٣) .

وتفضيل نوع على نوع ، أو الاستغناء بنوع عن نوع ينطلق من منطلق غلط ؛ لأنه يغفل المقتضيات الفنية للعمل الروائى الذى يستلزم فى موقف أو مواقف معينة شخصية ثانوية ، أو شخصية مسطحة لا يغنى عنها شخصية رئيسية أو نامية .. فلكل عمل متطلباته وحساباته الخاصة .

(١) انظر : (حسين قباني : فن كتابة القصة ٧٠ ، ٧٢) .

(٢) انظر : (الدكتور أبو شريفة : مدخل إلى تحليل النص الأدبى ١٣٣ ، ١٣٤) .

(٣) انظر هذه التقسيمات بتوسع فى : (م.أ. فورستر : أركان القصة ٨٣ - ١٠١) .

والوسائل الفنية التي تمكننا من التعرف على طبيعة الشخصية وأبعادها أهمها :
١ - الوصف أو السرد المباشر .. وهو ما يقدمه المؤلف في تقريرية صريحة مباشرة .

٢ - منطوقات الشخصية ذاتها في بوح مباشر ، أو اعتراف صريح ، أو مونولوج ، أو حوار خارجي تطرح فيه ذاتها ، أو يحمل دلالات على ملامحها غير مباشرة ، يتوصل إليها بالتمعن والتحليل .

٣ - منطوقات الآخرين ، وما تحمله من شهادات ، وآراء ، وما تعبر عنه في المواقف المختلفة .

٤ - معطيات الأحداث والوقائع من إشارات ودلالات ، وطبيعة العلائق التي تربطها بالشخصيات .

* * *

والدراسة القبلية لشخصية كاتب الرواية ، ومسيرته ، وتوجهه الفكري والأيدولوجي يعتبر عند بعض النقاد مصدرًا من مصادر التعرف على أبعاد شخصياته .. ونرى أنه - واقعياً - يلقي بعض الإضاءات على مساحات في الشخصيات غير الواضحة .. ولكنه يبقى مصدرًا استثنائيًا احتياطيًا قد لا يرقى إلى قوة الدليل الحاسم .

ومن الباحثين والنقاد الذين يجندون مدارس علم النفس ومعارفه في الدراسات الأدبية من يرى أن العكس هو الأدل والأقوى ، ويحاولون استخلاص أبعاد شخصية المبدع ، ومسيرة حياته من آثاره الأدبية .

* * *

وفي الرواية أربع شخصيات رئيسية تفرض وجودها على مساحات الرواية : اثنتان عراقيتان هما : مهدي جواد ، ومهيار الباهلي .. واثنتان جزائريتان هما : فلة بوعناب ، وآسيا لخضر .. وهذه الشخصيات الأربع يجمع بينها الشعور الحاد بالهزيمة والانكسار أمام قوى دكتاتورية حاكمة عاتية سرقت ثورات الشعوب ،

وامتصت نخاعها .. وإن تأرجحت هذه الشخصيات ما بين تطلعات آملة ،
ومثبطات مقعدة .

مهدي جواد في نقاط برقية سريعة : شيوعي ضليع ، مسكون بالأيديولوجية
الماركسية بعد انكسار الشيوعيين عسكريًا في الأهوار ، وتعرضهم لمذبحة عاتية
بعد الانكسار على أيدي أجهزة عبد الكريم قاسم ، يتسلل هاربًا إلى الجزائر ، يعمل
بالتدريس ، ويكون لقاءه الدائم بتلميذته آسيا الخضراء ، يستشعر في عمق صدمة
أخرى ، وهي أن رجال الثورة الجزائرية بعد أن تولوا حكم الجزائر أضاعوا كل شيء :
مكاسب الثورة .. مبادئ الكفاح والتزاماته .. كيان الإنسان الجزائري وأحلامه في
حياة حرة كريمة .

يدفن همومه وآماله المقهورة في الخمر والجنس والهجوم على موارث الدين
والأمة ، وقيم الماضي .. ولكن الشعور بالإحباط أقوى من تماسكه النفسي والعقلي ،
فيحاول الانتحار بقطع شريانه ، وتخفق المحاولة بتدخل الآخرين ، وينتهي به الأمر
إلى الانسحاب والانتحار بإلقاء نفسه في البحر ليكون طعامًا لأعشاب البحر .

وامتلاؤه إلى درجة التشبع بالأيديولوجية الشيوعية لم يترك في قلبه أية مساحة
تتسع حتى للحد الأدنى من الإيمان .. وهو لا يخفى هذا الانسلاخ من التراث ،
والمروق من الدين .. بل يصرح ويتحدث « عن تحطيم الأوثان التي أقامها الآباء
والأجداد ، وضرورة الانفصال عن الدين .. والله .. والأخلاق .. والتقاليد ..
والأزمة الموحلة .. والجنة والجحيم الخرافيين .. وطاعة أولى الأمر والوالدين ..
والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التي رسمتها دهور الكذب »^(١).

وهذا الانسحاق العقدي جعله مخلوقًا فارغًا ، أو مفرغًا ضائعًا محكومًا
باليأس كما يقول عن نفسه : « إنني يائس الآن ، ومزعزع من أعلى عليين إلى
أسفل سافلين ، ولا أرى سوى الأسود والوحل والموت »^(٢).

ويصبح الموت انتحارًا محصلة طبيعية لمثل هذه الشخصية التي لا تملك
الحصانة الإيمانية وهي تخوض معترك الحياة .

* * *

(٢) « الوليمة » (٥٧٠) .

(١) « الوليمة » (٣٤٨) .

أما مهيار الباهلي فهو مناضل ماركسي عراقي كذلك ، ورفيق مهدي جواد في التجربة الفاشلة للثورة الشيوعية المسلحة .. ولكنه يختلف عن مهدي جواد في أنه لم يفقد بعد إيمانه بالثورة ، جاء إلى الجزائر مثل مهدي بعد فشل هذه التجربة ، وما زال يحلم بثورة جديدة يقودها من أهوار العراق حتى جبال أطلس ، مع أنه خرج من معركة الأهوار الخائبة مصابًا برصاصتين إحداهما دخلت من الإلية .. وعمل بالتدريس في الجزائر زاهدًا في النساء .

ولكنه استسلم آخر الأمر لجسد فلة .. مع أنه ظل مدة طويلة طاهرًا بعذريته ، زاهدًا في المرأة .. ولما طلبت منه السلطات الجزائرية مغادرة الجزائر « لخطورته » لم يلجأ إلى الانتحار - كما فعل مهدي - بل ظل أمره في الرواية معلقًا غير معلوم ، وغير محسوم .

والرواية تقدم لنا ابتداء في أسلوب رومانسي صوفي صورة مهيار الباهلي في نقائه السلالي ، وطهره العقدي ، وإصراره الثوري ... كان « بصراويًا » من سلالة الفرات الأوسط ، والباهليين القدامى ، والحسين بن علي - رضي الله عنهما - ، السلالة التي حملت دمها على كفها ، وكفنها الأبيض فوق جسدها ، وسارت إلى حتفها .. فلم ينتصر سوى موتها ، ويوم خاض مع خالد أحمد زكي ومجموعة الأهوار حرب العصابات الخاسرة كان يتوهم أنه يواصل ميراث الخسارات الدامية ، والأمثولات التي تتراكم لتشكّل ذات صباح أو مساء الصرخة التي تختزنها القرون القديمة ، لتدوي في القرن العشرين أو الثلاثين أو الخمسين هادمة جدران زمن الاستبداد والجوع والإبادة الجماعية لشعوب قهرت ، واستذلت ، ثم مالئت أن دفنت تحت السطوة الوحشية للخلفاء والأمراء الخلعاء والجنرالات الدمى ، والأحزاب المستذلة والراكعة^(١) .

ويظل يحلم : لو كان لدى خمسة ثوريين من نمط أبي ذر ، وعلى بن محمد ، وحمدان قرمط لألهبت هذه الدنيا العربية بالخرائق^(٢) .

وأيدولوجيته عنده أهم ما في حياته .. وهي مقدمة عنده على المرأة ، وما يمكن أن تمنحه من متع وملاذ ، حتى المرأة في نطاقها الشرعي المشروع .. يكاد

(١) « الوليمة » (٣٢) .

(٢) « الوليمة » (٢١٠) .

مهدي جواد ينفجر غيظًا حين يترأى له بؤس عالم يهيمن عليه مهيار الباهلى ..
هذا العقل المحض الذى خطب يومًا فتاة جميلة عندما كان طالبًا فى جامعة بغداد ..
وفى ليلة مقمرة كانا يسيران على ضفاف دجلة فى شارع أبى نواس ، والريح
رخاء ، وبدلاً عن الحب والليل الشفاف انطلق يثرثر لها عن المادية التاريخية ، ناسيًا
نفسه وجسده والليل والخطيئة .. هكذا استمر يهلوس وحيدًا بين الشجر والصمت
بعد أن تركته الفتاة الجميلة عائدة إلى بيتها .. يومها لم يلعن السياسة والفلسفة ..
إنما صَبَّ جام غضبه على تفاهة النساء ، وغبائهن اللامحدود^(١).

وكثيرًا ما حدث صديقه مهدي جواد حول ضرورة التحرر من استعباد
الجسد .. ويحدثه عن العبودية الامتثالية للمرأة : عبودية الشهوة^(٢).

و ذات ليلة .. الليلة التى سمتها فلة بوغنا ب أو مهيار أو كلاهما : الليلة الثانية
بعد الألف كسرت فلة خط الطهارة المهيارية فكانت ليلة الضجعة الأولى التى
تواصل حبها حتى الصباح .. فلة المعطرة الحزينة لجرح مهيار ، والساخرة عليه بحنان
أمومى ، ومهيار المحطمة أحلامه ، والملقى غريبًا جريحًا فى وطن الثورات
المغدورة^(٣).

وتنتصر فلة بوغنا ب مناضلة الأمس ، ومومس اليوم على مهيار الباهلى الذى
كان - إلى أن حلت هذه الليلة - مثال الطهر والنقاء .

* * *

وفلة بوغنا ب هى صاحبة « البنسيون » الذى نزل فيه مهيار الباهلى .. كانت
مجاهدة من المجاهدات ضد المستعمر الفرنسى فى الجبال ، ثم كانت صدمة
الاستقلال التى قلبت ميزان حياتها « الثورة الوطنية انتهت .. والرجال صاروا فى
مواقع السلطة والمسئولية .. وهانحن اللواتى قاتلن فى الجبال والمدن نتحول إلى
الخدمات المنزلية : جميلة بوحيرد تزوجت من محاميه ، وهاجرت معه .. جميلة
بوعزة دخلت فى النسيان .. أنا مع آلاف النساء صرنا إلى ما يشبه المومسات

(٢) « الوليمة » (٥٩٦) .

(١) « الوليمة » (٥٩٨) .

(٣) « الوليمة » (٥٨٩) .

أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال .. انتهى دورنا الاستثنائي ، فاستدردنا إلى وظيفتنا الأساسية^(١) .

الخمر والسهر والجنس الشائع مع كل الجنسيات ، والاستهانة بالآخرين والقيم والأديان .. هذه هي قائمة أخلاقياتها ، أو مفاتيح شخصيتها .. ومن الخطأ تبرير ذلك بصدمتها في الثوار الذين حكموا وطنها بعد الاستقلال ، فكانوا مثلاً ضارياً سيئاً .. وحشاً أكل كل شيء ، ولم يعط شيئاً ، لأن ذلك قد يبرر سلوكاً انحرافياً آخر كاغتتيال المسؤولين ، أو السطو على أموالهم .. ولا تعليل لهذا الانحراف الجنسي البشع إلا « آفة النهم البهيمي » الحسيس .. وقد يكون وراءه طابع سادى حاد ، يجد المتعة في « إسقاط » الآخرين في مستنقع الجنس .

وقد يؤيد ذلك حرصها على تشويه صفحة المجاهدين الأضلاء .. تقول فلة : « فى الجبل غاب أصدقاء كثيرون ، ولم يعودوا .. أصدقاء قاتلت معهم ، وضاجعتهم فى الكهوف .. أنت لا تعرف عذوبة الجنس فى لحظة الحرب . فى لحظة الموت .. عندما يموت المقاتل بعد استراحة هائلة مع امرأة لا يأسى على شيء .. لقد أخذ الجسد ، وأعطى ، ثم نام مرتاحاً^(٢) .

ثم تقدم تبريراً أغرب لحرصها على مزاولة الجنس بإفراط وإسراف مع أشخاص متعددى الجنسية والقدرات .. يظهر ذلك فى الحوار التالى بينها وبين مهدي جواد : - اسمع .. سأقول لك شيئاً خاصاً عنا : نحن نشتهى الفرنسى ، والجزائرى والعربى معاً .. هل تستطيع أن تتكهن لماذا ؟

- لا ، تكهنى لنا .

(ترمى وَدَعَهَا ثم تخط فى الرمل !!) .

- هو صوت الدم المبدد .. أو الشهوة .. أو العبث .. أو رغبة الاستبدال .. آ .. هذا ما تقوله .. ولكن .. أنا أسألك : الجميل .. والغريب .. والغنى .. والذكى .. والمغامر .. والشهوى .. والفنان .. والشجاع والقوى .. هلى يحتازها كلها رجل واحد ؟

(٢) « الوليمة » (١٨٥) .

(١) « الوليمة » (١٨٣) .

(٣) « الوليمة » (٣٢٤) .

- لا ، طبقاً .

- الجزائرية فى بلادنا تحلم بهذه الجمهورية المفقودة من الرجال .. من أجل ذلك تخون إذا كان البحث عن تلك الجمهورية يسمى خيانة .

- هذا .. ماذا تسمينه فلة ؟

- بحث مشروع عن الحق الطبيعى .. حق أم لا (١) ؟

وهذا الكلام يعنى - بمنطق فلة على ما فيه من غموض - أن مزاولة الجنس مع جنسيات متعددة ، وأصحاب قدرات متنوعة إقامة مشروع جمهورية تسودها الأخلاق الطبيعية الأولى .. وهى أصيلة فى نظرها ، متجذرة فى الطباع ، وسلوكها الجنسى الحاد يعيد الأمور إلى وضعها الاستحقاقى العادل .. فكأن قيامها باعتناق الجنس واحتضانه سلوكاً يحقق - ولو حكماً وتخيلاً - معادلاً موضوعياً للجمهورية التى كانت منشودة مرجوة على أيدى الثوريين .. ولكن خاب فيهم الأمل ، وتحطمت المطامح .

إن شخصية فلة بوعناب تمثل أعلى الأصوات وأقواها فى عالم الجنس المنهزم ، والخمر والعبث والاستهتار ، والوقاحة والتبجح ، وكان لها من قوة التأثير ما مكنها من شد مهيار الباهلى من عالمه الأيديولوجى المثالى الذى لا مكان للمرأة فيه ، والذى لا يشغله إلا التفكير فى الثورة إلى عالمها الجنسى المفضوح ، فى ليلة أصابته فيها الحمى العاتية التى أشرفت به على الهلاك ، فقدمت جسدها إليه ، فلما انفكت أزمته المرضية والنفسية - ولو إلى حين - اعتقد أن الترياق كان فى هذا الجسد ، واعتقد .. بل صرح أن هذا منها كان تضحية وافتداء عظيمًا جليلاً .

والشخصية الرابعة هى شخصية آسيا الحضربنت سى العربى أحد شهداء الثورة الجزائرية .. كانت تعيش تحت ضغط نفسى أليم .. لأن أمها « لالا فضيلة » تزوجت رجلاً غنيًا انتهازيًا مشغولاً بجمع المال ، والحرص على لياليه مع أمها .. عاشت الأسرة مع الواصل الجديد فى بيت واحد .. كانت تشعر بأن هويتها الاجتماعية ضائعة .. لذلك كانت ترفض أن تكون المرأة مجرد زوجة شرعية للمطبخ والسرير (٢) .. وكانت ترى أن جوهر الحرية يتركز فى الوعى والتحرر

(١) « الوليمة » (٣٢٤) .

(٢) انظر : « الوليمة » (٩١) .

الاقتصادى^(١) . وكانت مفتونة بسيمون دى بوفوار ، التى تنشر عنها الصحف الفرنسية كنموذج للتحرر والتفتح .

وتحقيقاً لذاتها ، واستكمالاً لعناصر هويتها صممت على تعلم اللغة العربية على يد مهدي جواد ، وكان هذا « الدرس الخصوصى » وسيلة لعاطفة حب جارية بين الأستاذ وتلميذته ، كان طرحها الشرب والقصف والليالى الآثمة .. متمردة على القيم الماثورة مستهترة فى نظرها إلى الآخرين .. وكان أشد مظهر من مظاهر تمردها ثورتها الجائحة على زوج أمها يزيد ولد الحاج خالعة عليه من الأوصاف والألقاب : الخنزير .. والحلوف .. والقحب .. واليهودى^(٢) .

* * *

ومن الشخصيات الثانوية التى كان لها حضورها الملحوظ على امتداد الرواية مع أنها كانت شخصية مسطحة ثبتت على خط واحد بلا نمو ولا تطور : شخصية الشيخ محمد التى قدمها الكاتب نموذجاً « للرجل المتدين » فى مقابل شخصيات الحرية والتحرر والتطلعات إلى إقامة مجتمع العدل والاشتراكية الحقيقية .. لقد أسهب الكاتب فى عرض ملامح هذه الشخصية عرضاً أفقيًا موزعاً على كثير من المواقف ، وجعل منه « مسخرة » يستهدفه الآخرون بالتهكم والإزراء وخصوصاً مهدي جواد ، وآسيا بلخضر .

وابتداء العلاقة بين الحاج محمد ومهدي جواد كان يوم استأجر الأخير غرفة منه للسكنى .. وكانت إرشادات الحاج محمد - الذى زار بيت الله ثلاث مرات : لا ضواء .. ممنوع السهر الطويل .. لا خمرة .. احذر إدخال النساء .. نحن قوم شرفاء لا نؤجر إلا للشرفاء .. أنتم شيوخ جئتم من أرض الأنبياء والرسل لتعليم أطفالنا القرآن وتقوى الله ، والسير على الصراط المستقيم ...^(٣) .

وفى السرد يخلع المؤلف على الشيخ محمد من المواقف والصفات ما يثير السخرية منه والاستهانة به مثل :

(١) انظر : « الوليمة » (٩١) .

(٢) انظر : « الوليمة » (٦٠١) .

(٣) « الوليمة » (٢٤) .

- على العتبة فوجئ (مهدي جواد) بوجه الحاج محمد ، لحيته المزروعة بالبياض كانت ترتجف ، ووجهه الأصفر ينضح حقداً^(١) .

- الحاج محمد المليء كرشه بنور الله وتقواه^(٢) .

- الحاج محمد زائر مهد رسول الله ﷺ وعاشق كعبته بدا بائساً تحت ذلك الغروب الكاوي .. كان مرتبكاً يتعثر باختلاطات عقله وأسئلة الجيران الذين خرجوا ، وبالدمدمات الأخلاقية التي يطلقها ذهنه المثلث بالأموال والصلوات والكبت الجنسي^(٣) .

هذا عدا ما جاء على ألسنة آسيا بلخضر ، ومهدي جواد ، وغيرهما من السخرية بهذه الشخصية ، ورميها بالنقائص والانحطاط .. ونحن لا ننكر أن حياتنا الاجتماعية لا تخلو من مثل هذه الشخصية ، ولكننا نلاحظ في رسمها وأسلوب عرضها ما يأتي :

١ - كثرة التدخل من الراوى المؤلف وعدم الاكتفاء بطروحات الحوار بشأنها ، وكأنها كانت تشغل في ذهنه اهتماماً خاصاً .

٢ - الإكثار من تكرار زيارته لمهد الرسول ﷺ ، وعشق الكعبة والبيت الحرام .. وهو تكرار لا يكسب الفن شيئاً .. وإن بقيت له دلالاته التهكمية .

٣ - استعمال عبارات ساقطة فيها استهتار ذميم مثل المليء كرشه بنور الله وتقواه .

وكأنني بالكاتب قد اتخذ من الشيخ محمد رمزاً « للدينى » ليكون مقبواً لتشويه قيم الدين والخلق في أنظار الآخرين .. بينما نراه متعاطفاً مع الشخصيات الأخرى على اختلاف درجات هذا التعاطف ، موظفاً من المبررات الدفاعية ما يدخل في نطاق المكيافيلية في صورتها الحادة .

* * *

ومن الشخصيات الثانوية يزيد ولد الحاج ذلك البرجوازي الثرى المليونير الذى

(٢) « الوليمة » (٤٦) .

(١) « الوليمة » (٤٥) .

(٣) « الوليمة » (٤٨) .

تزوج « لا لا . فضيلة » أرملة الشهيد سى العربى والد آسيا ومنار ورابع .. عاش مع زوجته هذه أميرا أسطوريا في رفاة وامتعة ، والأم والأولاد جميعا في خدمته ، الزوجة في أبهى الثياب ، وأجمل الحلى ، فهو منقذ الأسرة من الفقر واليتم والتشرد في أعقاب استقلال الوطن^(١) .

كان الرجل مشغولا بمالياته واقتصادياته .. فالكسب المتتالية المتزايدة تغريه بهذا الانشغال ، كما تغريه بالإقبال على « لا لا فضيلة » التى يدفن فيها تعبها اليومى ، ويحقق بها ملاذته التى يحرس عليها .. ويرضى كبرياءه وتعاضمه نهوض أولاد « لا لا فضيلة » لخدمته ، والعمل على راحته .

* * *

وفى العمل الروائى تتعدد الشخصيات المحورية ، والشخصيات الثانوية .. ولكن السؤال عن البطل ، أو الشخصية الأولى وارد دائما .. وفى نطاق الرواية الحيدرية نزع أن الاحتكام إلى معيار الفاعلية ، والتأثير ، والغلبة ، والقدرة على الإيقاع بالآخرين ، والهيمنة عليهم يقودنا إلى القول بجدارة « فلة بوغتاب » للفوز بهذه المكانة .. فكل القادة مروا بها - كما تقول - والعرب من جنسيات مختلفة وقفوا بابيها ، وهى بالجنس « المفلسف » تقيم بالحلم دولة عجز الثوار بعد الاستقلال أن يقيموها على أرض الواقع .

لكننا نعود فنجزم أن « الجنس » فى الرواية هو البطل الحقيقى إن صح أن يكون البطل « معنى من المعانى ، أو قيمة من القيم الرفيعة أو الخسيسة » إنه البطل الوحيد الذى كان له حضوره الدائم أو الغالب فى كل المواقف ، ومع كل الشخصيات حتى مع من هبئ عقديا لأن يكون منه بمنجى ، مثل مهيار الباهلى الذى هزمه الجنس على يد « فلة بوغتاب » فى ليلة الحمى العاتية .

ونلاحظ أن شخصية الأنثى كانت تحصد الغلبة فى مسيرتها الاجتماعية ، وخصوصا عند الاصطدام ، وقد رأينا ذلك فى شخصية فلة ، ورأينا ذلك فى شخصية آسيا الخضر حين دمرت كبرياء زوج أمها يزيد ولد الحاج فى ثورة عارمة .

(١) انظر : (الوليمة ٦١٦ - ٦١٩) .

ونرى ذلك فى شخصية « منار » صغرى بنات « لا لا فضيلة » التى رفضت فى شراسة كل أوامر زوج أمها ، فلم تنفذ منها أمراً واحداً .. فإذا ما اعترض عليها ، ثارت فى وجهه :

- أنا حرة ، وأعرف ماذا أفعل^(١) .

وقد فسر « حيدر » نفسه هذا « التحيز » فى مقام حديثه عن علاقته بأبويه « كان أبى قاسياً ومهيماً تماماً على أمى ، وكان يأخذ مواقف عدوانية كثيرة ضد أمى ، فكنت أقف بينهما دفاعاً عنها لأحميها ، وأتلقى الضربات بدلاً منها وأقول له : اضربنى ، واترك أمى ، فكان يرتد شاعراً بالحزى أو يكبح جماح غضبه مطلقاً الشتايم عليها ، ولم يكن يهمنى شىء بعد أن أكون قد حميتها من العصا أو الكف . ربما ولد هذا فى أعماقى نبئاً أخضر مناصراً للمرأة ... »^(٢) .

ومشاهد العدوانية الأبوية على الأم المظلومة تركت فى نفس الطفل أثراً عميقاً جعله فى كبره مناصراً للمرأة كما ذكر ، ثم لاحقه فصور ما يشبهه أو يماثله فى روايته ، فعرض صورة « سعدون جواد » والد مهدى ، وجعل من أهم سلوكياتها فى منظومة شراسته وحماقاته واندفاعاته « ضرب زوجته .. التى عاش كارهاً لها .. يرميها بحقده الشيطاني ، ويذيقها العلقم ، لأنها لا تفهمه ، ولا تدرك مدى قدراته اللامحدودة فى الوصول إلى النجوم ، وقيادة الكرة الأرضية ، وإيقافها متى شاء ... »^(٣) .

* * *

(١) « الوليمة » (٣٠٠) .

(٢) مجلة أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ من حوار حيدر مع الصحفية أمنية طلعت .

(٣) « الوليمة » (٢١٦ ، ٢١٧) .

رابعاً : الحوار

الحوار جزء مهم من الأسلوب التعبيري في القصة ، وهو صفة من الصفات العقلية التي لا تنفصل عن الشخصية بوجه من الوجوه .. ولهذا كان من أهم الوسائل التي يعتمد عليها الكاتب في رسم الشخصيات .. وعلاوة على ذلك كثيراً ما يكون الحوار السلس المتقن مصدراً من أهم مصادر المتعة في العمل القصصي ، وبواسطته تتصل شخصيات القصة بعضها ببعض الآخر اتصالاً صريحاً مباشراً ، وبهذه الوسيلة تبدو لنا ، وكأنها تضلع حقاً بتمثيل مسرحية الحياة .

والحوار البارع يكون سبباً من أسباب حيوية السرد وتدقيقه ، كما أنه يستعمل أحياناً في تطوير الحوادث ، واستحضار الحلقات المفقودة منها ، إلا أن عمله الحقيقي في القصة هو رفع الحجب عن عواطف الشخصية وأحاسيسها المختلفة ، وشعورها الباطن تجاه الحوادث أو الشخصيات الأخرى ، وهو ما يسمى عادة بالبوح أو الاعتراف ، على أن يكون بطريقة تلقائية ، تخلو من التعمد والصنعة والرهق والافتعال^(١) .

فالحوار في الرواية يؤدي مهام متعددة أهمها :

١ - الاشتراك في رسم الشخصيات ، وإبراز أعماقها الدفينة ، وأحاسيسها الكامنة .

٢ - إيجاد التلاحم والاندماج بين شخصيات الرواية .

٣ - توفير التفاعل بين الشخصيات والأحداث .

٤ - تطوير الأحداث وإنمائها .

ومن ثَمَّ يجب أن يكون الحوار الروائي « مقتضباً ومكثفاً ، حتى لا تغدو الرواية مسرحية ، وحتى لا يضيع السارد والسرد جميعاً عبر هذه الشخصيات

(١) انظر : محمد يوسف نجم : فن القصة ١١٧ ، ١١٨ .

المتحاور على حساب التحليل ، وعلى حساب جمالية اللغة واللعب بها ^(١) .

* * *

وفى مقام الحديث عن الحوار الروائي علينا أن نكشف عن مداه الكمى من ناحية ، وعن شكله التعبيرى من ناحية أخرى .

فمن ناحية المدى الكمى يجب ألا يطغى الحوار على مساحة الرواية .. وإلا خرج بالرواية عن طبيعتها كجنس أدبى له تميزه ، جائزاً على امتدادات السرد تقريباً إلى فن المسرحية .

والإكثار من الحوار فى الرواية إلى حد الإغراق أحياناً جنح إليه عدد غير قليل من الروائيين العرب فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين .. ويعلل أحد النقاد الاتجاه إلى الإكثار من الحوار فى الرواية بواحد من التعليلين الآتين ، أو بهما جميعاً :

الأول : أن الكاتب يتملص من موقف صعب فى التحليل والوصف والكشف ، فيعمد إلى إلقاء المفونة على الشخصيات لينطقها بأى كلام ، ويعنى بعض هذا أنه يسلك هذا السلوك عن وعى .. بل عن غش ، ومخادعة للمتلقى .

الثانى : أنه مبتدئ محروم ، فيعمد إلى كتابة هذه المحاورات دون وعى فنى كبير ، فيصول فيها ويجول .. ولكنه لدى نهاية الأمر يفسد على الشكل اللغوى الأساسى أمره ، فتطغى لغة الحوار على لغة السرد ، فإذا نحن لاندرى أنقرأ مسرحية كتبت لتمثل على الخشبة .. أم نقرأ رواية كتبت ليقرأها القراء حيث هم ^(٢) ؟

* * *

ومن ناحية الشكل التعبيرى للحوار نرى - باسم الواقعية - من يدعو إلى أن تتحدث الشخصية بلغتها التى تتحدث بها فى واقع الحياة .. فمن غير المعقول - كما يقول الدكتور رشاد رشدى - أن يجعل كاتب القصة شخوصه تتكلم بمستوى لغوى واحد .. فالكاتب عليه أن يكون واقعياً يحاكي الواقع ، وليس معقولاً أن يتكلم الفلاح الفصحى ^(٣) .

(١) الدكتور عبد الملك مرتاض « فى نظرية الرواية » (١٣٤) .

(٢) مرتاض : السابق (١٣٥) . (٣) « القصة القصيرة » (١٠٠) .

ويرفض عبد الحميد جودة السحار هذا الاتجاه بمقولة إن العامية لا تخلق أبداً .. والكلمة العامية تختلف فى المعنى من بلد إلى آخر ، وقد تختلف من إقليم إلى إقليم ، وقد لا تفهم خارج نطاقها المحلى ، والتسليم جدلاً بأن واقعية الأسلوب تحتم استعمال العامية فى الحوار .. فإن التضحية بهذه الواقعية أقل بكثير من التضحية بالحوار^(١) .

وفهم « واقعية الحوار على أنها تمثيل للغة الشخصية بإطلاق حتى لو كانت عامية ينقضه إشكالية التعامل مع شخصيات من جنسيات أخرى .. فالأخذ بهذا المبدأ يستوجب إنطاق الإنجليزى بالإنجليزية ، واليهودى بالعبرية ، وهذا مستحيل .. فالحل إذن يكمن فى الفهم الصحيح للواقعية لا فى نطاق « حرفية اللغة » باستنساخها كما هى ، ولكن فى نطاق « فنية التصوير والأداء » وتعتبر آخر : تكون الواقعية واقعية فنية شاملة ، لا واقعية لغوية تركز على مجرد المحاكاة ، واقعية فاعلة لا واقعية ناقلة .. لأن عملية الرصد التسجيلى هى مهمة العالم الأديب .. وهو فى تعامله مع الواقع يعتمد على مبدئين : المبدأ الأول : هو مبدأ الانتقاء .. انتقاء مادته أو نماذجه من الحياة يستوى فى ذلك الأحداث والشخصيات تبعاً للمنطق الروائى المخطط .. والمبدأ الثانى : هو مبدأ « التصفية » أو التنقية بتمرير « المادة » من خلال ذاته على مصفيتين : هما الوجدان .. والعقل .. وبذلك يتحول الواقع من موجود شائع دارج متسبب إلى مخلوق فنى جمالى .. فالصدق - كما يقول الدكتور هلال - ليس معناه حكاية الواقع كما هو ، أو سرد رواية التاريخ كما حدث .. إذ الفن يستلزم - بطبعه - الاختيار من بين الأحداث وترتيبها على نحو خاص مقنع فنياً ، بحيث توحى فى عالمها المصور فى القصة بالقضايا التى يؤمن بها القاص ، ويدعو إليها .. وفى هذا يتجاوز القاص الواقعى نفسه عالم الواقع كما هو .. فهذا الصدق ليس مرده وقوع حوادثه التى ساقها كما هى .. ولكن مرجعه إلى سياقها على طريقته المقننة واقعياً وفنياً^(٢) .

فالواقعية يقصد بها واقعية النفس البشرية ، وواقعية النفس والمجتمع ،

(١) السحار « القصة من خلال تجاربى » (٢١) .

(٢) الدكتور غنيمى هلال « النقد الأدبى الحديث » (٥٤٠) .

والكاتب لا يستنطق لسان المقال .. بل لسان الحال^(١) . على أنه لانزاع فى أن اللغة الفصحى أقدر وأثرى فى تنويع الدلالات وتعميقها من اللغة العامية المحدودة فى مفرداتها ، والمتصلة بالوقائع والمحسات ، فى حين تعجز عن المعانى العالية ، والأفكار العميقة والخواطر والمشاعر الدقيقة^(٢) .

ولغة السرد هى لغة كاتب الرواية التى تدل عليه ، وتدل على سماته الأسلوبية بقدر أكبر من دلالة الحوار على هذه السمات .. حيث يكون الأول منطلقاً بلا ارتباط مقيد .. بينما يكون الثانى مقيداً بطبيعة الشخصية ، وحركتها ، وأبعادها العقلية والنفسية .. إلا أن لغة السرد - بصفة عامة - يجب أن تتسم بالسهولة والوضوح دون ابتذال ، وقوة النسيج والتدفق دون تسبب ، وقدرة التصوير بعيداً عن الافتعال والتصيد والتكلف .. فهو أسلوب آحادى المستوى لأنه أسلوب كاتب الرواية الذى يقص فى حياد .

* * *

أما لغة الحوار - وقد اتفقنا أن صورتها المثلى .. بل الوحيدة هى الفصحى - فيجب أن تتعدد مستوياتها بالتعدد النوعى للشخصيات .. فالعبارات التى تجرى على لسان الفلاح تكون دارجة الأسلوب ، سهلة المأثى ، تعرض المعنى بصورة مباشرة عفوية .. أما لغة الفيلسوف أو المفكر « الرفيع الثقافة » فتتسم بالعمق والتركيز .. وقوة اللمح والإيحاء .. ولغة المرأة السوية يختلف عن أسلوب المرأة الشاذة . على أن طبيعة الموقف أو الحدث يكون لها تأثيرها فى توجيه الخطاب الحوارى ، وتحديد طابعه .. وهى قاعدة مطردة تصدق على كل الشخصيات مع اعتبار قدراتها وإمكاناتها اللغوية فى واقع الحياة : فحديث الشخصية وهى فى موقف الخطر غيره فى موقف المتعة والارتخاء ، وحديث الشخصية مع عامة الناس يختلف عن حوارها مع ملك أو أمير .. وكل أولئك بمعيار الكم .. إيجازاً أو تفصيلاً .. ومعيار الكيف سهولة ومباشرة وتصريحاً أو عمقاً وإيحاء وتلميحاً .

(١) غنيمى هلال : السابق (٦٧٢) . وانظر كذلك : (أبو شريفة : مدخل إلى تحليل النص الأدبى

١٢٢ ، ١٢٣ ، ومرتاض : مرجع سبق (١٣٥) .

(٢) غنيمى هلال : السابق (٦٧٣) .

وقد ذكرنا من قبل الدور أو الأدوار الكاشفة والفاعلة للحوار فى نطاق الشخصية المحاوره والشخصيات الأخرى والمواقع والوقائع .. وطبيعة هذه الوظيفة للحوار تستلزم أن يتحلى الحوار بسمه « التناسب » مع الشخصية المحاوره فى أبعادها العقلية والنفسية والاجتماعية ، حتى يكون « المنطوق » انعكاساً أميناً لجوانية الناطق .. وإلا تحقق انفصام يترتب عليه حرمان الحوار قدراته وإمكاناته الكاشفة ، وعجزه عن إقناع المتلقى واستمالاته .

* * *

وننتقل إلى الرواية الحيدرية « وليمة لأعشاب البحر » لننظر بعين النقد إلى حوار الرواية ، والنظرة العامة إلى هذا الحوار - من أول الرواية إلى نهايتها - تقودنا إلى الحكم بطغيان الحوار على الرواية ، والهيمنة على أغلب مساحاتها ، بل إن كثيراً من السرد يقترب من طبيعة الحوار حين يجعله الكاتب على هيئة طرح أو بوح ذاتي . ولكن نترك هذا الجانب الكمي الآن ، وقد نعود إليه ، وننظر إلى هذا الحوار من الناحية الكيفية .

ابتداء نقرر أن الحوار الواقعي البارع الذى يمكن أن يؤدي بحق وظائفه التى أشرنا إليها آنفاً فكرياً وفنياً .. هذا الحوار قليل جداً .. بل نادر لا يزيد عدداً على أصابع اليد الواحدة .. ومنه بحق مادار بين (أبو صبرى) الشيوعى العفوى الساذج البسيط ، ومهيار الباهلى القائد الماركسى والذى يمثل شخصية محورية فى الرواية :

- أخى مهيار .. اسمع . أنا رجل بسيط غير متعلم لا أفقه فى التيك والتاكتيك .. إنى شيوعى فقير لا أملك شيئاً .. الحياة والموت عندى سوا .. الضباط والتجار والإقطاعيون ورجال الحكومة أعداؤنا .. صح أم لا ؟!!

- صح !!

- إنى ، وكل الشيوعيين الحزبيين لازم نقتل هؤلاء الأعداء بلا شفقة .. حق وعدل هذا الكلام رفيق أم لا ؟!!

- حق وعدل .

- وإذا بقينا ننتقل ، ونبنى أكواخا ، ونمطط كلاما فى التيك والتاكتيك
يربحون الوقت .. صح أم لا يارفيق !!؟
- صح^(١) .

فالحوار هنا استوفى كل شرائط البراعة والصدق ، وقدم لنا رجلاً بسيطاً
لا يهمه من الأيديولوجيات والتنظيمات إلا ما يهدف إليه ابن الشعب البسيط : أن
يعيش .. يأكل ويشرب ويحقق ما يريد مباشرة وبحسم .. ولو كان السبيل إلى ذلك
القتل وإراقة الدماء .

* * *

وغير ذلك نرى الحوار فى الرواية مثقلاً بكثير من العيوب الفنية ، وأهم هذه
العيوب :

- ١ - الطول إلى درجة الثثرة التى تقود إلى الملل والتشاؤب ، فى تقريرية
مقالية تضعف البناء الدرامى للرواية من ناحية ، وتغتصب فضاء كان من حق
السرد . كالحوار الذى أداره المؤلف بين فلة بوغتاب ومهدى جواد ، وفيه يجرى
على لسان فلة حديثاً متتابعاً بلا انقطاع يستغرق ما يزيد على أربع صفحات^(٢) ..
وقد يأتى الحوار فى صورة علمية ممططة . وكثير منه على لسان مهدى جواد^(٣) .
- ٢ - وحدة المستوى اللغوى مع تعدد الشخصيات بحيث يمكن تبادل
معطيات الحوار ، وإعادة توزيعها دون أن تتغير معطيات التشخيص أو تضطرب
أبعاد الشخصية ، لأن الحوار محروم من الملامح الفارقة .. ولتقف أمام النماذج
الآتية فهى تقرينا من فهم المقصود بهذه السمة :
- (أ) أنا أعرفهم من مسافات بعيدة يشمون الرائحة ، فيركضون نحوها ، بعد
أن غادروا تجاوىف الجبال اتجهوا إلى تجاوىف النساء^(٤) .

(١) « وليلة لأعشاب البحر » (٣٧٠) .

(٢) انظر : (الليلة ١٨٠ - ١٨٥) .

(٣) كحديثه الطويل عن قصته مع الحزب الشيوعى وعن خططه (الليلة ٧٣ - ٧٥) .

(٤) المرجع السابق (٣٥١) .

(ب) انظر إلى أنوفهم وأصابعهم وذقونهم المهدلة كقضبان عاجزة عن الجنس .. إنها تنتظر رنين الدراهم لتنتصب إلى الأعلى . عيون مليئة ببرقات الأفاعي ، وروث الخيول^(١) .

النص الأول جاء على لسان فلة بوغتاب في حديثها لمهدى جواد ، والثاني من حديث بلسان آسيا لمهدى جواد في موقفين مختلفين بينهما بعد زمنى ، واختلاف مكاني ، وتبادل النصين لا يغير من الواقع الفنى والفكرى المتداخل إلى درجة التلبس شيئاً ، وإن كان النص الثانى أقرب إلى شخصية فلة كما رسمها الكاتب .

والشواهد الدالة على هذه السمة فى الرواية أكثر من أن تحصى .

٣ - تعدد المستوى اللغوى نوعياً فى نطاق الشخصية الواحدة : رأينا أن اتخاذ العربية الفصيحة لغة للحوار هو الاختيار الطبيعى فى العمل الروائى ، واتساقاً مع السرد الذى لا خلاف فى أدائه باللغة الفصيحة .. ولكن منه ما جاء بالعامية دون مقتضى فنى أو موضوعى .. ولكن الأغرب من ذلك أن يأتى الحوار أحياناً مزيجاً من الفصحى والعامية على لسان الشخصية الواحدة فى الموقف الواحد . والأشد غرابة على الإطلاق أن يجمع الحوار الواحد بين العربية الفصيحة ، وأكثر من عامية ، كما نرى فى المثال التالى على لسان فلة بوغتاب :

- مثلى أنت تهرب ، وتراوغ ، وتنقسم على نفسك ؛ لأن الهزيمة كانت مريرة ، ولأنك وحيد لا تستطيع أن تفعل شيئاً .. أعرف .. لا تستطيع أن توقف الدمار والخراب .. الخراب أقوى منا .. ولا أحد فى الساحة .. أعرف .. لقد انسحبوا إلى الملاجئ الآمنة والهدوء .. بدهم يعيشوا ويأكلوا ويتزوجوا .. ويجمعوا شوية فلوس مش كده يا خويا مهدى ؟ قل الحق .. أنا غالطة فى هدرتى^(٢) ؟

فالجمال الثلاث الأخيرة تنتسب بترتيبها إلى ثلاث لهجات عامية هى : الشامية .. المصرية .. والجزائرية .. ومن فضول القول أن ننبه إلى أن مثل هذا الحوار يهدر الوشيجة بينه وبين السرد من ناحية ، والحوار الفصيح من ناحية أخرى .. فهو يبدو رُقعاً متعددة الألوان فى الثوب .

(١) المرجع السابق (٥١٩) .

(٢) « الوليمة » (١٨٤) .

ومن مساوئ العامية كذلك أنها - فى صورتها المحلية الحادة - تغلق الطريق أمام القارئ العربى لفهم المعنى .. كما نرى فى الحوار التالى (بين مهدي جواد وآسيا بلخضر) :

- عظيم .. أنت امرأة ذكية حقًا .. وأنا أطلب يدك الليلة .

- ما معنى ذلك ؟

- هل تقبليننى زوجًا لك ؟

- يا للمصيبة ! واش ندير بيبك .. يزينى مصايب .. خويا يرحم

والديك^(١).

٤ - خنق الحوار وتعويق قدرته : المفروض - كما ذكرنا - أن يأخذ النص الحوارى مكانه فى السياقة الروائية ليطلق فى حرية شحنته الفكرية والإيحائية ارتباطًا بالسرد دون أن يكون عالة عليه .. ولكن النص الحوارى يَرُدُّ أحيانًا وكأنه « فضلة » أو تحصيل حاصل لا يضيف جديدًا بعد أن استغرق السرد أو الوصف فكرته .. كما نرى فى النص التالى :

« لا لا فضيلة » تؤرجح رأسها .. تسوى حزامها الذهبى الذى قدمه يزيد لها فى ليلة العرس .. ترشق عبارات مبهمه عن الحيل الجديد الذى لا يعجبه شىء .. حبها الجارف لابنتها يطغى :

- لا أعرف يا ابنتى .. لا أعرف .. أنتم متعلمون ، وتفهمون أكثر .. نحن قدامى ، ولم نتعلم .. يلعن أبو الظلم والظلام . والله أنا وأنت تعرفين .. أقطع لقمة الخبز عن نفسى وأعطيها للفقراء^(٢) .

٥ - علمية بعض الحوار إلى درجة الإسراف : مما يقربه - وكثيرًا ما يتسم بالطول - من طبيعة الدرس أو المحاضرة الأكاديمية المعمقة التى تحمل شحنة من المعرفة .. ولكنها تبقى مجردة من الإيحاء والتأثير الجمالى .. كالذى جاء على لسان مهيار الباهلى متحدثًا إلى فلة بوعناب : « ولكن العالم القديم اللا عقلانى لم تحرق الحرب كل قلاعه ، لقد ارتدوا إلى وعيهم القديم .. حدث انعطاف .. عودة نحو

(١) « الوليمة » (٦٦٥) .

(٢) « الوليمة » (١٥٤) ، وانظر (١٩٤) .

الدائرة المغلقة .. انظر إليهم كيف عادوا إلى الدوران حول معابدهم الأولى .. معابد الأجداد الذين انقرضوا . تحت هذه الدورة الأنثروبولوجية نفهم خصوصية الماركسية^(١) .

* * *

والحوار الداخلي بألوانه المتعددة يستغرق من الرواية مساحات واسعة جدًا تشي بأن الكاتب قد أفاد - على نطاق واسع - من التقنيات الحديثة في الرواية .. والمناجاة أشهر ألوان الحوار الداخلي .. وغالبًا ما يكون لها مقدمة توضح أن الكلام غير موجه لمخاطب .. بل إلى الذات .. فهو « مونولوج » أفعاله : قال في نفسه .. مخاطب نفسه .. سأل نفسه .. تساءل ... إلخ .. ومن أمثلة المناجاة :

- كانت الأسئلة اللا جواب عليها تتناسل في رأسه .. غير أن السؤال الأكثر تنغيصًا لمهدى جواد في منفاه هو الحصول على الجواب الحاسم : أين يكمن العطب ؟ لكن السد الناهض كجبل من صوان عصي على الكسر : كيف تبني من جديد ولا تتحطم^(٢) ؟

- يومها اكتشفه مهيار الباهلي .. اكتشف الوجه الآخر للطفل الهادئ .. ويومها سأل نفسه : كيف يحمل الإنسان في داخله قلب طفل ، وصرخة نمر ؟ لابد أنه كان مجنونًا أو مصقولًا بحلم شمسي .. وعلى مؤشر هذه البوصلة كان يتقدم في حقل ألغام على كتفه بندقية ، وفوق جسده كفن أبيض^(٣) .

* * *

وهناك الخطاب غير المباشر ، وهو يقف بين الخطاب المباشر والسرد .. فهو ليس نقلًا أمينًا وثائقيًا لأقوال الشخصيات .. فالرواي ينقل كلام الشخصيات بأسلوبه هو ، فيلخص ويخضع الكلام للغة هو ، ووجهة نظره .. والضمير الغالب هو الغائب الممثل لحضور الراوي .. ومثاله :

(١) « الوليمة » (١٢٦) .

(٢) « الوليمة » (١٥٧) .

(٣) « الوليمة » (٢٤٢) .

« عندما انطلق عبد الحسين ونصر الطويل ينمان على مهدي جواد الغائب ، استفز الباهلي ، وبدا يتململ .. طفقاً يتهكمان على الرجل الهارب من بلاده ، والذي يدعى الثورية ، فى الوقت الذى لا يرى فيه إلا مع هذه الطفلة الجميلة المخدوعة بصعلوك لا يساوى فلساً فى بلاده »^(١).

وهناك ما يسمى بالخطاب غير المباشر الحر ، وهو يشترك والخطاب غير المباشر العادى فى أنه قد يتضمن جملاً إنشائية استفهامية وتعجبية ، ومجماً اسمية أو فعلية فعلها فى المضارع .. وهو فى ذلك يقترب من المناجاة الداخلية لأنه يصور عالم ما وراء الوعى وتيار الوعى الداخلى .. إنه ينقل أحاسيس الشخصيات قبل أن تنتظم فى كلام منطقي منسق ومنطوق .

أما الخصوصية فى هذا الخطاب فهى - من حيث الشكل - فى أنه يأتى دون مقدمة كما فى الخطاب غير المباشر ، وأن الضمير الطاغى فيه هو ضمير الغائب لا المتكلم كما فى المناجاة الداخلية .. أما أبرز ما يميزه من حيث المضمون والتقنية فى التعبير الفنى فهو التواطؤ بين صوت الشخصية وصوت الراوى .. فنحن نتساءل : من يتكلم .. هل هو الراوى يغوص فى أعماق الشخصية يحللها ، ويقرأها كالكتاب المفتوح .. أم أنها الشخصية نفسها تفتح ذاتها العميقة لتعبر عن أحاسيسها الحارة قبل أن تخضع لتنسيق المنطق والكلام المنطوق^(٢).

وفى رواية « الوليمة » عشرات من النماذج للخطاب غير المباشر الحر : كالنص التالى :

« كان الموت مؤجلاً الآن .. وبدا هاجس مهيار فى تلك اللحظة عن اقتراب الليل والانسحاب تحت أجنحته ، يخرج من حلم الاستحالة إلى حقل الإمكان رغم صرخات الألم التى يصدرها جبار المبتور الكف موالئاً ضراعاته : اقتلونى .. اقتلونى ... » .

(١) « الوليمة » (٥٧٧) .

(٢) انظر هذه الأنواع مفصلة فى دراسة الدكتور أنطوان طعمة : « السيميولوجيا والأدب »

(٢٠٧ - ٢٣٤) . مجلة عالم الفكر ، المجلد ٢٤ - العدد ٣ - يناير / مارس ١٩٩٦ م .

فهنا يختلط .. بل يتلبس صوت الراوى بصوت الشخصية وهى هنا مهيار
الباهلى .. والقارئ يقف بين احتمالين : الراوى يتعمق الشخصية ويكشف عن
أعماقها ، والشخصية تطرح ذاتها ، وتبين عن آلامها وهمومها .
وهذه الألوان الأخيرة أيضًا يعيها الطول والتمطط مما يفقده بعض قدراته
الكاشفة .. زيادة على الملل الذى يبعثه فى نفس المتلقى .
ونلاحظ كذلك أنه بفلسفته وتعمقه وصوفيته أحيانًا يكون أكبر من « آماذ »
الشخصية ، وأرقى بكثير من أبعادها النفسية والعقلية .

* * *

خامسًا : السرد

السرد هو عملية « قص » الأحداث ، أو عرض الحكاية بأحداثها وشخصياتها وكل عناصرها بطريقة فنية معينة .. وللسرد طريقتان مشهورتان :

الأولى : طريقة السرد الذاتى .

والثانية : طريقة السرد الغيبى أو الغيرى .

والطريقة الأولى : يستخدم فيها المؤلف ضمير المتكلم « أنا » ، كما نرى فى الترجمة الذاتية .. ومن أهم عيوب هذه الطريقة أنها « تجعل القارئ يعتقد - فى كثير من الأحيان - أن هذه القصة المروية ليست إلا تجربة ذاتية لمؤلفها ، وأن أحداثها قد وقعت له فعلاً .. وخاصة إذا نجح المؤلف فى إيهام القارئ بواقعتها »^(١).

أما الطريقة الثانية : فتعتمد على استعمال ضمير الغائب ، وهو أشهر الضمائر وأشيعها عند السُّرّاد ، وأيسرها استقبالاً لدى المتلقين ، وأدناها إلى الفهم لدى القراء ، ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة من أهمها :

١ - أنه وسيلة صالحة لأن يتوارى وراءها « السارد » ، فيمرر ما يشاء من أفكار ، وأيديولوجيات ، وتعليمات ، وتوجيهات وآراء ، دون أن يبدو تدخله صارخاً ، ولا مباشراً .

٢ - يجنب اصطناع ضمير الغائب الكاتب السقوط فى فخ « الأنا » الذى قد يجر إلى سوء فهم العمل السردى ، وأنه ألصق بالسيرة الذاتية منه بالرواية الخالصة^(٢).

* * *

ويتميز السرد عن الوصف بأن الأول يعنى حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب

(١) الدكتور عزيزة مريدن « القصة والرواية » (٤٥) .

(٢) انظر : (عبد الملك مرتاض : فى نظرية الرواية ١٧٧ - ١٨١) .

ينتهى إلى غرض مقصود .. بينما الثانى يصور المشاهد والمشاعر^(١)، ومن ثمَّ يكون للسرد ارتباطاته ودلالته الزمانية .. أما الوصف فلا يملك هذه الارتباطات والدلالات بشكل ذاتى أصلى .. وإن اكتسبها بوجوده فى بنية السرد . « فالسرد - كما يقول تودوروف - يعمل داخل التابع الزمنى لخطابه على إعادة السيرورة الزمنية للأحداث كذلك .. بينما يبدو الوصف ملزماً فى نطاق العنصر المتتابع بتعديل عرض الأشياء المتزامنة والمتجاورة فى المكان »^(٢).

وحتى يدرك القارئ الفارق بينهما أقدم النصين الآتين : (وهما متتاليان لا فاصل بينهما فى الرواية) :

١ - بيد أن الصوت الذى يرج البيت كالإعصار يسمع لأول مرة صوت رجل يأمر وينهى ويحتد ، أمر ما فى البيت لا يرضيه .. يتوقف الدرس برهة .. تتراجع آسيا ناهضة عن كرسيها ، وتخرج من الصالة (سرد) .

٢ - على الجدار لوحة زيتية لرصيف بحر .. فى منعطف الرصيف رسمت نخلة .. رسم ابتدائي .. اللوحة زرقاء .. والبحر هادئ بلا زبد^(٣) . (وصف) .
وإذا كان الوصف المعروض يَرِدُ - فى الغالب - عارياً من العنصر الزمانى فيجب ألا ننسى أنه يكتسب بالإيحاء الطوابع الزمانية من موقعه فى السرد القبلى والبعدى بطريقة غير مباشرة ، كما أنه يمثل صوت التنويع الذى يجب أن يكون متوافراً فى الرواية ، بجانب القص والحوار والشخصيات وغيرها .. مع ملاحظة أن إطالة الوصف وتمطيظه يعطل مسيرة التدفق السردى ، ويقترّب بهذا النهج من أسلوب التقريرات .

وفد أشرنا إلى أن الكاتب قد استخدم ضمير الغائب (هو) فى السرد القصصى ، وغلب عليه توظيف الفعل الماضى ، كما أنه أكثر من استخدام المضارع والمستقبل ، وصهر الموانع بين الأزمنة الثلاثة ، فتداخلت كثيراً فى تضاعيف الرواية ، وقد يعلل هذا التداخل بأنه يهدف إلى الإيحاء بتشابك النكبات ، وتشابيحها وتمائلها النهجى والقهرى من ناحية ، وشدة الشعور بوطأتها من ناحية

(١) أحمد الشايب « الأسلوب » (١٠٨) . (٢) « طرائق تحليل السرد الأدبى » (٧٨) .

(٣) « الوليمة » (١٠٩) .

أخرى .. ولكن الإفراط في استخدام الصيغة المستقبلية يلغى - أو على الأقل - يضعف طابع التشويق بتقديم « المجهول » مسبقاً مما يشكك في اقتناع القارئ به ، وتطلعه إلى تلمس الوقائع في مظانها ، ومكانها الطبعى من السياق الروائى ، وخصوصاً إذا كان الحدث المستقبلى يمثل خطأ أو ملمحاً موضوعياً له قيمته .. ومن هذه المستقبليات :

١ - وعندما سيخلفون غياض البردى ، ويواجهون قامات القصب الغليظة التى تبدو لهم كجدار من الثلج يسد الأفق ، سيسأل الباهلى ...^(١).

٢ - بعد عشرين عاماً .. وفى شوارع وأمسيات المدن التى ستطوى مهيار الباهلى بحثاً عن بؤرة حياته الضائعة ، وثورته التى يحلم بها ، سيتذكر تلك الصورة السحرية الغريبة للمدى الأبيض ...^(٢).

٣ - ستهبط على مهيار الباهلى فيما بعد موجة من الندم المرير لأنه لم يخالف أوامر الرفيق ظافر ...^(٣).

٤ - ستقول آسيا لمار ، وهما تعومان باتجاه الشاليه التى استأجرها يزيد ولد الحاج : الجزائرى ضائع^(٤).

فالمستقبلية هنا غير مقنعة ، ولم تحقق وظيفة فنية أو فكرية .. ولكنها تحقق أثرها أو آثارها العكسية التى ذكرتها آنفاً .. وهذا التقييم الأخير ليس على إطلاقه .. لأن توظيف المستقبلية مستساغ فى مجال الطروحات النفسية ، وخصوصاً فى مجال الحوار الداخلى « المونولوج » .

* * *

يتعامل السرد الروائى مع الوقائع والأحداث تعاملاً آنياً مباشراً بالمواجهة والتحليل والتفاعل تأثراً وتأثيراً .. ولكنه يوظف آليات أخرى على نطاق واسع أهمها : الاسترجاع الفنى (Flash Back) . وهو يعنى الرجوع أثناء التسلسل

(٢) « الوليمة » الصفحة نفسها .

(٤) « الوليمة » (٥٤٤) .

(١) « الوليمة » (٣٥٩) .

(٣) « الوليمة » (٣٨٩) .

الزمنى المنطقي للقصة أو المسرحية أو الفيلم إلى ذكر أحداث ماضية لإيضاح الظروف التي أحاطت بموقف من المواقف ، أو للتعليق عليه^(١) .

وهو يقترب في المفهوم - إلى درجة الترادف - من مصطلح « الذكريات Reminiscence » ، وهي استحضار صور الأحداث الماضية في الذهن^(٢) .

والآلية الثانية هي « اليوميات » Diaries ، وهي بالمفهوم الفني تمثل سجلاً قد يكون يومياً للأنشطة الشخصية ومشاعر الكاتب ، وتأملاته في الحياة .. والأصل فيه ألا يكون للنشر ، ولكن كثيراً ما ينشر المؤلف يومياته ، وخصوصاً إذا اشتملت على آراء أو وصف أحداث قد تهم الناس^(٣) .

* * *

وكان مهدي جواد هو صاحب أغلب الاسترجاعات ، وهي - في أغلبها - لمشاهد من هزيمة الأتربة .. الموت .. الجراح .. الانسحابات الخائبة .. الاعتقالات .. التعذيب .. الهدوء - وكلها ذكريات غائرة العمق في نفس جواد^(٤) .

ولا تخلو هذه المسترجعات من وطأة التحميل التاريخي التقريرى .. ولكن بعضها يتدفق بالشاعرية والإيحاء الجمالي الأسر كقوله : « .. عندما يهاجمه الحنين يريد وجهه ، كجدار محترق .. كانت تجربة الأتربة تدوم في أعماقه كدوامات الأنهار .. لقد نسيها زمناً ، وأغلق عليها برتاج فولاذي ، ثم قذف بجراحه وصور الرفاق والأخطاء والمرارات إلى أعماق البركان المنطفئ .. لكن ذلك العالم المنسي كان ينقذف في أوقات الاضطراب كما تنقذف الجزر المغمورة فجأة من أعماق المحيط^(٥) .

ولم يكن المشهد المسترجع بهذا الإسناد التاريخي دائماً .. بل تكون النقلة الذهنية إليه سريعة برقية مفاجئة تنزل في السياق دون التهيئة الكافية .. فعلى شاطئ بونة نقرأ هذا المشهد :

(١) الدكتور مجدى وهبة « معجم مصطلحات الأدب » (١٧٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق (٤٧٢) . (٣) المرجع السابق (١١٠) .

(٤) انظر : (الوليمة الصفحات : ٧٣ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٥٥٤ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩) .

(٥) « الوليمة » (٥٥٤) .

فى انهمار برقى ابتدأت خفقات غريبة فى صدر آسيا ومهدى .. الخفقة الأولى فصلتهما .. كانت هناك روائح كريهة تفتت الذرات ، وتعكر الهواء .. الخفقة الثانية صهرتهما .. إيماضات سريعة خاطفة كإيماضات هذه الأشعة فوق حقل الماء .

فى الشوارع كانت الجثث ، وعلى ضفاف دجلة .. جثث مثقوبة بالرصاص فى مؤخرة الجمجمة ، ومركز القلب . والأبواب تحطمها أقدام القتلة .. الذعر والحصار ، والقتل المجانى^(١) .

فالاسترجاع - فى أغلبه - كان لمشاهد ترتبط بالأيديولوجية الشيوعية والقتال والتضحية من أجلها فى معارك الأهوار ، وما ترتب عليها من نتائج .. وقل استرجاع مشاهد ومواقف خاصة ترتبط بالحياة الأسرية أو الشخصية كاسترجاع مهدى جواد صورة والده الشرس « سعدون جواد » ذلك السكير العريبد الذى كان يعدو على زوجته (أم مهدى) بالضرب المبرح .. لقد كان كارهاً للناس جميعاً بما فيهم امرأته الجاهلة التى قذفها بحقده الشيطاني فأذاقها العلقم لأنها لا تفهمه ، ولا تدرك مدى قدراته اللامحدودة فى الوصول إلى النجوم ، وقيادة الكرة الأرضية ، وإيقافها متى شاء^(٢) .

ويتذكر مهدى جواد كذلك تجربته مع بنت الجيران فى شبابه أو يفاعته .. تلك التجربة التى قصها على أبيه كحكاية أو جزء من حكاية طويلة خيالية . « وأنداك نهره أبوه لأنه أفسد الحكاية برؤى رديئة ومنحطة ، لا تليق بقوم أتقياء يخشون الله^(٣) .

* * *

والرواية مطعمة على امتدادها السردى « باليوميات » التى اختص بها مهدى جواد دون غيره من شخصيات الرواية ، وقد وصفها واحد من الذين كتبوا عن

(٢) « الوليمة » (٢١٧) .

(١) « الوليمة » (٦٣٧ ، ٦٣٨) .

(٣) « الوليمة » (٥٧٣) .

الرواية بأنها « تولت ضبط الإيقاع العميق لفضاء الرواية المرتج بتفاصيل اليومى ، وبأصداء التاريخ ، وتحليقات الشعر والأسطورة »^(١) .

وهو توصيف أقرب إلى الشاعرية منه إلى التحديد النقدي ، كما أنه أقرب إلى التقريظ منه إلى النقد .. والنظر المحايد لهذه اليوميات يقودنا إلى تسجيل الملاحظات الآتية :

١ - قلة هذه اليوميات التى لا تتجاوز مساحتها خمس عشرة صفحة فى تضاعيف الرواية ذات السبعمئة صفحة .

٢ - من الناحية الموضوعية نجدها موزعة منهجيًا على أنواع ثلاثة هى :

(أ) يومية الخاص أو الشخصى الخالص الذى لا يتسع لقضية أو مسألة عامة على المستوى الوطنى أو القومى أو الأيديولوجى ، كاليومية الآتية (وهى أقصر اليوميات على الإطلاق) :

سما سحيفة بلا نجوم .. أرض مجللة بالعتم أرض الوحل والدم .. آسيا نجم يهدى فى هذه البرهة المفلتة من زوغان وسقوط الشهب .. سأسند رأسى المتعب إلى بازلت هذه الصخرة الناهضة على مداخل البحر بانتظار السفن .. لاشيء مضىء الآن للرجل المخدول سوى هذه النجمة^(٢) .

(ب) يومية الخاص - العام : وفيها ينطلق مهدى جواد بعد الحديث عن موقف أو تجربة خاصة إلى قضية أو قيمة قومية أو إنسانية عامة ، كما تبين السطور الآتية التى نقتطفها من إحدى هذه اليوميات :

« هنا لأحسن التفكير كما ينبغى .. اختلاط غريب فى الأشياء . يبدو أننى أعيش حالة عوم فوق سطح المدينة ... » .

وبعد استيفاء عرض حالته ، يتحدث عن الحرية « أن تكون حرًا .. ليس هذا كافيًا للسير فوق خط مستقيم .. إن حقوق الآخرين تبدو منكسرة أو منحنية .. والمنفى هو السير على خط آخر للحفاظ على التوازن .. لماذا هذه الغربة اللعينة فى خضاب الدم^(٣) ؟

(١) محمد برادة « التاريخ الحديث لهزيمة الحب والثورة » (أخبار الأدب ٥/٧/٢٠٠٠) .

(٢) « الوليمة » (٥٤٧) . (٣) « الوليمة » (٤٣) .

(ج) يومية العام الخالص ، فهي موضوعية خالصة لا تعرج على أية فرعية ذاتية .. وإن كان العام يعتبر خلاصة التجارب والمعاناة الشخصية .. ومثال هذا النوع يومية تطرح مفهوم السعادة ، وتراها فى الخروج من كهف العزلة إلى الأشعة والضوء .. إلى حياة حقيقية تتحقق بين رجل وامرأة يتحدثان لمجابهة قسوة العالم...^(١).

ولعله بذلك قد حسم الأمر الذى طرحه فى سؤال ضمنه يومية سابقة مؤداه : هل باستطاعة الحب أن يتجاوز الحالة ؟ وهل تأسيس حالة حب على نحو صحي ضد عالم النفى اللاعقلانى ينقذ العالم والنفس ؟ ليكن السؤال هكذا : الإنسان أولاً .. أم المجتمع ؟ وهل بالإمكان بناء عالم جديد بإنسان قديم^(٢).

٣ - وأسلوب اليوميات مزيج من الشاعرية والصوفية والتحليق .. وفيه تأمل واستبطان ، وقد تجنب ما وقع فيه الحوار والسرد من ألفاظ الجنس الساقطة ، فهو فى مجموعته يجنح نحو السمو والجلال والتكثيف .. وإن لم يخل من بعض التهويل .

٤ - جاءت هذه اليوميات ختاماً لمشاهد ومواقف لا اختتاماً لفصول .. والمفروض أن ترتبط كل يومية ارتباطاً عضوياً بالمشهد السابق لها .. أى يجب أن يكون فيها من المضمون الفكرى ، والبعد النفسى ما يجعلها « أليق » اليوميات بهذا المشهد تحقيقاً للتوافق الفكرى والجمالى فى السرد الروائى .. ولكنها كانت فاقدة « للخصوصية » المميزة ، وهذا النقص ، أو هذا الفقد - يكسبها صفة الصلاحية لتبادل المواقع دون إخلال بالسياقة السردية ، فكراً أو فناً .. وهذه مشكلة حيدر حتى فى الحوار .. وأعتقد أنه كتب هذه اليوميات منفصلة عن بنية الرواية ، ثم أحل كلاً منها الموضوع الذى هى عليه الآن .

* * *

(٢) « الوليمة » (٧٢) .

(١) انظر : (الوليمة ١٤٥) .

سادسًا : اللغة ومعجم الهبوط

قوام كل عمل أدبي هو مطابقة قيمه التعبيرية لقيمه الشعورية ، ومناسبة استخدام الأداة لطبيعة العمل الذى تستخدم فيه واتجاهه .. والقصة تهدف إلى تصوير الحياة فى محيطها الطبيعى ، وفى هذا المحيط تختلف الأجواء والحالات الشعورية .. ومن هذه الاعتبارات كلها يخلص لنا أن لغة القصة ينبغي أن تكون لغة نثرية - لاشعرية^(١) - إلا فى اللحظات الخاصة التى يفيض فيها الشعور ، ويرتفع ويتوهج ، أو يراد وضع إطار من وصف الطبيعة أو سواها تعيش فى داخله لحظات حاملة مشرقة ، أو كثيفة آسية فى سياق القصة .. وكلما عبر كل شخص فيها بلغته حسب مستواه فيها ووضعها كان ذلك أكمل .. لأنه يساعد على نسياننا للمؤلف ، وشعورنا بأن الحياة تجرى طبيعية أمامنا دون أن يعترضها تنسيقه المفتعل^(٢).

وقد تحدثنا من قبل عن لغة الحوار فى الرواية ، وسجلنا ما عليها من مآخذ ، وقد تشترك مع لغة السرد فى الطابع الرومانسى المخلق اعتمادًا على الخيال المركب الذى لا يسلم من الغلو والإسراف .

بيد أن الذى يشد النظر - كما ذكرنا من قبل - إغراق الكاتب فى توظيف عبارات وألفاظ جنسية ولا أخلاقية هابطة ، وكذلك كلمات تسيء إلى الدين والعقيدة . مما يكفى لصنع معجم لغوى مستقل .. وقد تعمدنا عرض محتويات هذا المعجم .. بادئين - حرصًا على رعاية أمانة البحث - بالعبارات التى دافع بها المؤيدون للرواية عن المؤلف وروايته .. وقد تعمدت عرض العبارات والكلمات فى نصوصها حتى لا يخل عزلها معناها والمقصود منها .

* * *

(١) يقصد الكاتب بالنثرية العربية الفصحى المرسلة ، والشعرية اللغة المحلفة المتدفقة بالجمال فكأنها شعر .

(٢) سيد قطب « النقد الأدبى » (٨٢) .

قطرات عذبة في بحر الظلمات

قالت آسيا عن المستعمرين الفرنسيين :

« غرسوا في ذاكرتنا أن المسلمين والعرب كانوا غزاة وفاتحين ، استعمروا أسبانيا وصقلية ، ووصلوا إلى بواتيه .. كانوا يؤكدون لنا أن القرآن مأخوذ عن الإنجيل والتوراة ، واللغة العربية لغة دين وشعر لا لغة علم .. وهذا سبب تخلف العرب في العلوم والحضارة الحديثة » .

ويرد عليها مهدي جواد بقوله : هذا طبيعي إنهم منطقيون ومنسجمون مع غاياتهم .. الاستعمار في النهاية ليس العنف فقط .. إنما التزوير والاستلاب والقطيعة مع الأنا الجماعي . (ص ٦٢) .

* * *

ويوصي أبوها المجاهد الجزائري الشهيد زوجته قبل استشهاده « لا وصية لي عندك غير الدراري - أولاده - ربيهم تربية تليق بنا كمسلمين .. نحن نقاتل حتى لا يلوث الاستعمار شرفنا ، بيت الإنسان شرفه .. ومن لا يحافظ على بيته لا يحافظ على وطنه . (ص ٦٥)

* * *

ويقول الكومندان طاهر : « انظري يا فلة إلى هؤلاء الجياع والحفاة والمقملين كيف يقدمون كل شيء .. كل شيء يا فلة : الطعام .. واللباس .. والمأوى .. والحيوانات .. والدم .. هؤلاء البحر ، ونحن السمك .. الآن نحن بينهم كما كان رسولنا محمد ﷺ مع المهاجرين بين الأنصار في المدينة .. المستقبل لا بد أن يكون لهم بعد تحرير البلاد من طاغوت فرنسا . (ص ٨٤ ، ٨٥) .

* * *

وجاء على لسان إحدى الشخصيات :

« إن ما ينقصنا في هذا الوقت الرخو والمسيب هو إيمان وبسالة الصحابة الأوائل ، بمثل هؤلاء يقدر الزناد في الحجر البارد ، وتسطع الشمس من جديد » .
(ص ٨٨) .

* * *

عندما هبط ثوار حرب التحرير من الجبال المصبوغة بالدم كانوا يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى .. فكل مجاهد علق على صدره قرآنًا عربيًا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبي : الشيطان الذي أكل الزرع والحليب ، وعناقيد العنب ، والبرتقال ، واغتصب البيوت الجميلة والنساء الجميلات ، والشواطئ الجميلة . (ص ٥٠٣)

ونلاحظ على هذه النصوص ما يأتي :

١ - أننا نقدمها - بعد أن استلناها من مواضعها في الرواية - على سبيل الحصر .. فليس في الرواية التي بلغت صفحاتها سبعمائة صفحة نص آخر يدور في فلكها ، مما يؤكد عدم صحة ما جاء في تقرير اللجنة الخماسية بأن الرواية فيها « عشرات العبارات والمشاهد التي تحمل روح الاحترام والتقدير للدين » ^(١) .

كما تؤكد التهويل الذي لجأ إليه التقرير حين قال بالحرف الواحد :

« والقراءة الكاملة للنص الروائي تشهد بورود عشرات العبارات الأخرى التي تعلو من شأن التجربة الدينية التي أدت إلى انتصار ثورة الجزائر ، وتؤكد شعور التقديس المهيمن على بقية الشخصيات تجاه القرآن الكريم ، واحترام التربية الإسلامية ، والتنديد بالاستعمار الأجنبي » ^(٢) .

(١) من تقرير اللجنة التي شكلت بالقرار رقم ٥٤ لسنة ٢٠٠٠ الصادر من الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ، والمشكلة من الدكتور عبد القادر القط والدكتور صلاح فضل وآخرين .
انظر : (ص ١٥ من العدد ٣٥٧ - ٢٠٠٠/٥/١٤ من أخبار الأدب) .

(٢) انظر : المرجع السابق (١٤) . بعد نشر تقرير اللجنة بأسبوع واحد نشر الدكتور صلاح فضل مقالاً باسمه يكاد يكون صورة طبق الأصل من تقرير اللجنة مع تغييرات طفيفة جداً ، مما يقطع =

ولم تورد اللجنة فى تقريرها إلا نصين وهما ضمن النصوص الخمسة التى قدمتها قاصداً ذلك قصداً حرصاً على عدالة التقييم اعتماداً على استقراء شامل .

٢ - أن النصوص التى قدمناها - وتكاد تكون كلها حوارية - تلتقى على فكرة محورية واحدة وهى الاعتزاز بالمرجعية الدينية : مبادئ وقيماً ورجالاً .. وذلك فى شكل عام يخلو من التفردية والخصوصية والتنوع .

٣ - سنرى أن هذه المعطيات القولية تفقد مكانها ، وتنطمس أمام فيوض من المقولات والمسروقات الناقضة التى تلطم الذوق والخلق ، وتسئ إساءات بالغة إلى العرب ، وتستتهين بالذات الإلهية والقرآن والنبي ﷺ إلى درجة الإلحاد والانسلاخ من الدين الحنيف .

* * *

= بأن كاتب التقرير المنسوب إلى اللجنة الرسمية هو الدكتور صلاح نفسه . ولكن الشيء الغريب - بل المذهل حقاً - أن يعدل الدكتور صلاح عدد « العشرات » إلى « الآلاف » فكتب فى مقاله « والقراءة الكاملة للنص الروائى تشهد بورود آلاف العبارات الأخرى التى تعلو من شأن التجربة الدينية ... » . فهل تصدق ما كتبه الدكتور فى التقرير . أم ما كتبه فى مقاله (ص ٣٤) من أخبار الأدب : العدد ٣٥٨ - ٢١/٥/٢٠٠٠ ؟

كلمات وتراكيب شعبية

جاء على لسان آسيا الخضراء :

« فى اليوم الأول يتعرف العربى على امرأة .. وفى اليوم الثانى يرغبها فى سريره .. وفى اليوم الثالث تتحول إلى عاهرة فى قاموسه الجنسى .. هذا كريبه .. ليس كريبها .. بل مقزز !! (ص ٧٠)

* * *

وعلى لسان مهدي جواد :

« فى العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد العرب لا يوجد غير النهب والقتل والأكاذيب ، الحكام العرب حلاليف وطغاة ، وأعداء لشعوبهم » . (ص ١٥٣)

* * *

وتقول فلة بوغراب :

« وفى أزمنة غبرت : جاءوا إلى هنا .. فلسطينيون ، مصريون ، وسوريون ، وعراقيون ، تركوا بصماتهم على خريطة الجسد ، ومضوا » . (ص ٢٠٤)

* * *

وعلى لسانها جاء :

« رشيد الفلسطينى مزق سروالى ، ونام معى أربع مرات فى ليلة واحدة .. مرسى المصرى بعد أن يشرب النبيذ والحشيش كان يتحول إلى منشد شعبى ، وهو أيضًا يضاجعنى حتى الصباح .. ذو النون العراقى كان يبكى بين فخذى وهو يهذى بالشعر ... » . (ص ٢٠٦) .

* * *

راح الاستعمار الرومى .. وها هو الاستعمار العربى ينك فىنا . (٥٠٦) .

* * *

كان المطعم خصوصيًا .. وأنيقًا .. محرمًا على الرعاع العرب . (٥١٢) .

* * *

ماذا هناك على تلك الشواطئ المهجورة والتى لا يرتادها إلا المراهقون والعاشون
والمبذرون .. ماء وشمس ورمل وضياع وقت .. هكذا العرب يبددون أوقاتهم فى
الأمور التافهة والخامجة . (ص ٥٣٥) .

* * *

العرب ينغلقون كالسلاحف . (٥٤٢) .

* * *

العرب ليسوا شيئًا فى حساب العالم . (٥٤٣) .

* * *

وكانت منار - بنت لا لا فضيلة - تسمى بلاد العرب : حظيرة الخنازير .
(ص ٦٢٧) .

* * *

حينما كانت آسيا تحتدم : لماذا يكون الفرنسى من جنس الملائكة ، والعربى
من جنس الشياطين ؟ كانت منار - شقيقتها - ترد بثقة : لأن الأمور هكذا فى
الواقع .. ألا ترين الجزائريين الحلاليف كيف يفكرون ويعيشون ؟ العرب كلهم
خماج رءوسهم بين أفخاذهم . (ص ٦٢٨) .

* * *

... العرب الذين جاءوا الجزائر طلبًا للدراهم والسيارات والنساء .. المصريون

البخلاء الذين يعيشون على الفول يجمعون الدينار فوق الدينار ليشتروا السيارات ..
والعراقيون والسوريون الذين يشبهون الجزائريين في حب النساء والخمر والغضب
وتبديد الأموال . (ص ٦٤٣) .

* * *

« ... إني حريص جدًا على مداخل ومخارج الشرف العربى » .
نخر مهيار : لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى .
وأتم مهدى : ما لم يراق على طيوزهم الدّم . (ص ٦٥٣) .

* * *

كان جمهور الشارع والمقهى القائم فى الطابق الأول يتربّأ أمام البناية مفاجأة
فضيحة الشرقيين الذين قدموا من أقاصى بلادهم لهتك الأعراض ، وتفريغ الشهوة
بدلاً عن تربية الأجيال الصاعدة . (٦٦١) .

* * *

وتجاه هذه النصوص .. وهناك فى الرواية كثير غيرها يدور فى فلكها يعنّ لنا
الملاحظات الآتية :

١ - أنها جاءت على ألسنة شخصيات متعددة .. وبعضها جاء فى سياق
السرد الروائى .

٢ - أنها تتميز بروح شعبية تعصبية فادحة ، حتى لو بررها الناطقون بها
بالحرص على مصلحة الوطن : الجزائر . وهم يقصدون بالعرب هنا : المشاركة دون
غيرهم .

٣ - قائمة الاتهام فى هذه النصوص تصمهم بالمثالب الآتية :

(أ) النهم الجنسى .

(ب) السكر والعريضة .

(ج) إهدار الوقت ، والاستهانة بقيمته .

(د) الغباء والانغلاق .

(هـ) النهم المادى الذى يدفعهم إلى النهب والقتل والأكاذيب .

(و) ضياع المكانة العالمية .

* * *

٤ - وهذه النظرة الشعبوية الحمقاء التى انتشرت فى تضاعيف الرواية - حوارًا وسردًا - هذه النظرة للعرب ، وبهذه التعبيرات الساقطة تعد بعثًا وتجديدًا للنظرة الصهيونية للعربى بصفة عامة ، والفلسطينى بصفة خاصة ، والتى تبناها الأدب الصهيونى شعراً ونثرًا .. فبعد تنفيذ وعد بلفور وظهور الفلسطينى المقاتل من أجل حقوقه المشروعة وصف فى أدبيات الصهاينة بأنه إرهابى .. وجبان .. ومتوحش .. ومثير للرهبة ... وأنه لا يقوم بعملياته العدوانية إلا فى الليل . أما النهار فإنه يرتدى فيه لباس المسكنة والضعف . يقول « أحادهام » : إن المستوطنين الصهاينة يعتقدون أن العرب جميعًا متوحشون ، يعيشون مثل الحيوانات ، ولا يفهمون ما يدور من حولهم »^(١).

ويقول « ج . كوهين » : « إن العربى مجرد مخلوق غريب يرتدى جلبابًا مرقًا ، وغطاء قذرًا للرأس ، وتلتف زوجته بثوب أبيض ، ويسير أطفاله حفاة .. إنه ليس قذرًا فحسب .. بل هو أيضًا لص وكذوب وكسول وعدوانى !!
ويقول « عاموس عوز » فى قصة « البدو الرحل والثعبان » : « ... إنهم يسرقون ثمار الفاكهة غير الناضجة التى فى البساتين ، ويفتحون الحنفيات ، ويسرقون حظائر الدجاج ، وينتفون ريش الطيور » !!

ويصف « س يزهار » القرى العربية فى قصته « خربة جزعة » : « ... العرب القذرون المتسللون لإحياء نفوسهم القاحلة فى قراهم المهجورة ... أى دخل لنا ولشبابنا وأيامنا الغابرة بقراهم المقملة والميقة والمقفرة والخائقة .. هذه القرى الخاوية سيأتى اليوم الذى تبدأ فيه الصراخ »^(٢).

(١) انظر : (الدكتور محمود حميدة : الشخصية العربية فى القصة العربية القصيرة المعاصرة ٩٨) .

بحث منشور فى مجلة عالم الفكر الكويتية - مجلد ٢٤ - العدد ٣ - يناير ١٩٩٦ .

(٢) انظر : (حميدة : السابق ٩٨ ، ١٢٣) .

ومن حقنا أن نسأل : هذه النصوص التي جاءت على ألسنة « شخصيات
خيالية أو مخترعة » أو في تضاعيف السرد ، ألا تعكس « مذهبية » المبدع
الصهيوني ؟

ثم هل تختلف مضامين هذه النصوص عما عرضنا بعض نماذجه من رواية
حيدر « وليمة لأعشاب البحر » ؟
أعتقد أن الإجابة واضحة ... واضحة جدًا .

* * *

بلا خلق فى مستنقع الجنس

بغض النظر عن الدين والعقيدة .. وبغض النظر عن الانتماء الوطنى أو القومى .. وبغض النظر عن الاتفاق الأيديولوجى أو الاختلاف فيه .. يبقى ما يمكن أن نسميه « الحد الأدنى المشترك من الذوق » ، وهو الباعث الذى يحرك « جوانية » الإنسان قبولاً واستساغة أو رفضاً وإباء .. أى يحدد موقفه تجاه ما نسميه « بالقبيح » ، ويكون رفض هذا القبيح مسلمة من المسلمات إذا لم يكن هناك ضرورة فنية تقتضى توظيفه فى سياقة العمل الأدبى ، ويكون هذا العمل فى غناء عنه .. بل يكون فى صورة أنقى وأبهى إذا رفضه وتخطاه .

والرواية الحيدرية غاصة - أقول : غاصة - بكثير جدًّا من « الإفرازات » التى تنحر الذوق ، وتطعن الخلق ، وتلطم الحياء والآداب والنظام العام ، ويتمثل ذلك فى مواقف ومشاهد وألفاظ وعبارات ، كما نرى فى الأمثلة الآتية :

* * *

- المشهد الطويل الذى يتلخص فى أن جنود الاحتلال الفرنسى داهموا بيت « لا لا فضيلة » بحثًا عن أعلام جبهة التحرير ورجالها ، وضعت الجدة الأعلام تحت عجيزتها ، وأغرقتها بؤلاً .. وتقول « لا لا فضيلة » : « .. أليس هذا أفضل من مصادرتها : إنها تجف فى الريح والشمس إذ يرفعها المجاهدون على الجبل مبلولة ، أو غير مبلولة . (ص ٤٢٠) .

(هل يستسيغ الذوق تصور « الجهاد » تحت راية « مضمخة » ببول العجوز ؟) .

* * *

وعن « فلة بوعناب » - إحدى بطلات الرواية « ... هى الآن تعتنق جسدها المتفتح ، يحاول (مهيار الباهلى) محاورتها حول العضوية ، وانتهاكات الوطن

المجرح ، فتمد لسانها مقتًا ثم تخرج من مؤخرتها ريحًا ذات رنين .. تضحك عاليًا
بلا أمبالية ممزوجة بريح كريهة . (ص ٤٦٠) .

* * *

وصرخت فلة : « كلهم تخرجوا من مدرسة العنابية ، ومروا تحت قوس
فخذيها » . بهدوء تناولت قلم مهيار الملقى على البساط ، وقالت : عليك إن كنت
رجلاً أن ترى وتتماسك ... بدأت فلة بوعنانب العارية تمارس بالقلم شهوتها ،
وتتأوه . كانت جالسة على البساط ، فارجة ساقها ، بينما قلم الباهلى يهتز ويحتك
بحواف فرجها ويظهرها ، وهى تنن وتهذى . (ص ٢٠٧) .

* * *

فلة تأخذ جرعة نبيذ من كأسها : اللبوة تبحث عن لبثها . نحن الأفريقيات
ننتشى بالقوة .. هنا المرأة لا تخون إلا الرجل الذى لا يروى أرضه جيدًا .. ها . ها .
مع ضحكاتها الفاسفة تمد يدا تحت المائدة . وتجس ما بين فخذى مهدى ،
يتصاعد الدم .

وإذا تأودت فلة وهذلت شفثيها ، ثم فتحت ساقها ، تحت المائدة انتعظ
اللعين خارقًا قماش الشرف والحضرة المتزنة .. هيا : اهدأ أيها الأرقط الذى
لا يستحي . (ص ٥٨) .

* * *

كان هناك فى مكان حساس من الجسد شفرة مرهفة تحز على مهل الجلد
واللحم والعظم ، والدم يصعد ، يتنهد ويشهق ، وهو يضغط حديد النافذة ، والريح
تواصل دفقاتها على شكل موجات ساحرة وحريرية ، لكنها كالمدية ، وهى تغفل
إلى الأعماق . (٢٣٥) .

* * *

عينها المتوهجتان بالرغبة بدتا آسيتين ، وهما على حافة استجداء . المنطقة

المنحسرة من أعلى الركبتين حتى المنحدر المغطى تلوح صلبة ولامعة تحت ضوء
ما بعد الظهيرة . (١٧٩) .

* * *

عندما استلقت على ظهرها فوق السرير بقيت ساقاها سائبتين على الأرض .
حافة ثوبها التي انحسرت توازت مع حافة الحوض . هناك التمتع عريها . (ص ١٨٠) .

* * *

قالت آسيا (حبيبة مهدي جواد وتلميذته) : انظر إلى أنوفهم وأصابعهم
وذقونهم المهذلة كقضبان عاجزة عن الجنس !! (ص ٥١٩)

* * *

تدخلت فلة قائلة بأنها تعرف كوميسار الشرطة ، ويمكن أن تشرح له الأمر
بكل ملابساته ليحميمها ، وسألها المهدي غامزا : صديق أضي ، أضي ؟ قولي
الحق يا فلة .

ابتسمت : نعم يا أستاذ ، من النوع السري . (ص ٥٨٤) .

* * *

آسيا تقرص بأصابع قدميها العاريتين قدمه ، تمد تحت الطاولة كفها اليسرى ،
وتضغط على الفخذ . (ص ٦٣٠) .

* * *

وعلى شاطئ بونة : إذ يعبران (مهدي وآسيا) تعلو الهمسات .
- هاشوف أخويا شوف ، لبوة بونية مع ذئب شرقي .
- بالسلامة . عضو الغريب حلو . وحق ربي كيما العسل الجزائري .

* * *

- خير الجزائر ينهبه الغرباء ...
- عنابية خاينة .. عشها مباح .. أى طائر غريب يضع فيه بيوضه .
- واش . واش . قضيب الجزائري كما الحديد السخون . (٥٠٦) .

* * *

رأى (المناضل الشيوعى مهيار الباهلى) فرجها يبكى ثم يضحك ثم يغنى ،
ثم يصرخ باللذة ، أما هو فبكى شوقاً إلى أرض بعيدة كالنجم . (٢١٨) .

* * *

تقول فلة بوعناب : « نحن عنيدات كالحيوانات ، إنما الوفاء مسألة فيها نظر .
قد تقول : الدم ، أما أنا فأقول جرثومة الشهوة التى تنغل وفاء صادق للطبيعة .
(ص ٣٢٣) .

* * *

غير أن فلة بوعناب تتوهم أنها مسكونة بمواهب أخرى غير موهبة فتح
ساقها .. تقول : هم قتلوا مواهبي الأخرى ، وركزوا على موهبة التأوه والصراخ
الجنسى .. أليس هذا هو الاستعمار الحقيقى ؟ . (ص ٢٥١) .

* * *

وهى تجس بأناملها كتلة ثدييها ، تجس ضمورهما .. تعصرهما لينموا فى
خطفة وهم ، ثم تمد أصابعها العطرة تحت سروالها وتضغط . (ص ٢٠٢) .

* * *

... فتنزوى بعيداً عن العالم الكبير فى حى جانبى من أقصى بلاد الشرق
الجزائرى ، تصطاد هؤلاء المشاركة الأوباش ، فتربيهم فى قفص بيتها ، ثم تطعمهم
من طهر يديها ، وما يدره ثدياها وفرجها من المرن والسلوى فى أماسى بونة
المستوحشة (ص ٢٨٣) .

* * *

وأكرر اعتذارى للقارى إذ عرضت عليه شيئاً من الإفراز الحيدرى المنكود ،
وأكرر اعتذارى ، وأنا أقدم - مضطرا - شيئاً من المعجم اللفظى للرواية الحيدرية .
الرواية مسكونة - فى أغلب صفحاتها - بألفاظ البذاء والجنس الساقط ،
وكلمات المراحيض ، وأعضاء الإنسان الداخلية بأسمائها السوقية المرفوضة مضافة
إلى « الأم » أو « الأب » وغيرهما . وإلى القارئ بعض العينات أقدمها - معتذراً -
على استحياء :

- تشبيه الآخرين بالشامبانزى والخنزير . (ص ١٤) .
- والخلوف : يا خلوف تعال / (ص ١٣) - الحاج محمد ذلك الخلوف
(ص ٦٤) - والخلوف ولد الخلوف (ص ٦٥) - يا خلوفة أنت محترقة .
(ص ١٤٢)^(١) .
- والقحبة : فى عشرات من المواضع منها : ولد القحبة (١٠٤) ، ابن
القحبة ، ولد القحبة (١٣٤) - ولد القحبة يزى يزى (ص ١٩٧) من أبناء
القحبة والخنزير . (٣٥١) - جحافل ولاد القحبة . (ص ٣٩٢) عقيل أخو
القحبة . (ص ٤٠٠)^(٢) .
- الجهاز التناسلى للمرأة فى مقام الدم والسب غالباً :
يقول ذلك فتنتطلق الشتائم احتجاجاً نحو فروج الأمهات ، والأخوات
(ص ١٩٠) - ليعوض حياته داخل فروجهن المقروحة . (ص ٤٧٠) .
- السوأة ، معبراً عنها باسمها العامى المقزز المكون من حروف (الطاء -
الياء - الزاى) ، وذلك فى مجال الدم والسب غالباً : فليس لهن سوى فتح
الفخذين : يا الحلايف ، (ط ..) أمكم . تفوه (ص ١٢٧) - دعنا من السياسة
(ط ..) أم العالم . (ص ٢١٥) . ليس ضرورياً (ط ..) أمهم ، خليهم يولوا .
(ص ٥١٥) .. (ط ..) أمهم . (ط ..) أم الحرب . (ص ٥٤٦) - خنزير ،
بل هاتك أعراض .. (ط ..) أمك . (ص ٦٠١) .

* * *

(١) انظر كذلك الصفحات ١٥٠ ، ٣١٠ ، ٤٢٠ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥١١ ، ٦٦٩ .

(٢) انظر كذلك الصفحات ٥٠٥ ، ٥٣٥ ، ٥٨١ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢ ، ٦٤٤ ، ٦٧١ .

- الخراء : أف ، يالللخراء أهو أنت ؟! (ص ٤٦) - زمجر أبو صبرى :
عينى حظكم خرا (ص ٣٦٣) - خرا بربك (ص ٤٠٠) - والناس كلهم خرا
بخرا فى هذا الزمن . (ص ٤٠١) - خرا بربك . دعك من الانحطاط العضوى
(ص ٥٩٢) - كل إنسان حر بروحه . أوه . يالللخراء (ص ٦٤٤) .

* * *

ويسرب كاتب الرواية كثيرا من الألفاظ الجنسية والمقززة - على سبيل الحقيقة
أو المجاز - دونما ضرورة أو مجرد حاجة فنية لذلك ، يستوى فى ذلك السرد
والحوار ، وكأنها مقصودة لذاتها ، كما نرى فى أحد المشاهد التى قدمها الكاتب
لشخصية خالد أحمد زكى أحد الأعضاء الشيوعيين البارزين : « ... بين تلك
الاختلاطات كان يرى نفسه أحيانا فى صحراء مديدة ، مرة عامرة بالماء ... وهو
يسير كمن يخطو فى الهواء مرة حافى القدمين ، ومرة بلا سترة ، تقى العورة ،
فيضطر إلى وضع كفيه فوق عانته ... » . (ص ٢٤٨) .
ومن ذلك : « ... التى ستدخل التاريخ من بوابة الإست الضيقة » .
(ص ١٧) .

ومنها : اقترحت العنابية أن تصنع القهوة خارقة هذا الاستمناء الجدلى .
(ص ٢٨٠) .

ومنها : يضحك مهدى كاسرا هذا السيلان العجيب للعنابية التى تستمنى
بهذه الهرطقات العزيزة على نفسها وجسدها . (ص ٣٢٥) .
ومنها : (فى الحديث عن المدينة والمرأة) : « ... كل منهما أعطت هامشا
ورائحة لكن مهليلهما ظلا محتفظين ببوابة الغشاء العصى على الهتك . (ص ٥٠٢)

* * *

وتجاه هذا الركام من ألفاظ الجنس والسقوط اللاأخلاقى واللاذوقى نسجل
الملاحظات الآتية :

١ - أنها لم تكن كلها داخل حدود الحوار الخارجى والداخلى ، ولكن كثيرا
منها كان منسابا ، ومتسببا فى السرد بصورة واعية .

٢ - أن أغلب هذه الألفاظ وظفت فى سياقها « الأدبى ، أو المفروض أن يكون أدبياً » بهيئة توظيفها فى نطاقها الاجتماعى على امتداد ساحات السوق والرعاع والدهماء والساقطين .

٣ - استخدام هذه العبارات أوقع الكاتب فى ورطة غير محمودة .. وهى الخلط - فى الحوار بين العامة - التى ترد بها هذه العبارات غالباً - والفصيحة ، فترتب على ذلك نوع من الخلل ، أو التناقض الفنى من ناحية الأداء التعبيرى .

٤ - ولا يدافع عن الكاتب بأنه فى هذا النهج ملتزم - فى مصداقية - بالواقعية .. لأن الواقعية فى الفن ليست رصدًا للواقع وتسجيلًا له ، وإلا لانتفى عن الإبداع طوابع الفن .. ولكنها تفاعل مع الواقع انتقاء ، وتنقية ، وصهرًا فى منظومة متسقة فكريًا وتصويرًا وتعبيرًا .

٥ - لعلماء النفس ومدارسه كلام طويل فى دلالة الإكثار من استعمال مثل هذه الكلمات ، والقوالب على الأبعاد الجوانية لشخصية المبدع ، وتفسير هذه الظاهرة وتعليلها ، وهل هى « تعويضية » عن عجز ، أو تعبيرية عن تهتك متمد ، أم عرض من أعراض النرجسية ، وهل ترجع إلى عقدة أو عقد دفينية ... إلخ ؟

ولكننا - مع إيماننا - بكثير من تخريجاتهم - لن نطيل الوقوف مع هذا المبحث ؛ لأن الخلوص منه إلى أحكام سليمة وافية شاملة يقتضينا قراءة كل ما كتب الرجل ، والتعرف الفاحص على سيرورة حياته من ناحية أخرى . وإن كان هذا التعليل لا ينقض ما أثبتناه من أحكام^(١) .

ولكن الحقيقة التى تفرض نفسها أننا أمام ذوق من الصعب - بل من المستحيل - أن يتفق مع الحد الأدنى من القيم الإنسانية السوية . « والذوق السيئ ، والاستجابات الفجة ليست مجرد عيوب ثانوية فى الشخصية ، وإنما هى فى الحقيقة شر أصيل تنتج عنه نقائص أخرى فى الشخصية ، ولا يمكن للفرد أن يحيا حياة ممتازة إذا كانت استجاباته الأولية فى حالة خلط وفوضى »^(٢) .

* * *

(١) انظر الكتاب (١٥٨ - ١٦٠) .

(٢) أ . أ . رتشاردز : مبادئ النقد الأدبى ١٠٧

[٤]

عدوان على الله والرسالة والقرآن

١ - مدينة بونة .. كأى مدينة عربية كانت محكومة بالإرهاب والجوع والسمسرة والدين والحقد والجهل والقسوة والقتل . (ص ١٢) .

* * *

٢ - .. نهض .. أمسك رسغها ووخزه .. نحن الآن فى المطهر ، لسنا فى مسجد الله أو كنيسه ، هذه برارينا ، ونحن هنا آلهة هذه البرارى .. تناولت زجاجة بيرة ، وفتحتها . (ص ١٦) .

* * *

٣ - حيث لن يعرف لا الحزب ، ولا الرب متى ستشرق الشمس من جديد . (ص ٣٨) .

* * *

٤ - ... الحاج محمد الملىء كرشه بنور الله وتقواه . (ص ٤٦) .

* * *

٥ - فلة الثرثرة المظلمة بالشهوات المقدسة . (ص ٥٨) .

٦ - فى بونة بلد الخير والبركات والعاهرات المقدسات . (ص ١٣٠) .

٧ - فلة بوعناب أيتها المومس المقدسة أيتها النجمة . (ص ٤٧٠) .

* * *

٨ - إنها لمسألة غير تافهة أن تسأل في عالم اللامنطق ، وانعدام القانون ، في العالم المحكوم بالطغيان ، وسطوة الآلهة والقتل ، وميراث الأجداد المنقرضين .. عالم النزوة والمزاج والفردية .. كيف تفكر ، وتتحرك .. كيف تتقدم .. بل كيف تتشكل !؟ (ص ٧٢)

* * *

٩ - أنا أرى في ماركس أولينين محمداً جديداً ، محمد القرن العشرين ..
« ماركس أولينين العربى هذا ما نحتاجه فى هذا العصر المضطرب » . (ص ٨٧)

* * *

١٠ - لاحت على شاشة رأسه بلاد رازحة تحت عصور الظلمات والرجال والسلاسل ، وجراثيم الله المهيمنة والخصاء . (٩٣) .
١١ - لماذا لا (تفهميهم) بالسلوك أنك لست عبدة لرغباتهم ، وأن حريتك تخرج من قوانينك الداخلية لا من قوانينهم الدينية العمياء .. إنهم يحكموننا بالطقوس البائدة ، طقوس الصحراء والحريم . (٩٥) .

* * *

١٢ - كيف يتساوى جميع الناس ، والله تعالى قال فى كتابه العزيز :
« إنا خلقناكم فوق بعض درجات » ^(١) . (ص ١١٤) .

* * *

١٣ - الوعى العميق بالتاريخ غائب ، وهؤلاء يهيمشون التاريخ ويعيدونه مليون عام إلى الوراء .. فى عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر يحكموننا بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن خراء . (١٢٩)

* * *

(١) هكذا كتبها حيدر . وصحة الآية : ﴿ ... وَزَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ... ﴾ .
[سورة الزخرف ، الآية ٣٢]

١٤ - ... إلى الجحيم .. لا أريد كفنًا ، ولا مشيعين ، أريد أن أموت عاريًا
تحت الشمس في غابة أو صحراء ، تأكل جثتي الصقور ، ووحوش البر .. هذا
أفضل وأهدأ لنفسى من صلوات الدجالين ، وقبور المسلمين المظلمة . (ص ١٣٧)

* * *

١٥ - إحساس المنفى يتواق مع انفجار الحب .. وكما يتجلى الجنس إلها
أفريقيًا مقدسًا .. يشعر الغريب الوافد ، وكأنه طير مهاجر . (ص ١٤٦) .

* * *

١٦ - وفاجأه مهدى هازئًا : عمى الحاج بصلاة محمد على رأسك .. هل
أحببت فى حياتك ؟ وقال الحاج محمد : واحدة .. واحدة على سنة الله ورسوله .

- طبعًا تزوجتها ؟

- أكيد .

- ولكن الله قال : انكحوا ما طاب لكم .. ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعًا ،
ونحن على سنته .. لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية ، وخليفة ،
ومتعة .. وكان صلوات الله عليه وسلامه يقول : « تناسلوا فإننى مفاخر بكم الأمم » .

استبد الغضب بالحاج محمد : الرسول تزوج حسب الشريعة . أما أنتم
فتريدون شيوعية .. والله تعالى قال فى كتابه العزيز :

(إذا ابتليتم بالمعاصى فاستتروا)^(١) .

وصاح مهدى ضاحكًا : يا عمى الحاج : رغبنا الاستتار فإذا بمخابرات ربى
تقرع علينا الأبواب الموصدة . (ص ١٤٨)

١٧ - وفى الطرف الآخر داخل القصور والقلاع وبيوتات الحريم ، وثكنات
الحرس الإمبراطورى رسمت الخرائط والخطوط السرية لتحركات الجيوش والخلفاء
والجنرالات للحفاظ على هيكل ذلك العالم المقدس .. هيكل الوحش الصحراوى

(١) ليس هذا من القرآن .

العائم فوق بحار البترول والتعازيم الخرافية للدين الخفيف . (ص ١٦١) .

* * *

١٨ - كانت الأمور تترنح في خريطة عقله ، ومجرى دمه على نحو سريالي
يشئت كل العقلانية القديمة التي أسسها بدأب منطقى من خلال وهم تغيير العالم
بسلطة نور العقل الكاشف لسحر نور الله فى مخلوقات ما وراء الطبيعة .
(ص ١٦٦) .

* * *

١٩ - أف . ياللله الصغير الذى وقع خطأ هنا .. قالت بامتعاظ :
أوقفى هذا الهراء ! أنا لست شيقًا ، ولا أريد أن أكون .. إننى ألعن أمى
التي ولدتنى على هذه الأرض ، فهمت ، أنت وهم ، والآلهة إلى الجحيم .
(ص ١٦٨)

* * *

٢٠ - بعيدًا .. بعيدًا .. تحت السطوة الجسدية وهذا الدمار الجميل للروح ،
وهى فى قبضة الشيطان ، وقد تقمص جسد إليه أرضى .. أو امرأة .. أو بحر ..
أوغابة : آسيا . (ص ١٧٥) .

* * *

٢١ - رأسه ملئ باختلاطات وسخافات .. ربى لا يدركها . (١٧٨)

* * *

٢٢ - الثوريون القدامى .. استراحوا فى محطة فلة بوغتاب (موس) .
حتى الشهداء قبل أن يستشهدوا عبروا تحت السارية .. تطهروا فى جنة عدن

الأرضية قبل أن يطيروا إلى جنة السماء . (ص ١٨١) - (وجنة الأرض منزل فلة) .

* * *

٢٣ - جبهة التحرير (الجزائرية) .. مخلوطة عجيبة وغريبة .. حتى ربى
لا يستطيع توحيدها . (ص ١٨٢) .

* * *

٢٤ - فى ذلك الوقت العصيب كان الله يتقمص السلطة ، الجنة والجحيم .
(ص ١٨٧) .

٢٥ - وهو الخارج من أضلاع الله والطغاة والحروب الأهلية المغدورة
ونفسه . (ص ١٩٢) .

* * *

٢٦ - الآلهة والقضاة والخوف الموروث والزمن السلالى ، كانت فى كريات
الدم . (ص ١٩٣) .

* * *

٢٧ - أوه .. يا إله السموات والأرض لماذا لا يكون الأمر هكذا إذا كان الله
عادلاً وشفوقاً لا يحقد على مخلوقاته . (ص ٢١٤) .

* * *

٢٨ - ومهدى جواد مززع .. لا يعرف كيف يتجه .. والزمن ليس ملكه ،
وهو الذى استوهم يوماً أنه ملكه لحظة جلس على عرش الله ، وصرخ بالخلقية :
كونى معى يوماً .. يوماً واحداً فقط . (ص ٢١٦) .

* * *

٢٩ - ويضحك .. أنفها الكبير المفلطح يواجهه .. يقرص أنفها : لكن أنفك
هذا سيعترض مستقبلنا .

- هو من صنع ربى .

- لا بد أن ربك فنان فاشل إذن . (ص ٢٢٠) .

* * *

٣٠ - تقول : تخيلت الآلهة بلحًا فى زمن القطاف .. وهى تهوى من السماء .. وأنا ألقاها فى راحتى .

تقول : فى طفولتى كان أبى يتحدث عن الأولياء الذين يصعدون إلى السماء بعد موتهم .. وكيف يستقبلهم الله مرحبًا فى الجنة مهيبًا لكل منهم سريرًا مريحًا ، وخدمًا ، وملائكة وحوريات ليظلوا سعداء .. كنت أتخيل السماء شجرة .. والله هو القمر .. والنجوم والكواكب أولياء وملائكة الله . (ص ٢٣٤) .

* * *

٣١ - علينا أن نبدأ سرًا .. كما ترى نحن فى مدينة بيزنطة ، وربك لا يعرف متى تحسم هذه الأراجيف . (ص ٢٤٤)

* * *

٣٢ - داخل هذه الأهوار التى خلقها الرب فى الأزمنة الموعرة فى القدم ثم نسيها فيما بعد لتراكم مشاغله التى لا تحد فى بلاد العرب وحدها . (ص ٢٥٧)

* * *

٣٣ - ... وهو يصرخ طالبًا الموت لأبيه والعالم والحيتان والآلهة والصور الشمسية .. واتحاد الشعب .. وجميع الطقوس اللازوردية التى قذفت به إلى هذا الجحيم . (ص ٢٦٣)

* * *

٣٤ - كتب مهدى جواد فى اليوميات المهجورة : ... إننى أنغمر فى غياب

الآلهة ، وهذا الدمار البشرى داخل أمواج هذه المرأة التى قذفتها فى وجهى ابتهالات البحر . (ص ٣١٥) .

* * *

٣٥ - ومن الزاوية انطلق تعليق : إن لجسدك عليك حقًا . صدق الله العظيم^(١) . (ص ٣١٩)

٣٦ - فلة بوغتاب المرأة التى سقطت سهوًا على شواطئ بونة حيث نسيها الله بعد أن اختار له زاوية ضيقة من زوايا الجحيم قائلاً لها : امكثى هناك ملعونة إلى أبد الأبدى ، فترد بصرخة شيطانية : فى مؤخرتى الحياة الآخرة ، وأنهارك العسلية وينابيع الكوثر .. هذه حياتى الأولى والأخيرة ، وما تبقى خذه .. سامحتك فيه .. أعطه لعبادك الصالحين . (٣٢٢) .

* * *

٣٧ - ... حيث تنفتح أبواب غامضة .. وتهتك أسرار مقدسة حملتها الآلهة والأنبياء ، وختمت عليها القلوب الواجفة . (ص ٣٢٤) .

* * *

٣٨ - الآلهة والبشر والشمس وصرخة الدم كلها كانت تنذر بزوبعة غبار . (ص ٣٢٧) .

* * *

٣٩ - وفى تلك الليلة تحدث عن تحطيم الأوثان التى أقامها الآباء والأجداد .. وضرورة الانفصال عن الدين والله . والأخلاق والتقاليد ، والأزمدة الموحلة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولى الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التى رسمتها دهور الكذب . (ص ٣٤٨) .

* * *

(١) هذا أيضًا ليس من القرآن ، وإنما هو من الافتراء على الله عزَّ وجلَّ .

٤٠ - عقيل : أخو القحبة .. خرا بربك .. تسكت ولّا أمزق أمعاءك ..
ملعون الوالدين . (ص ٤٠٠) .

* * *

٤١ - .. نحن غلطنا ، وهأى الوقعة مصيبة من الشيطان ورب العالمين .
(ص ٤٠١) .

٤٢ - .. أبوسعيد موخاين .. لكن الدنيا والناس كلهم خرا بخرا فى هذا
الزمن أخو القحبة الخالى من الرجال . (ص ٤٠١)

* * *

٤٣ - .. وفى سياق هذر الصحراء النبوية المتعارف عليه داخل العقل
الإهليلجى الذى استوطنته الأساطير والخرافات البدائية ... (ص ٤١٤)

* * *

٤٤ - ثم ترى رجلاً من أتم الناس طولاً ، وأشدهم بياضاً يأخذ المولود ،
فيتفل فى فمه ، ومعه طاس من ذهب ، ثم لا يلبث أن يشق بطنه ، فيخرج قلبه
ليشقه شقاً مخرجاً منه حصاة فى حجم حبة خردل ، ثم يمسخ على بطنه ، وهو يرد
قلبه إلى مكانه ، أنها يستيقظ المولود وينطق .. لكن الأم لا تفهم ماذا قال . فيقول
الرجل الذى أخرج حبة الخردل من قلبه : أنت خير البشر فطوبى لمن أتبعك ، والويل
لمن تخلف عنك ... » . (٤١٩) .

* * *

٤٥ - .. وكما أقام الله مملكته الوهمية فى فراغ السموات ليدخل فى خلود
ذاته بذاته ، سيقم ذلك الجنرال المعتوه مملكته داخل النسيج الأرجوانى للأرض التى
طوتها باسمه ، المملكة التى ستزدهر على مدى السنوات الصفراء . (٤٢٥) .

* * *

٤٦ - لم أسمع ولم أر إلا .. خد .. وهات .. إله المال كان يصرخ صراخ
وحش جائع فى غابة .. الإله السماوى إلههم الذى يصومون له ، ويركعون من

أجله فى الجوامع ، كان يداس ويجرجر ، كانوا خاشعين أمام الإله الجديد : الدينار ،
لم يتغير شىء .. كل الناس كانوا هناك يبيعون ويشتررون بالنجذاب مغناطيسى .
(ص ٤٥١) .

٤٧ - جاء داود حاملاً ثلاث زجاجات وزعها على العصبة المنفردة عن
الآخرين .. كما يجس جسد امرأة جس زجاجته : الله .. الله .. يا ولد ..
يا داود .. لقد غفرت لك .. انكح كل صبيان بونة ، وأنا شفيعك يوم القيامة ..
قال ذلك بغبطة مطلقة . (ص ٤٦٥) .

* * *

٤٨ - وفى الوقت الذى هوم فى رأسه موت طيور الأهوار انفجر شىء آخر ،
وتشظى : الله .. والوطن .. والأسرة . (ص ٥٠٨) .

* * *

٤٩ - ... المهم أن نخرج يوماً من حظيرة الحلايف .. الحرية .. الحرية ..
هذا هو ربى . (ص ٥٤٦) .

* * *

٥٠ - انتفض بيقين شبه نبوى .. الطمأنينة .. المستنقع .. الزمان الميت ..
ينبغى زلزلة الجذور القديمة التى تعفنت . (ص ٥٥١) .

* * *

٥١ - كنْ فى المعبد .. معبد عراء البحر الرحب ، يصلين لإله ينبثق للتو من
فجوات الصخر - الجسد ... (ص ٥٦٣) .

* * *

٥٢ - مستر لوجيك أو السيد عقل .. حى أبدا كالله .. قاض .. وديان ..
يحاسب الحماقات .. وكأنه نبى هبطت به مظلة العزة الإلهية ذات غسق فى هذه
السادوم الملعونة . (ص ٥٦٥) .

* * *

٥٣ - ... هو ذا ما يزال يضرب فى مندل الرمل بحثًا عن أشباح أنبيائه ..
الأنبياء الأسطوريون القابعون فى تلافيف الدماغ . (ص ٥٦٦) .

* * *

٥٤ - يوتوبيا .. يوتوبيا .. حلم الإشراق فى العقل الصوفى المصاب بلوثة
المستقبل الوضاء .. وهو يدخل تحت أمواج تحولاته .. انهدام كلى للعالم القديم ..
وبناؤه أرضيًا على شكل الله السماوى بدءًا من بشر جوهرهم جوهر ملائكى .. أما
أجسادهم فمن لحم ودم ، يرتقون فوق رغباتهم وصغائرهم العضوية ليكونوا الحالة
الجديدة الخارجة من الزمان القديم البالى .. والزمان الراهن الخرع : الزمان الصارخ :
لا إله إلا الله .. إلى الزمان الصارخ .. لا إله إلا الإنسان .. فى وقت فسد فيه كل
شئ من الدم إلى الهواء المستنشق .. وقت الاستعادة الطبيعية للحياة الأولى ،
والهولى الأولى ، بعد أن فتت ذراتها عبيد الله بن أبى ضبيعة الكلبى ظل الآلهة
المسوخة فوق الأرض .. فكونها على صورته الحيوانية ماحيًا جوهرها الإلهى الذى
يقول للأشياء : كونى فتكون . (ص ٥٦٨) .

* * *

٥٥ - .. الحاكم بأمر الله وأمر السيف .. الحجاج الثقفى المقعى على
العرش .. رب السموات والأرضين الذى يقول للشئ كن فيكون . (ص ٥٦٩)

* * *

٥٦ - يقول حسان يحيى : خرا برب السياسة ومشاكلها ، ويهمس داود فى
أذن ذو النون : عش امرأة أفضل من كل الثورات . (ص ٥٧٩) .

* * *

٥٧ - يؤكد (مهيار الباهلى) بأنه نجا بجسد فلة : لقد افتدتنى كما افتدى
الله إسماعيل بالكبش . (ص ٥٩٢) .

* * *

٥٨ - خرا بربك .. دعك من الانحطاط العضوى . (ص ٥٩٢) .

* * *

٥٩ - .. فلة المساوية لروح الله الجامعة هبطت كالروح القدس ، فجمعت الجسد إلى النفس ، وأعادت تناسق التكوين الأول بعد اختلاله . (ص ٥٩٣) .

* * *

٦٠ - وفى تلك الأيام الأخيرة بدأ مهيار الباهلى رغم بأسه العام ، ودمار أعلام ثوراته ، كأنما اتقد جسده ، وتوهجت روحه الخاصة بنار اسمها (فلة بوعناب) . كانت نازًا شخصية تراءت له بغتة فى وقت الضيق كما تلاقت العليقة الملتهبة لموسى فى الوادى المقدس طوى .. خاطبته : أنت فى الوادى المقدس ، فاخلع ثيابك وتقدم .. بغتة خلع أستاره كلها وتعرى ، اندفع فى اللهب ، فاكتشف الله فى جسد فلة بوعناب : العاهرة المقدسة التى وطئها الثوريون ، والمنفيون ، والسفلة والخنازير ، ثم لفظوها لفظ النواة بعد امتصاص الثمرة . (ص ٥٩٤) .

* * *

٦١ - الحلوف البوال .. يظن أنه الرب . (ص ٦٠٤) .

* * *

٦٢ تقول (آسيا) : الأمان لكم أنتم الرجال كالأمان للحنش الأرقط . ضحك (مهدي جواد) وهو يجمعها إلى جسده : صح والله صح .. خلق الرجل للمبيت فى أكثر من عش .. تلك رغبة ربنا ونبيينا محمد أول المرسلين . كان يناكدها ، وهما على أبواب هبوب الجسد .
- أى عش يفضل وريث الأنبياء ؟
- الدافئ والضيق ، الذى يغطيه بالأعشاب الندية فى أوقات الحمى ، وهبوط الوحي . (ص ٦٠٩) .

* * *

٦٣ - .. ولأنه كان ملحدًا ومجوفًا كان يتصور أن الله يتقمص المرأة ، ويغويه ليدخله في جسدها ، ثم يختطف روحه ليعاقبه في عرش مملكته .. وهكذا كن يرتدين أثوابًا حريرية شفافة تشبه أثواب الملائكة في الصور والتزيينات ، يغرقنه بالروائح ، وملاسه الحرير ، وانصقال الجسد ، والتأوهات الحارة .. ولكنه كان يرتعد في لحظة ولوجهن ، وهو تحت السطوة البرقية للجسدين اللذين سيباغتهما الله .. وهما مشتبكان . (ص ٦١٣)

* * *

٦٤ - وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك قائلًا :
« لا تدخلوا المنازل إن لم يؤذن لكم » . (ص ٦٦٢)^(١) .

* * *

٦٥ - .. لأول مرة يستحمان معًا بعريهما الكلى : هى ترى تفاصيل جسده ، وهو يرى ... ويمدان الأعضاء المحرمة : القضيب .. وشعر العانة .. المثلث ، والمؤخرة ... ولعلها وهى تتجلى تحت البصر الآن فاقدة قداستها وحرمتها الدينية أكثر جمالًا وطفولة وتناسقًا وتطهيرًا للنفس . (ص ٦٨٦) .
٦٦ - .. وهى تسأل : ماذا علينا أن نفعل إذن ؟ وفاجأها : نهض إلى الرقص .
بحركة مسرحية نهض إلى المسجلة فوضع شريطًا راقصًا .
وبحركة أخرى عاد ليتناولها من خصرها : هيا .. هيا .. إلى الجحيم كل شرايط الله ..
نحن معًا .. وهذا هو الحقيقى . (ص ٦٨١) .

* * *

(١) هنا تحريف واضح يدل على جهل كاتب الرواية بالمعطيات الإسلامية ، وما ذكره ليس حديثًا نبويًا ، وإن كان المعنى متضمنًا فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [سورة النور ، الآيتان ٢٧ ، ٢٨] .

وتجاه هذه النصوص التي استخرجناها من الرواية نسجل الملاحظات الآتية :

١ - أنها فى مجموعها - بصرف النظر مؤقتًا عن كونها وردت فى السرد أو حوارًا عل ألسنة الشخصيات - تبين عن طبيعة عدوانية على ذات الله ورسوله وأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - ، والقيم الدينية ، والتعامل مع معطياته ورموزه باستهزاء ، وسخرية ، واستهانة واحتقار ، ووقاحة .

٢ - أنها وإن التقت جميعًا فى هذه الطبيعة العدوانية - تختلف فى درجة السقوط ، وحظها من التصريح أو التلميح : فبعضها - بالنظر إليه فى ذاته - ينطق بالكفر البواح : كوصف القرآن بأنه خراء (نص ١٣) ، ووصف الله بعدم الإدراك (نص ٢١) والفشل (نص ٢٩) ، وتراكم المشاكل عليه (نص ٣٢) . والنص الذى تكرر كثيرًا : خرا بربك .. وكذلك إضافة الشراميط إلى الله (نص ٦٦) .

ومن هذه النصوص ما يزرى برسول الله ﷺ ، ويعرض به ، ويسخر من واقعة شق الصدر ، ومن سنته ﷺ فى الزواج (نص ١٦ ، ٤٤) .

ومنها ما يسخر من المساجد ، ويضعها فى سياق يسىء إليها .. ويصف الفجور بالطهر ، والدعارة بالمقدسة ، ويجعل من الزنى سبيل نقاء وتطهير .

ومنها ما ينكر الغيبيات أو يسخر منها كالآخرة والجنة والنار (نص ٣٦) . ويسخر من أولياء الله الصالحين ، وما أعده الله لهم من نعيم (نص ٣٠) .

ومنها ما يستهين بالألوهية بإضافة أسماء أو صفات سيئة لله ، والإعراض عن الوحدانية بالحديث فى مواضع كثيرة عن « الآلهة » (نصوص : ٢ ، ١٠ ، ١٣ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨) .

وكثير منها يحل الحرام كالنكاح والزنى ، واللواط ، وشرب الخمر (نص : ٢ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٥) .

٣ - وبعض هذه النصوص يقطع بفقر الكاتب فى الثقافة الدينية بعامة ، والقرآن والحديث بصفة خاصة . ومن مظاهر ذلك الخطأ فى نصوص الآيات والسنة ، وعرض بعض الحكم على أنها آيات قرآنية (نصوص : ١٢ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٦٤) .

ولا يستساغ الدفاع عن الكاتب بأنه قصد إلى ذلك قصدًا ليؤكد خروج هذه الشخصيات على الطوابع الدينية .. ومثل هذا الدفاع مرفوض لأنه لا دليل عليه ،

كما أن استعمال الأساليب الغالطة - وخصوصًا إذا كانت نصوصًا مقدسة - لا يعترف بها أحد كآلية فنية في رسم الشخصيات ، أو إضاعة المواقف ، أو إدانة واقع معين ، وإلا لجاز مثلًا أن نستسيغ حوارًا ساقطًا لغويًا ونحويًا في سياق الرواية إذا كان جاريًا على لسان مدرس لغة عربية هابط المستوى ، سطحي الثقافة . ثم إن الأسلوب - بصرف النظر عن مضمونه الفكري - منسوب إلى كاتب الرواية يستوى في ذلك السرد والحوار بكل أنواعه .

٤ - والنصوص التي عرضناها مستلة من سياقها بحذر شديد ودقة بحيث تحتفظ بعد اقتطاعها بمعناها ودلالاتها . والاعتراض الذي يردده بعضهم - في سياق الدفاع عن الرواية - بأن هذه العبارات أخذت من سياقها على طريقة « ويل للمصلين » اعتراض ساقط لأن النص المقتطع محتفظ بمضمونه كما هو ، وكما كان في السياق . كما أن هذه هي طبيعة « الشواهد » في البحوث العلمية .. وإلا لنقلنا الرواية مرة أخرى إلى الورق .. ثم إنهم ينهجون النهج نفسه في اقتطاع نصوص وعرضها للتدليل على « إسلامية » الرواية (!!) ، فهل المنهج الواحد حلال لهم ، وعلينا حرام !!؟

٥ - وبعد كل الذي قدمناه من النصوص الحيدرية المستلة بأمانة من روايته - سردها وحوارها - وكلها يمثل صدمة عدوانية للعرب .. والذوق .. والخلق .. والدين .. نذكر القارئ بحقيقة لا يختلف عليها اثنان وهي أن اللغة مرآة الواقع ، وفي غناها يكمن غنى الواقع .. وهي تجسد في فيض مفرداتها ما يفيض به هذا الواقع .. ومن هذا المنطلق يلاحظ الدارسون أن اللغة في القطب المتجمد الشمالي ، وفي لغة قبائل الإسكيمو تحديدًا غنية بمفردات الثلج .. فهناك مئات من الكلمات التي تصف الثلج وذراته وحياته وصفًا دقيقًا بالغ الأهمية والإثارة ، ولا يوجد لمثل هذا الغنى في المفردات التي تصف الثلج وتجلياته مثل في اللغات الأخرى ، ولا يوجد لأغلب هذه الكلمات مقابل في اللغات الأخرى .. ويعبر هذا الغنى في نهاية المطاف عن الغنى في واقع الحياة الثلجية في منطقة القطب الثلجي ، وبماثل هذا في اللغة العربية وصف الصحراء والسيوف في الماضي^(١) .

(١) الدكتور على وطفة : « المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية » - دراسة بمجلة عالم الفكر الكويتية (٢٤١ - ٢٨٠) - م ٢٧ - العدد ٢ - أكتوبر / ديسمبر ١٩٩٨ .

وأمام هذه الحقيقة قد لا نتعدى منطقة الصواب إذا زعمنا أن كاتب الرواية - وقد أرهقها بهذا السيل اللادوقي والأخلاقي واللادينى من هذه الألفاظ والتراكيب - كان مندفعاً - بالوعى أو اللاوعى - أمام ضغط « معجم لغوى خاص » ، وهذا الإفراز اللغوى المنكود المرفوض يفتح المجال - فى سماحة - إلى دراسة شخصية حيدر بكل أبعادها ، وإخضاعها لمدارس علم النفس الحديثة .

٦ - وأخيراً .. أشهد أن بعض اليساريين المعروفين « بالحدة اليسارية » مثل الأستاذ إبراهيم عيسى (الصحفى) - وله كتب وقصص تعرضت - وما زالت تتعرض لنقد مّز وهجوم شديد - رفض بشدة هذا « الإبداع الحيدري » الساقط ، وما فيه من بداء واهتراء ، وكتب مقالاً قوياً جداً بعنوان « ما كتبه حيدر حيدر لا علاقة له بحرية الإبداع » ، ومما جاء فيه :

« ... هل من حق أحد أن يصف القرآن بالخراء؟! أجب .. انطق .. قل الحق وما تراه يرضى ضميرك .. لن تجد إلا إجابة واحدة .. لا .. ليس من حق أحد ... بل أرى من الواجب على المثقفين أمام رواية حيدر ، وما جاء فيها من وصف حقير للقرآن الكريم حتى لو على لسان كلب فى الرواية .. وليس على لسان أحد أبطالها .. من الواجب علينا الاعتذار .. وليس الاستكبار ... »^(١).

ومن الذين الذين دافعوا عن الرواية بحرارة ، وهاجم من عارضوها من أخذ عليها الانحراف اللغوى ، وصدم المشاعر العامة ، مثل الأستاذ أحمد سلامة الذى أخذ على المؤلف أنه لم يتقن حرفة الأديب التى يمكن أن تجنبه زلل الاصطدام بالمشاعر الدينية والأخلاقية السائدة فى مجتمعه . وهناك أساليب راقية فى الآداب العالمية ، عولجت فيها أصعب المواقف والشخصيات دون جموح أو تجاوز أو ابتذال . وكان حريّاً بالمؤلف أن يراعى ذلك ويحترمه^(٢) .

(١) أخبار الأدب - العدد ٣٥٧ - ٢٠٠٠/٥/١٤

(٢) أحمد سلامة من مقال له بعنوان : « وليلة لإهدار العقل » (ص ٨٢) من مجلة « وجهات

نظر » - العدد ١٧ - السنة الثانية - يونية ٢٠٠٠

القسم الثانى

الرواية بين التحدى والتصدى

تقرير اللجنة ... ذلك العزف المنفرد

بقرار من الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة تشكلت لجنة لإعداد تقرير عن رواية « وليمة لأعشاب البحر » للكاتب السوري حيدر حيدر ، ورئيس اللجنة أو مقررهما هو الدكتور عبد القادر القط ، وأعضاؤها هم الدكتور صلاح فضل ، والدكتور كامل زهيري ، والدكتور مصطفى مندور ، والدكتور عماد أبوغازي . ومع احترامي لأعضاء اللجنة ، لا يستطيع أحد أن ينكر أنهم من « مدرسة » واحدة ، أو على الأقل ذوو توجهات متقاربة جدًا كأنهم يعزفون على وتر مفرد .. فلا تعددية في التقييم والتوجه والتوجيه .. فالمقام الأول « للتماثل » لا « التكامل » ، يقطع بهذا أن التقرير يسير من أوله إلى آخره وليس فيه مأخذ واحد يسجله على الرواية .. وهذا من أعجب العجب .. لأن هذا يعني - لا أنها مبرأة من العيوب فحسب - بل أنها تقف على قمة الأعمال الروائية العربية .. مع أن الذين عايشوها وتعمقوها ، وقدموا فيها دراسات وافية سجلوا عليها مأخذ تعييبها .. ومن هؤلاء - كما ذكرنا من قبل - الدكتور علي الراعي .. ومحمود أمين العالم^(١) .

وإعطاء الرواية هذه المكانة الراقية في تقرير رسمي انتظره الجميع يعد ترديداً مفصلاً لوجهة النظر الحكومية المتمثلة في وزارة الثقافة ، وفي وزيرها فاروق حسني ، وكنا نتمنى أن نرى في اللجنة رجالاً مشهوداً لهم بالعلم الموسوعي ، والخلق الرفيع ، والاعتدال والوقار من أمثال أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة ، وشيخ النقاد الدكتور شوقي ضيف .

(١) وانظر ماأخذه الدكتور فؤاد زكريا على تقرير اللجنة في مقاله « حقائق غائبة في قضية الولاية » (ص ٥٦) من مجلة المصور - العدد ٣٩٤٥ - ٢٠٠٠/٥/١٩

وقبل أن أقدم وجهة نظري في تقرير اللجنة أقرر أن الآلاف الذين تظاهروا ضد الرواية وضد من نشروها في جامعة الأزهر لم يقرأوا الرواية .. وهذا لا يعيبهم .. ومن المستحيل أن نطلب منهم أن يقرأوا رواية من سبعمائة صفحة في أيام يستعدون فيها للامتحانات .. وهم اعتمدوا في ثورتهم على ما قرأوه من عدد كبير من صفحاتها - مصورة - في صحيفة الشعب .. وهي نصوص مأخوذة من أحشاء الرواية دون اجتزاء واقتطاع يخل بالمعنى .. فهي « نماذج » كاملة ، من صفحات متباعدة تدل على طبيعة الرواية ، ومضمونها الفكرى لرواية لا تكاد صفحة من صفحاتها تخلو من لظمة للذوق ، أو الخلق ، أو الدين .. وأذكر الأستاذة الكبار أننا - في تدريسنا الجامعى - نعتمد على « نماذج نصية » مختارة من الإبداع للحكم على أدب المبدع .. بل طبيعة العصر .. فلا تظلموا طلاب الأزهر ، فما قاموا به حق طبيعى من حقوق التعبير ، ولم يكن « زوبعة في فئجان » كما وصفه واحد من التنويريين جدًا .. بل إنه حقق كسبين كبيرين :

الأول : أنه أثبت أن الوعى الشعبى - وخصوصًا عند الشباب - لم يت ، وأن العاطفة الدينية ما زالت طاقة قوية لها وجودها وتأثيرها وقدرتها على التوجيه .
الثانى : أنه كبت الاندفاع المتطرف المستهين بالقيم والمشاعر فى وزارة الثقافة ، وجعل المسؤولين فى هذه الوزارة يلتقطون أنفاسهم ، ويراجعون أنفسهم وخطيئهم ، ويعملون اعتبارًا للآخر .. ورأى الآخر .. وأصبح هو نفسه اتجاه الهيئة المصرية العامة للكتاب .. وقد صرح مسئول بالهيئة العامة لقصور الثقافة بأن كل الكتب التى كانت على قائمة الطبع فى الهيئة وسلاسلها المختلفة قد تم إرجاؤها وتأجيلها لحين النظر فيها مرة أخرى ، وتم استبدالها بكتب كانت مؤجلة من قبل^(١) .

* * *

وفى وقفنا مع تقرير اللجنة نقدم وجهة نظرنا فى السطور الآتية :
١ - يذكر التقرير أن وظيفة الرواية هى نقد الحياة ، وتعميق الوعى الجمالى بها ، وهذا يقتضى :

(١) انظر التفصيل : (ص ٧٦ ، ٧٧) من روز اليوسف - العدد ٣٧٥٥ - ٢٧/٥/٢٠٠٠

(أ) المحافظة على حرية التخيل من ناحية .

(ب) قوة التعبير الفني وصدقه من ناحية أخرى .

وهى أمور لا نخالف التقرير فيها .. ولكن التفسير يقتضينا القول بأن تكون الحرية - بالنسبة للعناصر الروائية كلها - حرية منضبطة ، منزهة عن الفوضوية ، والسفول .. فلا يتورط الروائى مثلاً فى خيال مريض يثير التقزز والغثيان .. كتصوير حيدر لفلة بوعناب وهى تخرج من مؤخرتها ربحاً ذات رنين^(١) ، أو وهى تمارس بالقلم شهوتها أى العادة السرية (الاستمناء) وهى تئن وتهذى وهى عارية تماماً أمام مهيار الباهلى^(٢) . وذلك للتدليل على استهتارها ، وشهوانيتها العاتية . فمثل هذا الخيال المريض لا علاقة له بالأدب الروائى ووظيفة « نقد الحياة » وتعميق الوعى الجمالى بها » .

أما الأداء التعبيرى فى رواية حيدر ، وعلاقته بالشخصيات فى الحوار الذى جرى على ألسنتها ، وعلاقته « بالواقعية » وحظه من المصادقية فقد عرضناه بالتفصيل فى القسم الأول من هذا الكتاب .

٢ - ومجمل التقرير يدعو بل يلزم - حتى يصح الحكم على الرواية - أن تقرأ قراءة من نوع خاص يمكن أن نسميها قراءة أدبية ، لا قراءة دينية .. أى بعيداً عن الدين وأحكامه .. فهذه القراءة الأدبية هى التى تقود إلى النتائج السديدة بعيداً عن الانحياز والخطأ وهذه المقولة هى عين الخطأ للأسباب الآتية :

(أ) القراءة لا تقسم على هذا الأساس .. لأن ذلك يتعارض مع طبيعة الأشياء .. وإلا لكنا أمام عدد لا يحصى من القراءات : (قراءة دينية ، وأخرى أدبية .. وثالثة علمية .. ورابعة اجتماعية .. وخامسة تاريخية .. وسادسة تراثية .. وسابعة أيديولوجية ... إلخ) وكل أولئك أو بعضه من مضامين مختلفة يدرك بالقراءة ، ويستخلص من النص تبعاً لطبيعة البحث الذى يقوم به القارئ .

(ب) وعلى فرض وجود هذين النوعين : أدبية ودينية فإن اتهام التنويريين للقراءة الدينية بالقصور والتشدد وضيق الأفق لآحاديتها يمكن أن يوجه « للقراءة

(١) « الوليمة » (٤٦٠) .

(٢) « الوليمة » (٢٠٧) .

الأدبية» لأنها أيضًا قراءة أحادية .. وخاضعة لمذهبية نقدية معينة فى الغالب .. وإذا اتهمت « الدينية » بالتعصب والجمود فبالمقابل يمكن اتهام « الأدبية » بالتفريط فى معطيات الدين والقيم والأخلاق .

(ج) والقراءة المثالية التى تقود إلى الحكم الصحيح على المقروء هى « القراءة الشمولية المستوعبة » . وهى تلك التى دعا إليها كثير من النقاد المشهورين ، ومنهم « رتشارد » فى كتابه القيم « مبادئ النقد الأدبى » فقد ذهب إلى إن كل الأنواع الأدبية تحتاج فى قراءتها الصحيحة إلى إدخال جميع القيم العامة التى ليست هوى شخصيًا من القارئ نفسه .. يجب أن يقبل عليها القارئ بكل فكره وحسه ووعيه الفنى والخلقى والثقافى والدينى ، وألا يجعل شيئًا يحول بينه وبينها ، وألا يعتمد إغلاق جزء من نفسه وتكوينه عند قراءتها .. أما إذا حاول أن يتجاهل جميع الاعتبارات ما عدا تلك العناصر الجمالية المزعومة فإنه ينتهى إلى برج عاجى يعزل فيه عن حقيقة الحياة »^(١) .

وعلى سبيل الاستطراد أذكر الذين يهاجمون « المداخل الدينية » ، ويصفونها بالتزمت بأن الناقد الكبير ت.س. اليوت فى كتابه « نحو تعريف الثقافة » انتهى إلى أن المسيحية هى الأساس الموحد ، والقوة الموجهة للثقافة الإنجليزية خاصة .. والأوروبية بوجه عام .. بل يقدم - فى هذا الكتاب قاعدة عامة لتحديد مفهوم كل ثقافة ، هذه القاعدة هى الدين^(٢) .

وفى بحثه القيم عن الرواية يذكرنا الدكتور سليم العوا بطبيعة الأمة المصرية فىرى أن الذين يذهبون إلى أنه لا يجوز الحكم على العمل الأدبى إلا من المنظور الأدبى فقط ، وأننا لا يجوز أن « ندين » النظر فى العمل الأدبى ينسون أن الأمة المصرية أمة متدينة ، لا يقبل مسلموها ولا أقباطها فصل دينهم عن حياتهم ، ولا يردون موردًا يتنافى وروده مع نواهى الدين ، أو يتضاد مع أوامره . وحكم « الحلال والحرام » فى كل ثقافة فى الدنيا هو حكم دينى ، وليس حكمًا أدبيًا أو فنيًا .. فإذا أخرجنا الدين - كما يريدون - من معايير الحكم على الفن والإبداع والأدب فقدنا مرجعية هذا الحكم أصلًا ، وأبحنا لمن شاء أن يقذف فى حياتنا

(١) « مبادئ النقد الأدبى » (ص ١٠٧) .

(٢) انظر محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس : « فى الثقافة المصرية » (٢٥) .

الثقافية بما شاء ، وصارت هذه الحياة - الثقافية - فوضى لا ضابط لها ، يختلط الحابل فيها بالنابل ، والغث بالسمين ، وكفى بذلك فتنة وفساداً^(١).

* * *

ولأمانة البحث واستيفائه نذكر في هذا المقام أن من كبار النقاد القدامى من فصل في نقده بين الدين والشعر ، ولم يتخذ من الدين معياراً لتقييم الشعر .. ومن هؤلاء القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي يقول عن المتنبي : « والعجب ممن ينقص أبا الطيب ، ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة ، وفساد المذهب في الديانة ... فلو كان فساد الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يحى اسم أبي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات .. ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر »^(٢).

وينقل أبو هلال العسكري عن أحد الفلاسفة أنه قيل له : « فلان يكذب في شعره ، فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام »^(٣).

ومن قدامى النقاد من يرى أن الصلة قوية بين الدين والخلق وبين الشعر ، ومن هؤلاء الأصمعي ، فقد أبدى استحسانه لشعر الخطيئة ، ولكنه يقول بعد ذلك : « أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس ، وكثرة الطمع »^(٤).

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « ما أحد أحب إلي شعراً من لبيد بن ربيعة لذكره الله عز وجل وإسلامه ، ولذكره الدين والخير ... »^(٥).

وعن شعر أبي نواس يقول : « لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الإرفاث لاحتججنا بشعره ، لأنه كان يحكم القول ، ولا يخلطه »^(٦).

(١) « أعشاب وطحالب في حياتنا الثقافية » (٢٤ - ٢٧) دراسة للدكتور محمد سليم العوا في مجلة : وجهات نظر - العدد ١٧ السنة الثانية - يونية ٢٠٠٠

(٢) « الوساطة بين المتنبي وخصومه » (٦٣ ، ٦٤) .

(٣) « كتاب الصناعتين » (١٥٥) . (٤) « الأغاني » (٥٨٨/٢) .

(٥) المرزباني : الموشح (١٠٠) . (٦) ديوان أبي نواس : المقدمة .

والنصوص التي تمثل النهجين النقديين المتناقضين ، واستقراؤها يضع أيدينا على الحقائق الآتية :

(أ) أن أحكامها كلها لم تتعد دائرة الشعر إلى غيره من الأجناس الأخرى كالرسالة والخطبة التي هي من إملأ الوعي .

(ب) أن الذين رفضوا المعيار الديني في نقد الشعر كان نصب عيونهم نماذج عالية من الشعر العربي في نسجها وخيالها ، وأدائها التعبيري ، فعز عليهم أن يُوقَصَ هذا الإبداع بسبب مخالفة محتواها للدين والخلق ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا : إن هذا الشعر له - من حساب النقط - ما يشفع له في خروجه على بعض مقتضيات الدين والخلق والأعراف .

ومن ثم نرى أن الدفاع عن رواية حيدر وما فيها من سقطات لادينية ولا أخلاقية بمقولة أن من القدماء من عزل الدين في مجال التقييم الفني .. نرى أن هذا الدفاع غير موفق للأسباب الآتية :

(أ) أن هذا الرأي لا يلزمنا ، وخصوصاً أنه يمثل خروجاً على الأصل في أمة مسلمة رسم القرآن فيها صورة الشعراء كما يجب أن تكون ، فهم مبرءون من الغواية والنفاق والكذب ، وهم من : ﴿ ... الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ... ﴾ (١) .

والرواية من عمل العقل الواعي ، وعليه أن يزن الأمور بميزانها الصحيح .

(ب) أن رواية حيدر ليس فيها من عظمة الفن بناءً وتصويراً وتعبيراً ما يعوضها عن عبارات السقوط اللاديني واللاخلاقى . ورأينا أن ما فيها من هذا اللون نصوص تعد على أصابع اليد الواحدة أمام نصوص بالملئات تناقض العروبة .. والذوق .. والخلق .. والدين .. وقد عرضناها في ختام القسم الأول من الكتاب .

* * *

(١) سورة الشعراء ، الآية (٢٢٧) .

٣ - جاء فى التقرير بالحرف الواحد :

« ومن هنا فإن ما نسب إلى الرواية من بعض العبارات التى يبدو فى الظاهر أنها يمكن أن تمس شعور القارئ غير المدرب لما يظن أنه مساس بالدين ، أو طعن فى القرآن الكريم ، أو تعريض بحياة الرسول ﷺ فهو من قبيل سوء فهم الفن الروائى ، وتحريف عباراته ، وانتزاعها من سياقها ، وتجاهل ما يرد فى النص ذاته من رد عليها من شخصيات مخالفة والمشاهد المشار إليها على وجه التحديد هى ... » .

وبصرف النظر عما فى العبارة من التواء فإنها تتهم من يظن ، أو يعتقد أن بالرواية عبارات تمس الدين وتطعن فى القرآن الكريم وشخصية الرسول ﷺ .. تتهم من يظن أو يعتقد ذلك :

- بأنه قارئ غير مدرب !!

- وأنه سىء الفهم للفن الروائى !!

- وأنه حَرَفَ العبارات وانتزعها من سياقها !!

- وأنه تجاهل ما فى الرواية من رد عليها من شخصيات مخالفة !!

وظاهر ما فى العبارة من شعور بالاستعلاء والفوقية نرفضه تمامًا .. ولكن دعك من هذا .. ودعنا نسأل : هل الذين اعتقدوا وصرحوا وجزموا أن الرواية غاصة بعبارات تخدش الحياء والخلق ، وتصدم قيم الدين ومبادئه ومن هؤلاء الدكتور مصطفى الشكعة ، والدكتور عبد الغفار مكاوى ، والدكتور محمد عبد المطلب ، والدكتور يوسف نوفل ، والدكتور محمد سليم العوا ، والدكتور محمد عمارة ... هل هؤلاء قراء غير مدربين ؟ وهل هؤلاء سيئو الفهم للفن الروائى ، ومنهم من يدرس هذا الفن لأبنائنا فى الجامعات ؟!!

ومسألة انتزاع النصوص من السياق نكتة أخرى !! هل كانت اللجنة تريد - فى مقام إدانة الرواية بتقديم نماذج نصية منها - هل كانت اللجنة تريد - حتى تتحقق « الأمانة » بمفهومها أن ينقل الناقد الرواية كلها ؟ إن المهم هو أن يكون « النموذج » وافيًا بالغرض ، وأن يكون اقتطاعه من الرواية غير مخل بمضمونه .. ثم إن اللجنة فعلت ما نهت الآخرين عنه ، فقدّمت شواهد مقتطعة من الرواية كما

فعلنا نحن .. ولكننا لم نلجأ إلى التزوير الذى لجأ إليه حيدر .. وقد عرضنا ذلك فى ردنا عليه .. إذ أسقط جزءا من أحشاء نص دافع به عن نفسه ، ووقع كثير من التنويريين جدًّا فى الفخ ، فنقلوا النص المزور من الصحف ، ولم ينقلوه كاملاً من الرواية .

* * *

ثم أين الردود يا لجنة !!؟ لقد عرضت ما اعتبروه ردًّا فى مسألة (الخراء والنقطة وعلامة التعجب) ، وبينت أنه لا يصلح أن يكون ردًّا ، وقد قدِّمْتُ فى ختام القسم الأول من هذا الكتاب فى أكثر من عشرين صفحة « معجم السقوط الحيدرى » ، ولو دلتنى أحد على ما يسمى ردودًا لحذفت هذه الصفحات من الكتاب . ثم ما قول اللجنة فى عبارات السقوط اللاخلقى واللادينى الواردة فى السرد - لافى الحوار - هل هناك من رد عليها ؟

ثم إنى مسائر اللجنة فى أن هناك « ردودًا » على عبارات السقوط هذه - وأنها وردت فى الرواية بالعشرات - وأسأل : ألا يضعف ذلك من حبكة الرواية ، وينال من فنيته ، لأنها تكون حينئذ أقرب إلى « فن المناظرات » منها إلى « فن الروايات » !!؟ علمًا بأن اللجنة تتهم من يعارض الرواية بأنهم « سيئو الفهم للفن الروائى » !!

* * *

وللأسف أرى فى التقرير « تزويرًا فى التعداد » كنت أجِّل أعضاء اللجنة الموقرة عن الوقوع فيه .. فقد ذكرتُ أن المشاهد التى يحتمل أن يظن القارئ غير المتمرس أن فيها إساءة إلى الخلق والدين ثلاثة .. أقول : ثلاثة على سبيل الحصر .. وفى تعسف واضح ، وافتعال غير مقنع حاول التقرير الدفاع عما فيها من عدوان على الدين والخلق .. وقد عرضنا عشرات - لا ثلاثة - من هذه المواقف والعبارات العدوانية ، كما عرضنا المواقف والعبارات التى تسائر الدين وتمجده وهى لا تتعدى خمساً ، جعلنا عنوانها « قطرات عذبة فى بحر الظلمات » وهو عنوان يدل دلالة

قوية على طبيعة هذه المشاهد ، ومكان هذه العبارات بالنسبة للعبارات المناقضة في السياق الروائي .

وحتى يدرك القارئ ما في التقرير من تحيز وتعسف وافتعال أنقل منه - في مقام دفاعه عن المآثم الحيدرية السطور الآتية بالحرف الواحد :

« أما المشهد الثالث فهو غزلي عابث يدور بين مهدي جواد - المدرس الشيوعي - وتلميذته التي تتحول إلى عاشقة .. ويمضي هكذا : تجذبه آسيا من شعره ، فيلتقي بصراهما .

- أنت لى .. هاه .. عليك أن تفهم ذلك منذ الليلة .. ويضحك .. أنفها الكبير المفلطح يواجهه .. يقرص أنفها .

- لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا .

- هو من صنع ربي .. لماذا تسخر منه ؟!

- لا بد أن ربك فنان فاشل إذن .

ونلاحظ على هذا المشهد ثلاثة أمور :

أولها : أنه يأتي على سبيل الدعابة وروح الفكاهة في لحظة غزلية بعيدة عن الجد .. ومن شأن الأدب في هذه المواقف أن يتظرف بعبارات غير لائقة تأتي على لسان الشخصيات الملائمة لها .

ثانيها : أن الفتاة تحاول التخلص من عيبها الخلقى في فلطحة الأنف بنسبته إلى ربها على الطريقة الجزائرية في العامية الدارجة .. وهو يلتقط منها الخيط ليدين تصويرها لربها لاربه هو .. ولا الذات الإلهية .

ثالثها : أن موقف القراء من مثل هذه العبارات يتوقف على مدى شعورهم بالخرج والتحفظ ، أو الاكتفاء بإدانة الشخصية المتخيلة من سوء تعبير » .

قرأت هذا فشعرت كأنه كلام كتب لغير عرب يتكلمون العربية ، ويعرفون أدبها ، وكدت أشك في معلوماتي الأدبية بعد أكثر من نصف قرن في معايشة الأدب درسًا وتدريسًا .. تعلمًا وتعليمًا .. فالتقرير يصدر حكمًا حاسمًا لم أسمع به من قبل ، وما قرأت مثله ، ولا ما يقاربه في المعنى من قبل « .. من شأن الأدب في

هذه المواقف (مواقف الغزل أن يتظرف بعبارات غير لائقة تأتي على لسان الشخصيات ...) .

أى أدب تعنى اللجنة ؟ ومن أين أتى هذا التعميم ؟ ولماذا غير لائقة ؟! وهل كلام الفتاة آسيا بلخضر محاولة « تخلص » من عيبها الخلقى ؟ كيف يكون هذا التخلص من عيب خلقى ثابت ؟ أليس الأدق أن يقال : « تدافع » عن عيبها الخلقى ؟ وهل نسبة هذا العيب إلى الرب طريقة جزائرية فى العامية الجزائرية ؟!

وهنا ثلاث غلطات يا لجنة :

الغلطة الأولى : أن نسبة العيب إلى الرب لا يمثل خصوصية جزائرية .. بل يكاد يكون نهجاً عاماً فى كل شعوبنا ، ونحن فى مصر نقول فى مثل هذه الحال : « داخلقة ربنا » .

والغلطة الثانية : أن كلام آسيا لم يكن بالعامية الجزائرية كما ذكرت اللجنة .. ولكن كان بالعربية الفصيحة .

والغلطة الثالثة : فى وصف العامية بأنها « دارجة » ، لأن العامية عامية .. والفصيحة توصف بأنها « دارجة » إذا كانت سهلة واضحة مباشرة كلغة الصحافة . ووقعت اللجنة - بحسن نية - دون أن تقصد طبعاً - فى التثليث : ربها - ربه - الذات الإلهية .. والكلمات الثلاث - مع تعدد ضمائر الإضافة - لا تعنى إلا واحداً فقط هو « الخالق » ، وأعتقد أن اللجنة لا تخالف فى هذا .. ولا خطأ ولا ضير ولا جور على « فنية » الحوار إذا استبدلنا كلمة « الخالق » بكلمة « الرب » ، ويكون الحوار بالصورة الآتية :

- لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلاً .

- هو من صنع خالقي .. لماذا تسخر منه ؟

- لا بد أن خالقلك فنان فاشل إذن .

وتأتى مسألة « الخيط » هذه لتزيد الطين بلة ، إنه فى رده عليها لا يدين تصورها لربها (خالقها) ولكن الإدانة - بمنطوق الكلام - منصرفة إلى ربها ..

فالمسألة ليست تصورًا .. ولكنه واقع .. ولو أراد إدانة تصورها لجاء كلامه بالصورة الآتية :

- إن تصورك هذا يعنى أن ربك فنان فاشل إذن .
وحتى لو فعل ذلك لظلت العبارة تدل على سوء أدب ، وعدوان على عقيدة الأمة .
ولماذا لا تحلو الدعابة وروح الفكاهة فى أوقات الغزل وغيرها إلا بالتلاعب باسم الله وصفاته ، ومعطيات الدين ، وقائع الحياة النبوية ؟! .. إن هذا النهج يذكرنى بمسلك المنافقين ومنطقهم فى التبرير .. كانوا يفتابون النبى ﷺ وأصحابه يقولون :

« يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها .. هيهات له ذلك » .
ويقولون عن النبى ﷺ وصحبه :
« ما رأينا مثل هؤلاء أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء » .
فإذا ما عاتبهم الرسول ﷺ ، وواجههم بما قالوا ، أجابوا :
إنما كما نخوض ونلعب .. أى ما قلنا ذلك إلا على سبيل الهزل والتفكه ..
وليس على سبيل الجد !!

وقد أدانهم الله سبحانه وتعالى بقوله :
﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبَالِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾^(١) .

وثمة ظاهرة فى هذا التقرير ، وفى المقالات التى كتبها التنويريون جدًا ، وفى الأحاديث التى يصرخون بها ، وهى اللواذ بمقولة « الخيالية » .. إنهم يرفعون وركتهم ، ويصرخون فى الوجوه : إنها شخصيات خيالية .. أنحاسب شخصيات خيالية مخترعة ، على كلام خيالى مخترع يجرى على ألسنتها ؟ وقد رددنا على هذه المقولة فى صفحات سابقة أكثر من مرة .
ومما قلناه : إن المسئولية الأولى تبقى معصوبة برأس كاتب الرواية .. لأنه

(١) سورة التوبة ، الآية (٦٥) . وانظر للواحدى : « أسباب النزول » (٢٠٥) ، وللسيوطى : « لباب النقول فى أسباب النزول » (١١٥) .

يتصرف بوعى كامل ، ويختار شخصياته ، ويجرى على ألسنها ما يشاء من كلمات .. لا ما تشاؤه هى .. وفى أساليب العربية ما كان يمكنه من أداء أفكاره ومعانيه دون السقوط فى مستنقع العفن الغوغائى ، ولغة الدعارة والشواذ .. وكل ذلك دون الإساءة إلى البناء الفنى للرواية .. بل يحقق للرواية قيمة فنية كبرى درامياً .. وتصويراً وتعبيراً .

ولكن حيدر كان حريصاً على « إثبات وجوده » و « تحقيق ذاته » بما لم يأت غيره بمثله من قبل .. فهو يتحدث عن نفسه - فى استعلاء - على أنه أجراً من اقتراب ، وعالج المحرمات الثلاثة : الدين والسياسة والجنس .. ويقول : إن الاقتراب للكتابة فى هذه المسائل يحتاج إلى جرأة لا تتوافر فى أى أديب آخر غيره^(١) .

وبدعوى « الخيالية » يمكن أن تنقض عرى الدين عروة عروة فيأتى كاتب روائى آخر ويتبنى آراء المستشرقين والمبشرين فى القرآن والرسول ﷺ وقواعد الإسلام فى الأسرة والحياة الاجتماعية . ويعرضها على دفعات فى أعمال روائية مجبوكة ، والحوار يدور على ألسنة شخصيات خيالية مخترعة ، ولا مانع أن يجعل بعض المشاهد على هيئة « أحلام » .. فإذا ما اغترض على مضمون الرواية كان الجواب جاهزاً « إنها شخصيات خيالية لا وجود لها فى الواقع .. فهل الخيال يحاسب عليه ؟! وهل الأحلام تقع تحت طائلة العقاب ؟!

فإذا ما علا صوت المعارضين أو « الظلاميين » ، شهر « التنويريون جدّاً » الورقة الثانية ، وصرخوا .. هذا فن .. فن ، ودعواكم دعوى دين .. ولا دخل للدين بالفن .. ويقفز إلى ذهنى واقعة المرأة الصهيونية المجرمة فى إسرائيل التى رسمت صورة « خنزير » وكتبت عليها اسم رسولنا الكريم ﷺ .. وهاج العرب والمسلمون فألقت السلطات الإسرائيلية القبض عليها ، فكان دفاعها عن نفسها يعتمد على أن هذا فن .. مجرد فن .. رسم .. عبرت به عن نفسى . وهو دفاع لا يختلف فى جوهره عن الدفاعات الحيدرية ... دفاعاته عن نفسه ، ودفاعات التنويريين جدّاً عنه !!

(١) من حديث لحيدر نشر فى أخبار الأدب - العدد ٣٦٦ ص ٩ .

وما المانع - باسم الفن المحصّن ضد تدخل الدينى - أن يكون امتحان الرسم
فى السنة النهائية بالمرحلة الإعدادية : بالصيغة الآتية :
تعمل حكومتنا الرشيدة لمصلحة الأمة ونفعها وتقدمها ، مع اختلاف الوزراء
فى الطباع والصفات :

تَحَيَّزُ ثلاثة حيوانات نافعة ، وارسمها ، واكتب على كل منها اسم الوزير
الذى تراه مناسباً فى طباعه وصفاته للمرسوم !!؟

وما المانع أن يكون موضوع الرسم « الصحابة » أو « الأنبياء » بدلاً من
الوزراء .. وقيل للمعترضين هذا فن تشكىلى رفيع فلا تعترضوا .. وهكذا ...
وبالتدريج .. تُنْقَضُ عُرى الدين ، وتنهار القيم والمقدسات ، ويصدق علينا قول
الشاعر :

لقد هزلت حتى بَدَا من هُزالها .. كُلاها ، وحتى سامها كلّ مفلس

* * *

وثمة ثلاث مسائل أختتم بها حديثى عن هذا التقرير الذى لا يزيد - من
وجهة نظرى - على كونه « ورقة تبرير » .. تبرير لكل سقطات الرواية الحيدرية :
الأولى : مشهد الحوار بين الشيخ محمد ومهدى جواد ، وما فى تبريره
وتفسيره من التواء وافتعال شديد لا يخطئه النظر : فحينما يقول مهدى جواد :
ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعاً ، ونحن على سنته .. لقد تزوج أكثر من عشرين
امراً بين شرعية وخليلة ومتعة .

يقول التقرير : تذرّع المدرس (مهدى) بفعل الرسول - عليه الصلاة والسلام -
لا يقصد به الطعن عليه فى هذا الموقف (!!) بل يحاول أن يستند إلى حجة دينية
فى خطابه للحاج الذى يظهر التدين .. ولا يمكن عند القراءة الأدبية للنص فى
جملته أن نستشعر رغبة المساس بشخصية الرسول ﷺ فهى تَرِدُ بوصف « المعظم »
وإن كانت تبالغ فى عدد نسائه (!!)

الافتعال واضح ... واضح :

١ - فاللجنة دخلت فى النوايا والقصود (لا يقصد به الطعن عليه) .

٢ - وفي عبارة طويلة ملتوية تتشبث اللجنة بما يسمى « بالقراءة الأدبية » وتدعو إليها كأنها تصنع المعجزات . وهذه القراءة الأدبية تلبى طلبات اللجنة فقط : فوصف مهدي للرسول (بالمعظم) يعد تقديراً له في نظرها .. أما قوله : إنه تزوج عشرين امرأة بين شرعية وخليلة ومتعة ، فليس فيه رغبة المساس بشخصية الرسول (!!)

فلماذا لا يفسر كلامه كله (بالقراءة الأدبية أيضاً) على أنه مساس بشخصية الرسول ﷺ ، وأن وصف (المعظم) جاء على سبيل السخرية !!؟

٣ - وصفت اللجنة قول مهدي عن النبي ﷺ بأنه « تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية وخليلة ومتعة » بأنه مجرد مبالغة من مهدي في العدد (!!) ، وكيف غفلت اللجنة عن اتهام الرسول ﷺ بأنه اتخذ « خليلات » وأنه تزوج زواج متعة !!؟؟ أما حديث اللجنة عن « المفارقة » فحظه من الهشاشة يدفعنا إلى إغفال مناقشته !!! .

والمسألة الثانية : أن التقرير في مجال تبرئة حيدر من أقوال شخصياته يقول :

« .. على أنه من المعروف أن من يروى الكفر ليس بكافر .. » .

ولكن هذه القاعدة ليس على إطلاقها .. فحتى تصح - ويجوز إعمالها لا بد من توافر الشروط الآتية :

١ - حسن النية في « راوى الكفر » ، فلا يقصد بعمله هذا الإساءة إلى الدين ، وغمز رموزه .

٢ - ألا تروى عبارات الكفر والإلحاد إلا مصحوبة بالأدلة والبراهين التي تفندها ، وتبطلها ، ولا تتمكنها من غرس الشك في نفوس المؤمنين ، أو صد الآخرين عن الإيمان .

٣ - وحتى مع تحقق الشرطين السابقين يستحسن ألا تثار وتعالج هذه المسائل أمام من كان رقيق الدين ، أو من كان يعبد الله على حرف ، إلا في حالة الضرورة . وإيراد أقوال الكفرة والملاحدة دون أن يكون معها ما يفندها من أدلة وبراهين يسيء إلى العقيدة ، ويزرع الشك في النفوس ، ويعمل على تدمير القيم والأخلاق . وقد رأينا من قبل - وليرجع القارئ إلى الرواية ، وما أثبتته من معجم

السقوط - أن ما جاء على ألسنة الشخصيات من سقوطات لم يكن متبوعاً بأية ردود أو نواقض .. ومن ثَمَّ لا تصدق على هذه الحالات قاعدة « راوى الكفر ليس بكافر » ، ويبقى استشهاد اللجنة بها فى غير محله .

* * *

أما المسألة الثالثة - وهى الأخيرة - : فهى من توابع التقرير ، وإن كانت أصولها فى التقرير راقدة .. وأعنى بها ما صرح به الدكتور عبد القادر القط مقرر اللجنة بعد نشر تقريرها بأسابيع متحدثاً عن الحوار فى رواية حيدر .. والجديد هذه المرة أنه وظّف « البيعة المصرية » فى تبرير الحوار الحيدري^(١) .

يسأله الصحفى : حين يضع الروائى جملة على لسان شخصية فى حوار .. هل هذا الحوار تعبير بالضرورة عن شخصية الروائى نفسه ؟

ويجب الدكتور القط :

الحوار أداة مهمة فى يد الروائى يستعين بها على التركيز والانتقاء ، ويستغنى به عن كثير من الأوصاف والتفصيل فى طبيعة الشخصية وانتمائها الطبقي أو الفكرى أو اللغوى .. وإذا كان قراء الرواية قليلين نسبياً ، فسوف أستشهد الآن بأعمال ذات طابع قصصى .. وإن كانت مختلفة عن الرواية .. ولكنها ذات صلة جماهيرية يمكن أن يدرك المتلقى طبيعتها .. فحين نسمع شخصاً يقول للآخر : « اطلع من نافوخي » ندرك - دون حاجة إلى التصريح - طبيعة انتمائه الطبقي أو اللغوى أو الأخلاقى . وحين نسمع رجلاً يخاطب زوجته من خلال تلك العبارات قائلاً : « يا ولية أنت مخك طاقق ؟! » ندرك طبيعة الرجل وطبيعة علاقته بزوجته .. وهكذا الحال فى الرواية .

وهناك حوار يكون بين المثقفين أو بين من ينتسبون إلى قطاع خاص من المجتمع يبدو قريباً مما يمكن أن يصوغه المؤلف بنفسه .. حوار مثقفين أو متعلمين وأفراد نششوا على قيم أخلاقية متميزة .. ونحن نسمع فى الشارع

(١) حوار أجراه معه الصحفى حلمى النمنم (٥٢ - ٥٤) من مجلة « المصور » - العدد

٣٩٤٦ - ٢٠٠٠/٥/٢٦

المصرى ، وفى المدن العربية الأخرى ألفاظاً لا نلقى إليها بالاً .. مع أن فيها ما يبدو خروجاً على القيم الدينية أحياناً ، أو المعايير الأخلاقية والسلوك الطبيعى أحياناً .. نحن نستمع إلى ما يمكن أن يعتبر سباً للأُم ، وجرحاً للشعور الدينى فى عبارات مألوفة لدينا لا أريد أن أقتبسها هنا ، يمكن أن يستخدمها الراوى ، وإذا التقطها من الشارع فإنه لا يقصد نقلها نقلاً واقعياً ، ولكن لاتخاذها مفاتيح للشخصية .

ومن ملاحظاتي للشارعين المصرى والعربى تبدو بعض هذه العبارات الجارحة ، وكأنها نوع من التبسط أو الفكاهة أو إظهار الصداقة الحميمة .. وبعض الشباب يحيون بعضهم بمثل هذه العبارات الجارحة ، ولا يجدون حرجاً حيث لا يقصدون دلالتها الحقيقية ، وهكذا يفعل الروائى ، فينقل حواراً مختلف الطبيعة والمستوى حسب الشخصيات والمواقف .

- يسأله الصحفى : أين يقع الحوار فى رواية حيدر حيدر « وليمة لأعشاب البحر » من هذا التفسير .

- أجاب الدكتور القط :

فى الرواية شئ من استخدام هذه الوسيلة الفنية المشروعة التى لا تؤخذ دلالتها أخذاً مباشراً .. وإذا كان الشارع نفسه يتجاوز عن دلالتها المباشرة ، ويتغاضى عما فيها .. فما بالناس بالروائى الذى يريد أن ينقل صورة فنية للحياة .. ولا شك أن من يقرأ بعض ما ورد فى حوار الرواية دون أن يفتن إلى هذه القيمة الفنية للحوار يجد فيه ما قد يجرح شعوره الخلقى والدينى بمجزل عن الموقف ، وطبيعة الشخصية .

* * *

لقد تعمدت أن أنقل للقارئ كل ما قاله الدكتور القط فى هذه المسألة بالذات .. وله بنفس المجلة كلام كثير فى مسائل أخرى ، والذى يقرأ هذا الكلام يعتقد - لأول وهلة - أننا فى مقام هزل لا جد .. ولكنه يدرك بعد ذلك أن ما قاله الدكتور القط - فى هذه المسألة بالذات - إنما هو امتداد « لمنطق التبرير » الذى تبناه التقرير ، تبرير كل شذوذات الرواية وسقوطاتها فى حماسة منقطعة النظر ، حتى أن اللجنة - كما ذكرت - لم تبرز فى تقريرها مأخذاً واحداً على الرواية ، وكأنها قمة الإبداع الروائى فى عصرنا هذا .

أما أهم الملاحظات التى نسجلها على كلام الدكتور القط فتتخلص فيما يأتى :

١ - كعادة اللجنة - وهو جزء من منطق التبرير - يردد الدكتور القط الحديث عن القصد والنوايا (يقصد - لا يقصد - يقصدون - لا يقصدون) وهى خفايا لا يعلمها إلا الله .. ومن عجب أن يحسم القول فيها مع أن « المنطوق » يرفض هذا الحكم .

٢ - المثالان اللذان استشهد بهما الدكتور القط حُمِّلَهما أكثر من طاقتهما .. فهما مستعملان فى أكثر من طبقة اجتماعية .. ولست أدري كيف تدل عبارة « اطلع من نافوخي » على طبيعة الانتماء الأخلاقى لقائلها !!!

٣ - يتحدث الدكتور القط عن الشارع المصرى والشوارع العربية حديث من يقصد شوارع فى الخيال ، أو كأنه يتحدث إلى « خواجهات » لا مصريين ، ولا عرب .. فهل الرجل فى الشارع المصرى لا يلقي بالألأ عبارات يفهم منها سبًا لأمه أو دينه ؟ وكيف فات سيادته أن المصرى تثور ثائرتة إذا نودى منسوبًا إلى أمه (يا ابن فلانة) ، أو لمجرد ذكر اسم أمه .. أما شعوره بتجريح دينه فلا سكوت ، ولا سماح .. بل التعارك الذى قد تسيل فيه الدماء !!

٤ - وهل صحيح أن عندنا - فى مصر والبلاد العربية - شبابًا يحيون بعضهم بعبارات جارحة للدين والأُم ولا يجدون حرجًا فى ذلك ؟! أعتقد أن مثل هؤلاء الشباب لا وجود لهم إلا فى الخيال .. وإن وجدوا فهم من الشواذ الذين لا يؤخذ منهم ، ولا يقاس عليهم .

٥ - وتأسيسًا على وجود هذه الظاهرة « فى خيال الدكتور القط » يكون من حق كاتب الرواية استخدام هذه الوسيلة التى وصفها الدكتور القط بأنها « فنية مشروعة » !!

وقد رأينا أن « الأساس » لا وجود له .. ومن ثمَّ يكون إنكار ما أقيم عليه أمرًا طبعيًا بدهيًا لا حرج فيه !!

* * *

كان هذا هو دفاع اللجنة .. بل قتالها المستميت .. بالمشروع وغير المشروع - عن الرواية الحيدرية - وفيه كانوا « حيدريين » أكثر من حيدر نفسه .. ومصادقية هذا الحكم قد تتكشف لنا إذا ما قرأنا دفاع حيدر عن نفسه فى الصفحات التالية :

ويدافع حيدر عن نفسه

الدفاع عن النفس حق مشروع للإنسان مهما كان خطؤه أو خطيئته .. ومن حقه كذلك أن يختار الأسلوب الذى يراه مناسباً لهذا الدفاع .. ما لم يكن فى ذلك عدوان على حق .. أو دين أو عقل .. أو عرض !!

وقد حدث ما هو معروف من التصدى لرواية حيدر بالمظاهرات والمقالات والمؤتمرات .. وكل أولئك قنوات شرعية فى نظرى . وكان من الطبيعى أن يدافع حيدر حيدر عن نفسه وعمله فى بيانات أصدرها ابتداء ونشرتها الصحف .. وكذلك فى محاورات أجرتها معه الصحف هاتفياً ، أو عن طريق كُتّاب وصحفيين قصدوه فى بلده ، وأجروا معه لقاءات وحوارات .

وقد دار دفاعه أو دفاعاته عن نفسه على عدة محاور أهمها : الحديث عن شخصيته وسلامة عقيدته ، والحديث عن روايته وموضوعها ، وما فيها من طوابع إيمانية ، وشرح أو تبرير ما فيها من عبارات قد يُفهم منها الترويج للجنس ، والإساءة إلى الدين .. والحديث عن الحملة الموجهة إليه ، وتقييمه لها والدوافع التى تحركها على التفصيل الآتى :

١ - يعلن حيدر أنه مؤمن بالله وأنه سليم العقيدة ، ويقول بالحرف الواحد : « يقطع لسانى قبل أن أهاجم القرآن أو أتعرض للإسلام ، والذين كفرونى يضرون بالإسلام .. بينما أنا أنصره وأنصفه »^(١).

٢ - ويرى أن :

« النص المقدس » عمومًا حمال أوجه ، والاجتهاد منذ زمن المعتزلة هو الأساس فى بنية الإسلام ... والقرآن الكريم نص مفتوح للجميع ، ويحق لأى

(١) من حوار له مع وائل الأبراشى (٢٠ ، ٢١) من مجلة روز اليوسف - العدد ٣٧٥٣ -

مسلم أن يجتهد من خلال فهمه وإدراكه بعمق لحقيقة الإسلام^(١) . ويؤكد أنه مسلم .. ولكن إسلامه ليس كإسلام الآخرين ، وتفسيره للإسلام ليس كتفسيرهم ، ويحق له أن يجتهد ، والقرآن هو أحد أهم مصادر ثقافته الأساسية .. وعندما يجتهد فى النص فهذا لا يعنى أن يكون اجتهاده مطابقاً لاجتهادهم^(٢) .

٣ - ويرى أن :

روايته تعبر عن الواقع العربى المأزوم ، والمطوق بكثير من القوى التى تعيق تقدم هذا المجتمع ، وتحاول أن تصادر ما يمكن تسميته الرأى الآخر^(٣) وهو قد عايش عمق التصدع فى التجريبتين العراقية والجزائرية بعد هزيمة يونيو / حزيران ١٩٦٧ .. وقدم ذلك عن طريق ما تحكيه شخصيات الرواية عن تجربتها النضالية انتهاء إلى المصير المؤلم بعد هزيمة يونيو .. وهى نفس أوجاعه كمشقف عربى بسبب الهزيمة^(٤) .

٤ - ويرى حيدر حيدر أنه :

ليس فى الرواية صفحة واحدة تسيء إلى الإسلام ، بل بالعكس إنها تمجد الإسلام ، وفيها مشاهد للمجاهدين الجزائريين وهم ينزلون من فوق الجبال وقد وضع كل منهم القرآن الكريم على صدره^(٥) .

٥ - كما يرى أن :

الهجوم على الرواية أشعله الأصوليون من أجل الحصول على مكاسب صغيرة فى الانتخابات التشريعية فى مصر خلال نوفمبر القادم .. لقد حرصوا الطلاب والطالبات الذين لم يقرأوا الرواية ، وربما أيضاً لم يسمعوا بها أو بصاحبها فى حياتهم^(٦) .

(١) من حديث له فى لقاء مع محمد عبد العال : صحيفة الأيام الجديدة - العدد ١٩ - ٢٠٠٠/٦/٤ ، وهو يصف الإسلام كذلك - لا النص فقط - بأنه حَمَال أوجه . ص ٥٥ من المصور ٣٩٤٦ - ٢٠٠٠/٥/٢٦

(٢) الأيام الجديدة السابق . (٣) المرجع السابق .

(٤) السياسى المصرى - العدد ١٢٩٢ - ٢٠٠٠/٦/٤ من حوار مع الأمير أباطة .

(٥) أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ (من حديث هاتفى) .

(٦) السياسى المصرى السابق .

ويواصل حيدر حيدر حديثه فيقول :

ولكن اخطط كبير وخطير .. القضية ليست « وليمة لأعشاب البحر »
وحيدر حيدر .. ولكنها أكبر من ذلك .. هم يستهدفون كل المشقنين
التنويريين والعقلانيين لتخلو لهم الساحة من خلال التأويل والاحتماء
بالنصوص .. وهدفهم استلام الشارع ، والسعى لاستلام السلطة كما حدث
فى الجزائر .. هى ليست أكثر من شرارة تمهد لخططاتهم .. القضية ليست
حيدر حيدر .. وأنا لست أفضل من الذين نفوا أو حوكموا أو قتلوا بسبب
آرائهم وأفكارهم .. ولنا أسوة بالمعتزلة أول من أرسوا باب الاجتهاد فى
الإسلام .. نحن ورثة المعتزلة ، ورثة الغيلان الدمشقى أهم مفكرى المعتزلة ،
والذى صلب وهو يدافع عن أفكاره ، وعن الحرية والاجتهاد والعقلانية^(١) .

ويكاد يصف حيدر حيدر الذين عارضوه بالعمالة والخيانة .. فهم من وجهة
نظره - كما يقول : « لا يتحركون من تلقاء أنفسهم ، بل إنك قد تندesh إذا قلت
لك : إن العدو الصهيونى الإسرائيلى قد يكون أحد المستفيدين من حملات هؤلاء
ضد المفكرين والفنانين والأدباء الذين يريدون للأمة العربية أن تنهض^(٢) .

٦ - ويقول حيدر :

الرواية ليست خطأ فكرياً حتى أحاسب عليه .. ليست أيديولوجيا نعرضها فى
حلقة نقاش سياسى .. والشخصيات فى الرواية تتكلم باسمها ، ولا تعبر عن
رأى المؤلف .. تأمل فى الواقع سوف تجد الملحد ، والمؤمن ، والوجودى ،
والعدمى والعبثى .. والشخصيات التى نسبت إليها هذه الإساءات ليست
نموذجية .. فكيف أتحمّل أنا آراءها وأفكارها ؟

٧ - وعن كلمة « خراء » التى جاءت بعد عبارة طويلة تنتهى بكلمة القرآن

يقول حيدر :

هذا دليل على سوء نيتهم ، وتعسف منهجهم .. إن كلمة خراء قبلها نقطة ،
وبعدها علامة تعجب .. ثم إن هناك من يرد عليها بعد ذلك ، أى أنها لا تصف
عبارة « تعاليم القرآن » حيث تفصلهما نقطة أنهت الفقرة بالكامل .. وكلمة

(١) روز اليوسف : السابق . وانظر كذلك الأهرام العربى - العدد ١٦٤ ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) الأهرام العربى : العدد ١٦٤ - ١٣/٥/٢٠٠٠ - ص ٦٩

خراء هنا تعنى أنه يهذى بكلام لا معنى له .. وفى العمل الأدبى فإن كل الاحتمالات مفتوحة .. مثلاً : عندنا فى الشام نقول تعبيراً شائعاً هو « العمى فى سماك » ، ولا نقصد بذلك الإساءة إلى السماء .. ولكنها تعنى « خلصنا من هذه الحكاية ... » كذلك عبارة « خرا بريك » شائعة وفقاً لل لهجة العامية الدارجة .. وهى ليست إحدادية بالمرّة .. وحينما يقولها المواطن باللهجة العامية فإنها تعنى « خلصنا من هذه القصة » ، ولم يتبادر فى ذهن أحد أن هذه العبارة تسيء إلى الله ، فكلمة خراء لا يوصف بها الله - معاذ الله - بدليل أنها شائعة على ألسنة الناس^(١) .

٨ - ولما واجهه محاوره بأن بعض الجزائريين غضبوا من تصويره لشخصية فلة بوعناب ، المناضلة التى تحولت إلى عاهرة ، وقالوا : الثورة الجزائرية ليست فلة .. أجاب حيدر :

وهذا يدل على أن الرواية تخضع لكل احتمالات التأويل .. وفلة فى روايتي هى ضحية الثورة .. كانت مناضلة وحولوها إلى عاهرة .. وهى ليست عاهرة بمعنى الكلمة لأنها لا تعشق إلا من تحب .. وفلة بوعناب فى روايتي شخصية حقيقية قابلتها فى الجزائر ، واخترت لها اسم فلة من عندى ، أعرفها جيداً ، هى مناضلة مخدولة ، وذكرت على لسانها النقد الموجه للسلطة الانتهازية .. كل سلطة انتهازية فى الوطن العربى .. « وليمة لأعشاب البحر » حالة عربية أكثر منها حالة جزائرية .. أردت أن أقول من خلال روايتي : إن الذين استلموا السلطة فى الوطن العربى عقب ثورات الاستقلال حولوا الثورة إلى كرسى حكم وسلطة حكم ، ونسوا الشعب .. لقد امتصوا دماء الشهداء ، وسرقوا الأحمال^(٢) .

* * *

كان هذا أهم - وربما كل - ما دافع به حيدر حيدر عن نفسه ، وعن روايته ، وله كلام طويل آخر فى تصريحات أخرى ، ومجلات أخرى .. ولكنه لا يخرج عن

(١) روز اليوسف : السابق .

(٢) روز اليوسف : السابق .

المضامين السابقة ، ولا يزيد عليها .. وحتى نكون أقرب إلى الدقة والإنصاف نناقش ما جاء به جزءا جزءا :

١ - لا نحاول - ولن نحاول - أن نناقش إيمان الرجل .. فلنا الظاهر ، وعلى الله السرائر .. ونحن دعاة لا قضاة .. وحسابه على الله .. مع أنه قدم عملاً روائياً أيسر ما يقال عنه إنه إساءة للإسلام .. والقرآن .. والخلق .. والذوق .. أما مناصرته للإسلام ، وإنصافه له فمحل شك كبير .. كبير جداً حتى من بعض من ناصروا الرواية .

٢ - وتعبير « النص المقدس » غريب على المعروف والموروث من الخطاب الإسلامى ، ويكاد يكون « مصطلحاً مسيحياً » .. ولكننا لا نقف أمام هذا الاستعمال الذى يبدو - فى ظاهره على الأقل - شكلياً ؛ لأن تفصيله بعد ذلك يشى بضحالة ثقافة الكاتب الإسلامية والتراثية من جانب ، وتضخيم شخصيته فى استعلاء ترفضه إمكاناته المتواضعة من جانب آخر :

(أ) فقد ذكر أن النص المقدس عموماً حَمَلُ أوجه ، والمعروف أن « النص المقدس » - وأنا أستعمل تعبيره - فى الإسلام هو القرآن والشنة - واستخدامه كلمة عموماً يصدق عليهما . مع أن كلمة « حمال أوجه » لم تستخدم من قبل إلا على لسان على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، وفى مناسبة خاصة ، وهى مناسبة توجيهه « عبد الله بن عباس » - رضى الله عنهما - لمحاورة الخوارج حتى يقتنعهم بالتخلي عن تطرفهم ، والعودة إلى صفوف المسلمين . طلب منه الإمام على - كرم الله وجهه - أن يجادلهم بسنة رسول الله ﷺ السنة العملية بصفة خاصة (ألا تعلمون أن رسول الله ﷺ فعل كذا .. وكذا .. ألم تروا أنه فى موقف كذا .. فعل كيت وكيت ...) فهى مواقف لن يستطيعوا أن يؤولوها ، أو يخرجوا دلالاتها عن مسارها الطبيعى .. ونهاه عن أن يجادلهم بالقرآن « لأنه حَمَلُ أوجه » : أى فيه مجال للتأويل والتفسير بالهوى^(١) .

(ب) والاجتهاد لم يكن أساساً فى بنية الإسلام منذ عهد المعتزلة - كما

(١) انظر : (جابر قمحية : « المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق » ١٨٧ - ١٩٠ ، ونيفين عبد الخالق : « المعارضة فى الفقه السياسى الإسلامى » ٢٥٧) .

يزعم حيدر - بل هو مصدر من مصادر التشريع الإسلامى من عهد رسول الله ﷺ يأتى فى المرتبة الثالثة مباشرة بعد القرآن والسنة .. يؤيد هذا ما روى معاذ ابن جبل - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له : « كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضى بما فى كتاب الله .. قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ » قال : فبسنة رسول الله ﷺ .. قال : « فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ » قال : أجتهد رأيى ولا آلو .. قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : « الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله » . وما روى سعيد بن المسيب عن على - رضى الله عنهما - أنه قال : قلت : يا رسول الله .. الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؟ فقال ﷺ : « اجمعوا له العالمين من المؤمنين .. فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد » ^(١) .

ولأن الاجتهاد عملية استنباطية إنشائية تعتمد على القدرة العقلية والضمير الحى ، والثقافة الموسوعية فى علوم الشرع بخاصة كان لا بد من ضوابط وتوافر شروط فى شخصية المجتهد أهمها :

- ١ - أن يكون المجتهد مسلماً .. لأن الاجتهاد بذل الفقيه وسعه لاستنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية .
- ٢ - أن يكون المجتهد عالماً بلغة العرب لكى يتمكن من تفسير القرآن الكريم ، وتفسير السنة النبوية الشريفة .
- ٣ - أن يعرف المجتهد القرآن الكريم ، وما يتعلق به كزمن النزول وأسبابه .
- ٤ - أن يعرف المجتهد السنة القولية والفعلية والتقريرية ، ومراتبها وأحوال الرواة .
- ٥ - أن يكون المجتهد متمكناً من معرفة أصول الفقه ، لأنه العمود الفقري الذى يركز عليه الاجتهاد .

(١) على حسب الله : « أصول التشريع الإسلامى » (٤٣٨ ، ٤٣٩) .

- ٦ - أن يكون المجتهد عالمًا بالمواضع التي أجمع عليها العلماء ، كإجماعهم على المحرمات التي جاء بها القرآن والسنة ، وإجماعهم على أصول المواريث .
- ٧ - أن يفهم المجتهد مقاصد الشارع العامة من تشريع الأحكام ، وأن يكون خبيرًا بمصالح الناس وأحوالهم وأعرافهم وعاداتهم ليستطيع إصدار حكمه على الوقائع التي لا نص فيها بالقياس أو الاستحسان أو المصالح المرسله أو غير ذلك .
- ٨ - أن يكون المجتهد صحيح الفهم ، فيعرف غث الآراء من سمينها ، وطيب الأقوال من خبيثها .

- ٩ - ألا يكون المجاهد مبتدعًا ، مائلًا إلى الهوى ، لأنه يكون والحالة هذه فاسد الاعتقاد ، وفاسد الاعتقاد لا يتجه إلى النصوص يبحثها ، ويقلب وجوه النظر فيها بقلب سليم ، فمهما كان ثاقب الفكر ، صائب الرأي لا بد أن يسيطر على تفكيره ، ما يحول دونه ودون الاستنباط الصحيح للأحكام من النصوص .
- ١٠ - أن يكون المجتهد مخلصًا لله لا يبغى من وراء اجتهاده الجاه ولا الشهرة ، ولا يريد إلا أن يصل إلى الحق أنى كان^(١) .

* * *

هذه هي الشروط أو الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل من يريد أن يكون مجتهدًا .. وقد يهب « التنويريون » ثائرين زاعمين أن في هذه الشروط تعنتًا وتعسفًا .. ولكن الواقع غير هذا .. والشروط المطلوبة في شخص يريد أن يلتحق بوظيفة معينة منها ما يتعلق بالجنسية .. والسن .. والمؤهلات الدراسية .. والخبرة السابقة .. والحالة الاجتماعية .. وقدرة الأداء .. واجتياز امتحانات .. ولقاءات .. وقد يشترط الدين والمظهر .. زيادة على صحيفة الأحوال الجنائية للتأكد من أن تاريخ حياة الشخص خالٍ من الجرائم المخلة بالشرف .. وبعد هذا تضع الجهة الحكومية تذييلًا في إعلان الوظيفة نصه : « وللجنة - لجنة التوظيف - رفض التعيين دون إبداء الأسباب » .

وهذه ولا شك ضوابط مهمة لمصلحة العمل .. ولوفتح الباب دون هذه

(١) انظر : (محمد زكريا البرديسي : أصول الفقه ٤٦٧ - ٤٧٢) .

الضوابط ، ما استقام عمل ، وما استقرت أمور .. فكيف يكون القرآن « نصًا مفتوحًا للجميع » لأى مسلم أن يكون مجتهدًا فى نصوصه ؟

وهل يملك « حيدر حيدر » الصفات التى ذكرتها آننا أو حتى بعضها ، أو شرطًا واحدًا منها وهو معرفة القرآن الكريم وفهمه حتى يعطى نفسه حق الاجتهاد فى نصوصه ؟! إن روايته حسمت الأمر ، فكشفت مستوره فإذا به لا يعرف الفرق بين الآية والحديث ، وما عرضه منهما غزير الأخطاء التحريف^(١) .. وهذا يقطع بكذبه إذ يدعى أن « القرآن أحد أهم مصادر ثقافته الأساسية » .

أما مصادر ثقافته الحقيقية - كما ذكر هو - زيادة على كتب الأيديولوجية الشيوعية - كتب إدوار الخراط ، وإلياس خورى ، وجابر عصفور ، وبهاء طاهر وجمال الغيطانى ، وإبراهيم أصلان ، ورضوى عاشور^(٢) .

٣ - وتعبير الرواية عن الواقع العربى المأزوم والمطوق بكثير من القوى ... إلخ فيه من المبالغة .. بل الإغراق فى المبالغة الشئ الكثير .. فالرواية فيها تشويه للجهاد الجزائرى من بداياته الأولى .. وفى الرواية انتصار للجنس فى صورته الشاذة .. وفى الرواية دعاية للأيديولوجية الماركسية أثقلت الرواية بمئات من الصفحات حتى كادت تحولها إلى كتاب سياسى .. ومن عجب أن يصرح حيدر حيدر من عدة أسابيع :

أن الرواية كانت أكبر مما هى عليه الآن فى طبعاتها المختلفة ، وأنه قبل طبعها حذف من مخطوطها « خمسين صفحة كانت تتحدث عن الطابع الأيديولوجى للتنظيمات الماركسية حتى لا تأخذ الرواية الطابع الأيديولوجى الذى يغلب على الجانب الفنى أو الأدبى ، وحتى لا تبدو الرواية ، وكأنها بيان سياسى »^(٣) .

ولكن الرواية بقى لها هذا الطابع حتى بعد إغفال الصفحات الخمسين التى ذكرها حيدر .. وهذا ما أخذه على الرواية بعض الذين وقفوا فى صفها من أمثال : الدكتور على الراعى ، ومحمود أمين العالم . وقد أشرنا إلى ذلك فى صفحات سابقات .

(١) انظر الصفحات : (٢٤ ، ١١٤ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٣١٩) من الرواية .

(٢) أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ ص ٩ . (٣) روز اليوسف : مرجع سبق ص ٢١ .

٤ - بصر حيدر على أن الرواية ليس فيها صفحة واحدة تسيء إلى الإسلام .. بل فيها ما يمجّد الإسلام ، ويلج على هذه المقولة كذلك كل « التنويريين جدًّا » مما سنعرض له فيما بعد .. ولن أرد على هذه الأكذوبة ، وأحيل القارئ على ما استخرجته من الرواية ، وعرضته في القسم الأول تحت عنوان : [اللغة ومعجم الهبوط] .

ولكن المؤلف حقًّا أن يقوم الكاتب التنويري جدًّا حيدر حيدر بارتكاب جريمة مخلة بالشرف هي جريمة التزوير المتعمد .. وهي التزوير « بالكشط » أو « الإسقاط » حتى يوهم القارئ بصدق دعواه - بل ادعائه - بأن في الرواية ما ينتصر للدين ، ويمجّد محمدًا ﷺ .. ففي أحد تصريحاته لصحيفة مصرية^(١) يورد النص التالي على أنه من الرواية :

« أترون جيّدًا وصوابًا كيف يتشكل العربي الجديد في العصر الراهن .. ذلك القديم كان مبلورًا ومحصنًا بالإسلام . محمد القرن العشرين .. هذا ما نحتاجه في العصر المضطرب » !!

هذا تزوير حيدري تابعه فيه كبار التنويريين .. والنص في الرواية كما يلي بالحرف الواحد :

« أترون جيّدًا وصوابًا كيف يتشكل العربي الجديد في العصر الراهن .. ذلك القديم كان مبلورًا ومحصنًا بالإسلام (الآن نحن نعبر إلى الزمن الجديد .. من أين ؟ من الفراغ والسديم المطلق أم من ميراثنا ؟ هل الثورة هي القطع التاريخي الكامل ؟ أنا أرى في ماركس أو لينين محمدًا جديدًا) محمد القرن العشرين (ماركس أو لينين العربي) هذا ما نحتاجه في هذا العصر المضطرب »^(٢) .

(١) الأيام الجديدة : العدد ١٧ - ٢٠٠٠/٥/٢١

(٢) « الوليمة » (٨٧) ، وانظر كذلك إصراره على هذا التزوير في حوار مع حلمي النمنم ص ٥٤

من مجلة المصور - العدد ٣٩٤٦ - ٢٠٠٠/٥/٢٦ . وكذلك في حديثه مع الـ BBC (انظر ص ٤ من صحيفة الميدان ٢٠٠٠/٥/١٦) .

وهكذا يسوى حيدر - بتزوير متقن متعمد - بين محمد ﷺ ، وماركس ولينين .. وتابعه فى ذلك السادة التنويريون جدًا !!

هـ - وحيدر حيدر فى تعليل الهجوم على روايته يرى أن الذى يتولى كبره هم الأصوليون فى سبيل مكاسب دنيوية أهمها الفوز فى الانتخابات القادمة .. هذا هو المنظور القريب الذى « سجله » حيدر أو سُجِّلَ له .. وأرى أنه « استلَّه » أو استولى عليه من تقييم التنويريين جدًا فى مصر .

وفى استعلاء أكبر يرى أن الهجوم عليه مظهر من مظاهر مخطط كبير وخطير يستهدف التنويريين والعقلانيين ، ويرى أنه واحد من هؤلاء ، وأنه واحد من ورثة أرباب الاجتهاد .. والحرية .. والعقلانية .. الذين حصرهم فى المعتزلة .. ودائمًا يربط بين الحرية وحركة الفكر والمعتزلة .. وهذا راجع إلى ضحالة ثقافته الإسلامية كما ألحنا من قبل .. ومع ذلك فهو مصرّ على الاجتهاد .. مصر على أن يكون واحدًا من المجتهدين فى التعامل مع « النصوص » المقدسة .. وهو لا يملك شيئًا من غُدَّة الاجتهاد .. فهو - كما يقول الشاعر العربى - « كساع إلى الهيجا بغير سلاح » !!.

وأقول لحيدر - وهو يربط بين الحرية و « أجداده » المعتزلة : إنهم على أيديهم وبتدبيرهم قامت أكبر مذبحه فكرية فى التاريخ الإسلامى لمن عارضوا رأيهم فى القول بخلق القرآن ، وكان لأحمد بن أبى دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠) وهو أحد زعماء المعتزلة القدح المُعلَّى فى الدعوة إلى خلق القرآن ، وامتحان الآخرين ، وتقييم أقوالهم ، واستخدام العنف معهم على مدى عهود الخلفاء الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق ، وبلغ من اعتزاز المأمون به أن أوصى به أخاه المعتصم فى وصيته الأخيرة قبيل وفاته « ... وأبو عبد الله بن أبى دؤاد ، فلا يفارقك ، وأشركه فى المشورة فى كل أمرك ، فإنه موضع لذلك منك » ^(١) .

وأمر المعلمون أن يُعَلِّمُوا الصبيان « عقيدة » خلق القرآن ، وقاسى الناس مشقة فى ذلك ، وقتل خلق من العلماء ^(٢) منهم أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم

(١) « تاريخ الطبرى » (٦٤٧/٨) . (٢) السيوطى « تاريخ الخلفاء » (٣١٠) .

الخراساني ، وهو من أشرف بغداد المستنكرين القول بخلق القرآن ، قبض عليه ، وقتله « الوائلي » بسامراء ، وبعث برأسه إلى بغداد ، فنصب فيها ست سنين ، وجسده بسامراء سنة (٢٣١ هـ) ، وعلقت في أذن الرأس رقعة كتب فيها « هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك » (١) .

وقبض على أتباعه ، ومريديه ، ووضع نيف وعشرون رجلاً منهم في الحبوس المظلمة ، ومنعوا من أخذ الصدقة التي يعطاها أهل السجون ، ومنعوا من الزوار ، وثقلوا بالحديد (٢) .

وكان أشهر من ابتلى بهذه المحنة التي فرضها المعتزلة على الأمة : أحمد ابن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) ، فضرب بالسوط ووضع القيود الثقيلة في رجليه ، وألقى به في السجن ، وظل فيه تسعة وعشرين شهراً .. وقد رجاه بعض أقاربه وأحبابه أن يقول بخلق القرآن تقيّة حتى ينقذ نفسه من هذه المحنة فرفض وقال : « إذا أجاب العالم تقيّة ، والجاهل يجهل .. فمتى يتبين الحق ؟ » (٣) .

هذا كان موقف المعتزلة من « الرأي الآخر » ، وأصحاب الرأي الآخر .. ترى أيقبل حيدر أن يعامله معارضوه كما كان أجداده « المعتزلة » يعاملون معارضيه ؟ أعتقد أن الإجابة ستكون بالنفي .. النفي الشديد !! .

* * *

ونعود - بعد هذا الاستطراد الذي كان لابد منه - إلى تعليل حيدر الهجوم عليه وعلى روايته ، ويتلخص في أمرين :

الأول : جرّؤ المهاجمين على تحقيق كسوب سياسية في الشارع المصري أهمها : حصد فوز مرّض في انتخابات مجلس الشعب في نوفمبر القادم .

والثاني : الاستجابة العملية لخطط كبير موضوع مقدماً لضرب التنويريين والعقلانيين !! .

(١) انظر : (تاريخ الطبري ١٣٥/٩) وما بعدها .

(٢) « تاريخ الطبري » (١٣٩/٩) .

(٣) صلاح الدين الصفدي « الوافي بالوفيات » (٣٦٥/٦ - ٣٦٧) .

وانظر : (عبد العزيز البدرى : الإسلام بين العلماء والحكام ص ٥٣) .

والواقع أنه لم يقل جديدًا .. بل ردد ما كتبه وألح عليه السادة « التنويريون جدًا » فى مصر المحروسة بصحفتها القومية وبعض صحف المعارضة .
والتعليل الأول مرفوض لعدة أسباب أهمها :

(أ) أنه مبنى على أن هذه الانتخابات القادمة ستكون نزيهة ، بريئة من تدخلات السلطة التنفيذية .. وهذا مشكوك فيه إلى أبعد حد ، استثنائيًا بما حدث فى كل الانتخابات السابقة .

(ب) أن الذين هاجموا الرواية ، وهاجموا وزير الثقافة ووزارته لنشر هذه الرواية الساقطة فى الحملة التى قادها حزب العمل كانوا يتوقعون ما حدث من السلطة التنفيذية والتى جاءت فى قرارات مصادرة صحيفة الشعب ، وتجميد نشاط حزب العمل ، ومعروف فى مصر .. بل أغلب البلاد العربية أن الكسوب الدنيوية مرتبطة أساسًا بإرضاء السلطة الحاكمة ، ومسايرة الحزب الحاكم .. لا معارضته ، والوقوف فى وجهه .

وأذكر هنا على سبيل الإلماع أن المظاهرات التى قام بها طلاب الأزهر وطلباته كانت مظاهرات « عفوية » لم يقدها حزب العمل ، ولم ينظمها ، ولم يَدُسَّ فيها المحرضين والمحرضات ، ولم يزد ما كتب فى صحيفة الشعب على فضح ما فى الرواية من سقوط ، وإثارة القراء لمعارضة هذه الرواية ، والاحتجاج على من نشروها بإرسال رسائل واحتجاجات موقع عليها للمسؤولين .. وكل أولئك من حق حزب - أى حزب - معارض ، ومن حق صحيفة .. أية صحيفة معارضة .. وما كانت هذه المظاهرات لتقوم إلا إذا كانت النفوس مهيأة لذلك بغضب عارم دفين ضد كتاب ساقط خدش دين أمة ونبيها ﷺ وقرآنها ، ونشرت عنه صحيفة « الأسبوع » قبل أن تكتب صحيفة الشعب كلمة واحدة عنه .. أما المسئولية الأصلية عن هذه المظاهرات فترجع لاثنتين : الكتاب وصاحبه من ناحية .. ووزارة الثقافة التى أعادت طبع الكتاب مرة أخرى ، وعرضته فى السوق بثمن بخس .. وما كان ألف مقال لمحمد عباس أو عادل حسين لتقييم هذه المظاهرات إلا إذا كانت النفوس مشحونة بالنقمة والغضب لدينها الذى أصابه حيدر هذا فى الصميم . وأمتنا - كما ذكرت فى مدخل هذا الكتاب معروفة - على مدار التاريخ بحاستها الدينية القوية .. وعلى الذين يلقون بالمسئولية على مقالات الشعب أن يسألوا

أنفسهم : لماذا لم تقم مظاهرات ضد حسن الألفى .. وصبور .. ويوسف والى ..
استجابة لمقالات مجدى حسين وعادل حسين وغيرهما !!؟ وهى مقالات نارية
ثائرة غاضبة مصحوبة بوثائق - أو ما يعتقد كُتّابها أنها وثائق - أعتقد أن الإجابة
واضحة لكل من أعمل عقله فيما دار وما يدور ، وفتح عينيه ، وألقى السمع وهو
شهيد !!

* * *

وذهاب حيدر إلى أن من عارضوه لا يتحركون من تلقاء أنفسهم ، وأن هناك
أيادى أجنبية أو صهيونية تحركهم ... كلام حيدر هذا لون من العبث الصغير
المكرر .. لأنها تهمة مستهلكة تثير غثيان أى عاقل ... هى التهمة التى يلصقها كل
دكتاتور بكل من يعارضه .. وهى التهمة التى يشهرها العجزة من صبية الأدب
والمفكرين فى وجوه الشرفاء .. والصهاينة يستفيدون من نشر كتاب حيدر لأنه
يعمل على تدمير الخلق والقيم الإسلامية والإنسانية .. وهو ما يتفق مع الأهداف
التي ترسمها بروتوكولات شيوخ صهيون .

أما اعتبار الهجوم عليه هجوماً مقصوداً به التنويريون والعقلانيون فى الأمة
كلها فيذكرنى بمنطق إحدى المثلثات المشهورات التى انكشفت فضائحتها المستورة ،
فحملت عليها الصحف العربية ، وبعض الصحف المصرية .. فما كان منها إلا أن
عقدت مؤتمراً صحفياً موسعاً ، وأعلنت فيه أن هذه الحملة ليست موجهة إلى بصفة
شخصية .. ولكنها موجهة إلى مصر أمناً جميعاً .. مصر التى أعتبر أنا رمزاً لها ،
ولفنها العظيم .

وللأسف وجدت من يصدقها ، ويدافع عن منطقها .. ساعتها عرفت لماذا
يهزمنا أعداؤنا .. ولماذا نتقدم إلى الخلف .. ونعلو إلى أسفل .. وهذا الادعاء
الحيدري يعتبر مظهرًا من مظاهر النرجسية أو توثن الذات الذى أصبح يهيمن عليه
هذه الأيام .. ومن كلماته :

« حينما أتكلم بوضوح عن علاقة الرجل بالمرأة يشعر هذا الجيل التقدمى
والثحرى بالقرب من هذا العمل الأدبى ، وعندما أقف بجانب المرأة أشعر أن
الأنثى العربية تقترب من أعماقى حيث أتحاور معها ، وأدعو إلى تحررها
الحقيقى .. لاهذا التحرر المزيف السائد .

يسأله السائل : أتعنى بذلك أنك تحدثت بلغة سابقة لعصرك ؟ يجيب حيدر :
ربما يقول النقاد ذلك .. وفي النهاية المتلقى هو الحكم .. فمن الممكن جدًا
أن ينظروا إلى أسلوبى على أنه الأبقى على مدار الزمن أكثر من أسلوب
الواقعية الذى تعلمناه فى المدارس والجامعات .. أقصد الأسلوب الأكاديمي ..
ويمكن أن نسميه الجمالية الأسلوبية التى تقترب أكثر من الأجيال الجديدة ،
وبالتالى تبقى أكثر^(١) .

ويتحدث عن نفسه على أنه أجراً من اقتراب وعالج المحرمات الثلاثة : الدين ..
والسياسة .. والجنس .. ويقول : إن الاقتراب للكتابة فى هذه المسائل يحتاج إلى
جرأة لا تتوافر فى أى أديب آخر غيره^(٢) .

* * *

٦ - ووصف حيدر روايته بأنها ليست خطاباً فكرياً أيديولوجياً يحاسب
عليه .. والشخصيات تعبر عن نفسها لا عما يؤمن به هو .. وقد تمادى التنويريون
جدًا فى التركيز على هذا المعنى : المؤلف ليس مسئولاً عما يَرِدُ على ألسنة
شخصيات الرواية لأنها شخصيات خيالية .. وكل ما يدور على ألسنتها خيالى
مخترع فكيف يحاسب المؤلف على خيال فى خيال ؟

وهذه المسألة بصفة خاصة تعتبر جوهرية أساسية فى الموضوع كله لما يترتب
على حسمها من إدانة أو تبرئة .. وابتداء نذكر القارئ بقاعدة نقدية لا ينكرها
أحد وهى أن الشعر يكون حظ « اللاوعى » فيه أقوى من حظ الوعى والتيقظ
الفكرى ، وربما كان الدفاع السابق أقرب إلى الشعراء منه لكتاب القصة ، ولا يفهم
من هذا أننا نقر الشاعر على أن يقول ما يشاء حتى لو كان فيه هدم للقيم وإساءة
إلى المقدسات بحجة أنه حديث اللاوعى ومنطق اللاشعور .. والمقام لا يتسع
لتفصيل هذه الحقيقة .. وبالنسبة للرواية - وهى أطول الأعمال القصصية -
لا يختلف اثنان فى أنها « من عمل الوعى » ونصيب اللاوعى فيها محدود ؛ وأثره
لا يبدو على كل حال فى التصميم الفنى للقصة ، ولا فى التعبير عنها إلا بمقدار ..

(١) أخبار الأدب - العدد ٣٦٦ ص ٩ .

(٢) انظر : السابق ، الصفحة نفسها .

فقد يكون له أثر في تلوين الشخصيات ، وتصوراتها ، وأفعالها .. ولكن أثره ضعيف في التعبير عن هذه التصورات والأفعال .. لأن التعبير في القصة يتم في حالة وعي كامل .. لا كما يتم في الشعر في بعض الأحيان تحت تأثير تيارات لا شعورية تغمر الوعي وتغرقه لحظات ^(١) .

فكاتب الرواية إذن مطلق الحرية ، وبوعي كامل : يضع تصميمها وتخطيطها ، ويحدد مغزاها الذي يفهم من السياق ، وبطريق غير مباشر ^(٢) ، ويحدد شخصياتها وطبيعتها ، وكذلك الأحداث والوقائع ، والبيئة التي تتحرك فيها الأحداث والشخصيات والحل أو انفراج الأزمة أو العقدة .

فاختيار الشخصيات والوقائع والأداء التعبيري يتم بإرادة حرة ، وإدراك واع ، ونظام محسوب .. وكل هذه العناصر توظف كلها - في بناء فني متلاحم - لخدمة الهدف أو المغزى الذي تغياه الكاتب الروائي قبل أن يكتب حرفاً واحداً في روايته .

وأصبح من البدهيات النقدية في العصر الحديث أن العمل الفني - مهما كان ضالغاً في الخيال - يكشف إلى حد كبير عن شخصية الأديب ، وواقعه النفسي والعقلي ، وتوجهه الأيديولوجي .. ومجموع هذه الآثار الأدبية حتى الخيالي المحض منها يستخلص منه ، بالنظر الفاحص ، والبحث المستبطن البصير - طبيعة الأمة والبيئة والعصر .. حتى قال هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) عن الملاحم الطبيعية كالإلياذة والأوديسة : « من يقبل على دراسة ملحمة ما يكون قد أقبل على دراسة أمة بتاريخها ومزاياها ، لتبين ما لديها من معطيات حيوية .. فمجموع الملاحم العالمية يشكل تاريخ العالم بأجمل ما فيه ، وأكثره حيوية وحرية » ^(٣) .

ولأستاذنا الدكتور أحمد الحوفي كتاب طالعناه من نصف قرن مضى عنوانه « الحياة العربية من الشعر الجاهلي » استطاع أن يقدم فيه أبعاد المجتمع الجاهلي في

(١) سيد قطب « النقد الأدبي أصوله ومناهجه » (ص ٨١) .

(٢) أحمد الشايب « الأسلوب » (ص ١٠٩) .

(٣) انظر : (أبو حاقه : في الشعر الملحمي ٤١) .

وارجع كذلك إلى : (موسوعة السياسة لعبد الوهاب الكيالي ، وآخرين : ٢١٤/٧ - ٢١٧) .

سلمه وحربه ، وعاداته ، وتقاليده ، ودياناته ، وطعامه وشرابه .. وكل ذلك اعتمادًا على استنطاق الشعر الذى نُقل إلينا عن الشعراء الجاهليين .. وبعد ذلك ، وعلى النهج نفسه قدم سفرًا أضخم هو « المرأة العربية فى الشعر الجاهلى » .

ومن الحقائق النقدية كذلك اختلاف الأساليب تبعًا لاختلاف المنشئين .. سواء أكانوا كُتَّابًا .. أم خطباء .. أم شعراء .. أم مؤلفين .. إلى غير هذا .. فالموضوع هنا واحد .. ولكن الأشخاص يتعدون ، فإذا بالأسلوب يختلف فى الفن الواحد باختلاف هؤلاء الأدباء .. إذ نرى لكل منهم طابعًا خاصًا - فى تفكيره ، وتعبيره ، وتصويره .. ممتازًا به من الآخر فى هذه العناصر .. وقد يصح لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين : « الأسلوب هو الأديب » أو الرجل^(١) .

وبناء على هذا التنظير - وهى قواعد لا خلاف عليها - يكون العمل الإبداعي دألاً على شخصية صاحبه فنيًا وفكريًا .. ومن ثَمَّ تنشأ مسئولية المبدع عن إبداعه ، فهو فى مجال الرواية مثلاً لا يختار عناصرها من مشاهد وأحداث وشخصيات ومغزى إلا على أساس فكرى ، وبوعى كامل .. وهو فى الأداء التعبيرى ينتقى أيضًا من الكلمات والعبارات سردًا وحوارًا ما يعد أنسب الأساليب وأقدرها على خدمة المضمون والمغزى الذى يحرص على إقناع المتلقى به .

ولكن حيدر حيدر يصير - ويؤيده فى إصراره كل « التنويريين جدًّا » - على أن شخصيات الرواية فى « وليمته » شخصيات خيالية ، تتكلم باسمها ومن ثَمَّ لا يكون مسئولاً عما يجرى على ألسنتها ، وما يدور بينها ، أو فى داخلها من حوار . وخيالية الشخصيات ، وما يرتبط بها من أحداث لا يصدق - كما يقول الدكتور أحمد صبرة « على مجال القيم والمعتقدات المعروضة فى الرواية .. إننا لا يمكن أن نقول : إن القيم هنا قيم خيالية لا علاقة لها بالواقع ، أو إن معتقدات إحدى الشخصيات لا تجد لها نظيرًا فى المجتمع ، أو إن أحاسيس فلان فى الرواية ليست بشرية إلا على سبيل المجاز^(٢) .

(١) أحمد الشايب « الأسلوب » (١٢١) .

(٢) الدكتور أحمد صبرة « تحليل السرد الروائى » (ص ٢٧٨) من دراسة فى مجلة فصول :

م ١٦ - العدد الرابع . ربيع ١٩٩٨ .

ومن عجب أن ينقض حيدر عمومية حكمه « بخيالية الشخصيات » ويعترف صراحة « بأن فلة بوعناب شخصية حقيقية قابلتها في الجزائر ، واخترت لها اسم (فلة) من عندي ، أعرفها جيدًا ، هي مناضلة مخذولة ، وهي ضحية الثورة ، كانت مناضلة ، وحولوها إلى عاهرة .. وهي ليست عاهرة بمعنى الكلمة ، لأنها لا تعشق إلا من تحب^(١) .. وذكرْتُ على لسانها النقد الموجه للسلطة الانتهازية .. كل سلطة انتهازية في الوطن العربي »^(٢).

وكل من كتبوا عن الرواية من مؤيدين ومعارضين - يجمعون ومعهم حيدر - على أن الرواية سياسية أيديولوجية ، وهذه الأيديولوجية الخاصة تعبر عن مجموعة من الأفكار في رأس الكاتب .. وهذه الأيديولوجية يقدمها بطرائق مختلفة ، قد تكون على لسان الشخصيات ، أو عبر السرد الروائي ، أو توظيف اللغة الأدبية .. وكل هذه الأشياء تقدم مجمل رؤية الكاتب للعالم .. فإذا كان هناك كاتب عنصري ضد السود فسوف يقول عمن يكرهه : إنه أسود أو عبد .. وإن كان ضد العرب فسيصفهم بالبرابرة .. فالأديب موجود بشكل أو بآخر في عمله .. والادعاء بأن الكاتب لا علاقة له بشخصياته ادعاء غير صحيح .. ذلك أن الشخصيات تنطق ، وتتكلم وتتحرك طبقًا لرؤية الكاتب للعالم^(٣).

ويرى الدكتور عبد الغفار مكاوي^(٤) أن فنية الأديب وقدراته العالية ينبغي أن تجعله يتجنب الزلل الذي يصدم الشعور الديني والأخلاقي العام .. وأديب كبير مثل ديستوفسكي عالج في « الإخوة كرامازوف » مسائل الإيمان والإلحاد بكل جرأة كفنان كبير ، ولا أظن أنه أغضب رجال الدين . وكذلك فعل « جيته » في « فاوست » .

والكاتب مطالب بأن يطرق أصعب المشكلات .. ولكن بروح فنية عالية .. « هنري ميللر » تحدث عن الجنس كجزء من الحياة .. ولكن بشكل لا يدعو إلى

(١) « هي ليست عاهرة بمعنى الكلمة لأنها لا تعشق إلا من تحب » عبارة غريبة جدًا ، وهو يعني أنها لا تزال الدعارة إلا لمن تفتح قلبها له .. وحيدر لا يعتبر هذا عهدًا أو دعارة بمعنى الكلمة .

(٢) روز اليوسف (ص ٢١ - العدد ٣٧٥٣ - ١٣/٥/٢٠٠٠) .

(٣) سلوى بكر في تحقيق حلمي النمنم ص ٥٣ ، مجلة المصور - العدد ٣٩٤٥ - ١٩/٥/٢٠٠٠

(٤) المصور : السابق (٥٣ ، ٥٤) .

الإثارة ، ولا يكون دعوة للفجور .. لأنه لو فعل ذلك فلن يكون أدبيًا حقيقيًا .
وقدم نجيب محفوظ الكثير من الشخصيات الشريرة والمنحرفة ولكن بمقدرة
أدبية عالية .. وليس أدبيًا كبيرًا من يصدم الشعور بفجاجة وابتذال .. وحتى لو كان
لديه شخصية ملحدة أو شاذة ، وخارجة عن المؤلف فيمكنه أن يقدمها بشكل
رمزى ، وأسلوب راق ، ومقدرة أدبية عالية .

* * *

وفي مقام محاولة التعرف على مسئولية الكاتب عما يكتب نرفض فكرة
التفريق بين الكاتب (أو المؤلف) والسارد (أو الراوى) لغموض هذا التفريق من
ناحية ، وخيالية الفكرة ، وعدم واقعيتها من ناحية أخرى .
فالروائي - كما يقول الدكتور مرتاض - حين يكتب رواية فهو الذى يكتب ،
وهو الذى ينشئ الشخصيات .. ويظل حاضرًا فى العمل الروائي .. فهو الذى
يهندسه ، وهو الذى ينسجه ويدبجه^(١) .

وهذا الحكم يساعدنا على تبين مسئولية الكاتب حيدر حيدر عن المضامين
التي عبرت عنها روايته .. واضح أن العناصر الروائية التي اشتركت في بناء الرواية
لم تبرز من فراغ فعليها الكثير من طوابع شخصية الكاتب وثقافته ومنهج حياته
وعقيدته ، وأيديولوجيته السياسية .. وهذا أمر طبعى لأنه يمثل قاعدة نقدية مسلمًا
بها ، مؤداها أن الكاتب - أيًا كان نوع العمل الأدبي الذى يكتبه - يستمد الكثير
من تجربته الشخصية ، كما يعبر عن كثير من آرائه وأفكاره ، وموقفه العام من
الحياة ومشكلات الإنسان في بناء عمله الفنى ، ومن ثم كانت الحقيقة النفسية التي
تقول : إن فهمنا لشخصية الكاتب - إذا كان ذلك متاحًا - يساعدنا كثيرًا في فهم
عمله الأدبي وتفسيره^(٢) .

١ - تبدأ مسئولية الكاتب حيدر - لافى اختيار موضوع روايته .. فكل
ما فى الحياة ومن فى الحياة يصلح أن يكون موضوعًا أدبيًا أو روائيًا - ولكن من

(١) فى نظرية الرواية ٢٤١ .

(٢) الدكتور عز الدين إسماعيل : التفسير النفسى للأدب ٢٢١ .

اختيار شخصياته .. فكلها أو أغلبها شخصيات غير سوية : مهدى جواد .. مهيار الباهلى .. فلة بوعناب .. آسيا بلخضر ... شخصيات استغرقها الجنس الحرام ، وتحكمت فيهم الشهوانية البشعة ، وكأنها رسالة حياة ، وشرعة وجود .. والحاج محمد شخصية لا تعرف من الدين إلا مظاهره ، وكذلك الغلو والتطرف الباطل المقيت .. وزوج لا لا فضيلة (الثانى) يزيد ولد الحاج لا يهتم فى حياته إلا متع الحياة من فراش .. وطعام .. وشراب ويعيش متسلطاً دكتاتوراً فى أسرته .

٢ - والإدانة الثانية للكاتب تتمثل فى كثير جداً من الحوار الذى أجراه على ألسنة الشخصيات .. وهو حوار - فى أغلبه ساقط سافل شكلاً ومحتوى - كما ذكرنا من قبل .. وكانت صورة الشخصيات الشاذة التى رسمها حيدر نقطة دفاع عن سفول هذا الحوار .. فإذا ما اعترضت على هذا السفول أذاك الجواب الغاضب : هذه هى الواقعية ، أتريد أسلوباً راقياً من عاهرة كُفَّلة بوعناب ؟

والدفاع عن الرواية بأنها صورت الواقع حتى فى أدائه التعبيرى السائد فى مسرح الأحداث .. ومن ثمَّ توافرت لها المصدقية الفنية ... هذا الدفاع يعتبر ساقطاً بكل المفاهيم النقدية .. والدكتور القط الذى تولى زعامة الدفاع عن الرواية يقول :

« ... فليس شرطاً إذن أن تتحدث الشخصية كما تتحدث فى حياتها اليومية .. وليس من ضرير أن يترجم المؤلف أفكار الشخصية وعواطفها من العامة التى تتحدث بها فى واقع الحياة إلى ما يمكن أن تنطق به لو أتيح لها أن تتكلم بالفصحى .. فالواقعية ليست واقعية مادية ، ولا محاكاة حرفية للواقع .. ولكنها واقعية فنية تصور ما يمكن أن يكون »^(١) .

فمن البدهيات النقدية أن التعامل الواقعى الفنى مع معطيات الحياة يخضع لمبدأين :

الأول : مبدأ الانتقاء .. فالمبدع ينتقى من الحياة الوقائع والأحداث والشخصيات التى يوظفها فى عمله الأدبى .
والثانى : مبدأ التصفية أو التنقية مروراً بالوجدان الفاعل ، والعقل المميز

(١) عبد القادر القط « من فنون الأدب » (ص ٣٩) .

القدير .. وإلا كانت الواقعية .. واقعية تسجيلية راصدة .. تدخل فى نطاق العلوم الإنسانية .. كالاتحاد والتاريخ .

* * *

وإذا سلمنا جدلاً بأن الكاتب الروائى غير مسئول عن الحوار الذى يدور على ألسنة الشخصيات فهو مسئول عن أسلوبه ومضامينه فى السرد حيث إن مساحة الحرية الممنوحة له أوسع مدى ، وهو فى هذه الحالة لا يستطيع أن يزعم أنه واقع تحت سطوة شخصية من شخصياته يحرض على أن يجرى على لسانها ما يناسبها .. وفى سرد الوليمة من معجم السقوط الجنسى والدينى الكثير .. زيادة على عرض كثير من ملامح الأيديولوجية الماركسية .. فهو يرى فى سرده الروائى أن المسيرة التاريخية لا ولن يستقيم أمرها إلا إذا وجهته هذه الأيديولوجية .. كتب عن مهيار الباهلى أحد رءوس الماركسية ، ورفيق مهدى جواد فى « النضال » ... ولأمر ما خارج عن طوعية مهيار ورغبته ، واندفاعه وبرأته ، وصدقه اللامحدود ، ونبله ، كان التاريخ ينأى عن تناول يديه ، ويتشكل كالأباريق على أيدى خرافين آخرين يصنعون التاريخ بشكل مغلوط ومشوه يدعو للثناء .. وفى غضون جبهته وخطوطها الخمسة كان يتجلى الألم والغضب معاً .. هناك كنت تقرأ أن الأشياء ليست هى الأشياء التى يبيعها ، وأن هذه التفضينات والتموجات الصدغية تشكلت من هذه الخيانة الواقعية للتاريخ الملعون الذى صدم تهيؤات النفس بما لم تكن تتوقع^(١) .

وكثيراً ما تعرض الرواية بالوصف والسرد مشاهد جنسية صارخة غاصة بالأسماء الجنسية الصريحة ، وقد يستغرق المشهد الواحد عدة صفحات ، ويتلبس فيه السقوط الجنسى بالجرأة على الدين ، والاستهانة بالمقدسات .. كهذا المشهد الطويل العريض للقاء آثم طال بين مهدى جواد ، وتلميذته آسيا بلخضر .. ومنه العبارات الآتية التى تعتبر أقل حدة من بقية العبارات الصريحة الصارخة فى المشهد :

(١) « الوليمة » (٢٥٦) .

(٢) انظر : (الوليمة ص ٦٧٦ ، ٦٧٧) .

- ... لأول مرة يستحمان معاً بعريهما الكلى .. هى ترى تفاصيل جسده ، وهو يرى !! .
- ... وهى تتجلى تحت البصر الآن (عارية) فاقدة قداستها وحرمتها الدينية أكثر جمالاً وطفولة وتناسقاً وتطهيراً للنفس !! .
- بين الضحك .. ورشق الماء .. والبذاءات المقدسة .. والتضام العارى .. والصيحات البدائية كانت النشوة .

* * *

وقد ذكرنا فى ختام القسم الأول من هذا الكتاب أن كاتب الرواية حيدر حيدر - وقد أرهقها بسبيل لا ذوقى ولا أخلاقى ولا دينى من الألفاظ والتراكيب - كان مندفعاً بالوعى أو اللاوعى أمام ضغط معجم لغوى خاص .. وهذا الإفراز اللغوى المنكود المرفوض يفتح المجال - فى سماحة - لدراسة شخصية حيدر بكل أبعادها !! .

والمعجم اللغوى الخاص يعنى أن المبدع يكثر من توظيف ألفاظ معينة فكأنها لازمة من لوازمه الفنية والفكرية . ومنها يمكن استخلاص أحكام تتعلق بالكاتب . فإذا ما أخذنا المتنبي مثلاً رأينا أبا العلاء المعرى فى رده على رسالة ابن القارح يقول : « ... كان الرجل مولعاً بالتصغير ، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير كقوله :

- مقالى للأخيمق يا حلیم

- ونام الخویدم عن لیلنا

- أفى كل يوم تحت ضیبنى شویعر

وغير ذلك مما هو موجود فى ديوانه ، ولا ملامة عليه .. إنما هى عادة صارت كالطبع^(١) ، وكان ابن القارح فى رسالته إلى أبى العلاء يعترض على قول المتنبي : « أذم إلى هذا الزمان أهيله » .. وجاء رد المعرى ملاحظاً ظاهرة التصغير فى شعر المتنبي ، مجيزاً لها .. وهذا ما لاحظته عباس العقاد ، ورأى أن إكثار المتنبي من

(١) « رسالة الغفران » (٢٨ ، ٤١٤ ، ٤١٥) .

استخدام صيغ التصغير ليس عادة صارت كالطبع .. إنما هي عادة في الطبع والخلق .. فهي « من الطبع ، وفيها ترجمة عنه ، ومجاراة لنوازه »^(١).

وهذه السمة اللغوية هي مظهر من مظاهر طموحه وتعاضله ، وشعوره الضخم بذاته « فإذا ازدري شيئاً ضئيلاً ، أو رجلاً حقيراً فذلك ازدراء يشوبه الضغن ، ويضاعفه ظل العظمة الملقى عليه .. فإذا الشيء شؤىء ، وإذا الرجل رُجبل ، وإذا عادة المبالغة في الاستصغار موصولة بعادة المبالغة في التفخيم ، أو هي هي ... وأكثر ما يرى المتنبي « مصغراً » حين يهجو مغيضاً محنقاً ، أو يستخف متعالياً محتقراً ، كما يقول في كافور :

أولى اللثام « كَوْفِير » بمعدرة في كل لؤم وبعض الغدرِ تَفْنِيدُ
ومن تصغيراته في شعره (الخويدم - نُوبية - « تصغير نُوبية » - نُوبِي
« تصغير نوبى » - أَخِيْمَق - شويعر - أهيل ، شويهات - أطيغال ...)^(٢).

وقد تتبع العقاد ما في ديوان أبي نواس من ألفاظ الجنس والشذوذ والتهتك ، وخلص منها إلى أنه كان مصاباً بأفة النرجسية ، وما يلحق بها من لوازم مثل الاشتهاؤ الذاتى ، والتوثين الذاتى^(٣).

* * *

والمعجم الحيدري - أو معجم الهبوط - كما سميناه ، وقد عرضناه في الجزء الأخير من القسم الأول من هذا الكتاب - يقودنا إلى صورة كاتب أيسر ما يقال عنه أنه مستهين بالقواعد والقيم الدينية ، والثواب الخلقية ، والأعراف الاجتماعية ، مما جعل الدكتور فؤاد زكريا يصفه :

« بانعدام الحس الاجتماعى » مما جعله يستخدم في حواراته عبارات بذينة تجرح مشاعر المسلمين جرحاً عميقاً ، وعذره كما يقال هو أنه كان يريد أن

(١) العقاد « مطالعات في الكتب والحياة » (ص ١٨٢) .

(٢) انظر : (العقاد : السابق ١٨٩ ، ١٩٠) .

(٣) انظر : (العقاد : أبو نواس : الحسن بن هانئ ٣٣ - ٦١) ، وانظر : (جابر قميحة : منهج

العقاد في التراجم الأدبية ٣٨١ - ٣٨٦) .

يعرض وجهة نظر الشخص الملحد .. مع أن هاك طرقاً عديدة يمكن بها التعبير عن موقف الإلحاد لا تتضمن تلك العبارات السوقية البذيئة»^(١).

هذا زيادة على ضعف الحس الأدبي في مراعاة قواعد الذوق ، وانعدام الحس الدينى ، حتى أنه يتحدث عن نفسه - باعتداد زائد - بأنه أجراءً من اقتراب ، وعالج المحرمات الثلاثة : الدين والسياسة والجنس . ويقول : إن الاقتراب للكتابة فى هذه المسائل الثلاث يحتاج إلى جرأة كبيرة لا يمكن أن تتوافر فى أى أديب آخر غيره^(٢).

وقد انتهت الدراسات النفسية إلى الوصول إلى عدة حقائق تتعلق بالخصائص الكبرى للتفكير الإبداعى من أهمها الحساسية المرفهة لإدراك ما تنطوى عليه مواقف الحياة المختلفة من ثغرات أو مشكلات . وتعتبر هذه الحقيقة نقطة الانطلاق للتفكير المبدع^(٣).

* * *

٧ - وقد هوجم حيدر لأنه أتى بنص فى روايته يصف القرآن بأنه خراء .. والنص حرفيًا هو :

« الوعى العميق بالتاريخ غائب وهؤلاء يهمشون التاريخ ، ويعيدونه مليون عام إلى الوراء .. فى عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر يحكموننا بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن خراء !! »

والعبارة السابقة جاءت على لسان مهيار الباهلى وهو يتحدث على الشاطئ فى جلسة حضرها مهدي جواد وفلة بوغتاب .. وقد دفع حيدر حيدر هذه التهمة عن نفسه بما يأتى :

(أ) كلمة خراء قبلها نقطة ، وبعدها علامة تعجب ، فهى مقطوعة الصلة بالقرآن . والمقصود وصف الهذيان الذى هيمن على المتكلم .

(١) حقائق غائبة فى قضية الوليمة . مقال للدكتور فؤاد زكريا ص ٥٦ - المصور - العدد ٣٩٤٥

(٢) أخبار الأدب - العدد ٣٦٦ ، ص ٩

(٣) الدكتور مصطفى سويى : الشروط الاجتماعية للإبداع (١٤ - ٢٢) من مجلة فصول .

(م ١١) - العدد الأول - ربيع ١٩٩٢

(ب) جاء بعد ذلك من يرد عليه (وهو مهدي جواد) .
(ج) كلمة الخراء ، وخصوصاً إذا جاءت مع الرب لا تعني الإساءة إلى الله ،
ولكنها تعني خلصنا من هذه الحكاية .

* * *

وهو دفاع هزيل ساقط لأن بقاء النقطة لا يغير من المعنى شيئاً .. بل يرفع من
درجة سريان الوصف للقرآن وما قبله . وتكون الكلمة في هذه الحال خيراً لمبتدأ
محذوف تقديره (هى) أى (المذكورات السابقة) . ومن ثمّ فهى جزء من الفقرة ،
ولا تصلح أبداً أن تكون بداية للفقرة التالية فبدايتها « كان مهدي جواد يتملى
البحر من خلال الزجاج ... » .

ولا تصلح أن تكون بدايتها :

« خراء كان مهدي ... » .

وبعد كلمة « خراء » فى الطبعتين فراغ بمساحة ثلاثة أرباع سطر .. وفى
السطر التالى تبدأ الفقرة الجديدة مسبقة « بالبياضة » التى تدل على بداية الفقرة .
وقول حيدر بأنه قد جاء بعد ذلك من يرد عليها يعنى أنه يكذب نفسه ..
لأنه يثبت هنا أن الوصف غير لائق ، فكان لا بد أن يكون هناك من يرد عليه .
ووجود من يرد عليه كذبة أخرى فبعد الفقرة السابقة مباشرة والمسبقة
بـ (خراء) :

كان مهدي جواد يتملى البحر من خلال الزجاج المغبش . مراقباً الدوران الأبله
لطيور النورس التى تقترب من الصيادين ، وقد شحبت ظلالهم فوق الصخور ،
ولكى يبعد عن رأسه طنين الكلمات الضخمة التى يطلقها عقل السيد الباهلى
الملثاث كان يسلس العنان لخياله ، متمصّصاً ريش طائر بحرى ... »^(١) .
وهذه الفقرة لا تحمل ردّاً ، ولا شبه رد .. فمهدي لم ينطق بكلمة واحدة ،

(١) « الوليمة » (١٢٩) .

والفقرة وصف لمهدى وخواطره ومحاولة هروبه النفسى من ثرثرة مهيار الذى أفسد الجلسة الجميلة الشاعرية بمحاضرة ثقيلة لا تناسب هذه الجلسة الجميلة الشاعرية .. فهى محاضرة ثقيلة ، بكلمات طنانة يطلقها عقل ملتاث فى مقام لا يناسبها ، لأنه مقام متعة .

* * *

وقد خالطت فى العمل الجامعى ، والأعمال العلمية ، وسنوات الدراسة الجامعية .. لعشرات من السنين — إخوة من الشام والعراق والجزائر ، فما سمعت واحدًا منهم استعمال كلمة الخراء بالمعنى الذى ذكره حيدر . إنها عملية كذب .. وتزوير .. وهروب غير شريف .

٨ - أما إساءة الرواية إلى الجهاد الجزائرى حتى فى أنقى فتراته فهى أوضح من أن تحتاج إلى شرح وتفصيل .. وليرجع القارئ إلى الكلمات التى أجراها حيدر على لسان فلة بوعناب المناضلة التى كانت تزاوّل الدعارة مع المجاهدين فى كهوف الجبال .. فكيف يتفق هذا مع مشهدهم وهم « يهبطون من الجبال المصبوغة بالدم ، ويهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى ، وكل مجاهد علق على صدره قرآنًا عربيًا كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبي »^(١).

* * *

لقد قال الرجل ، وما زال يقول ، ومن حقه أن يستشعر الاستعلاء ، ويميل رأسه صَيِّدًا ، وينظر إلى معارضيه من غلٍ ، وهو يرى الصحافة المصرية « القومية جدًا » ، وكل الصحف المستقلة والحزبية تلمعه بجنون ، وتنفخ فيه بخبل ، وتعانقه فى حرارة ، ويرى وزير الثقافة المصرية يعلن أن الرواية تدعو للإسلام ، وتنتصر له ، ويرى شخصيات من الوزن الصحفى الثقيل تسعى إليه فى قريته ، وتحقق حلم حياتها بحديث معه ، أو « أخذ » صورة بجانبه فى « أوضاع » متعددة ،

(١) « الوليمة » (٥٠٣) .

ويرى صحيفة مصرية تنشر إبداعه « الفذ » على حلقات .. وأراني أردد قول رسول الله ﷺ : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

* * *

لقد عرضنا في الصفحات السابقة تقرير لجنة الدكتور القط ، ورأينا ما فيه من دفاع عن الرواية الحيدرية مستميت ، وهو دفاع في مجموعه وتفصيلاته يجافى الحق والحقيقة .

كما عرضنا دفاع حيدر عن نفسه وعن روايته ، ورأينا ما فيه من هشاشة وسقوط . وبينما كنا نهم بدفع كتابنا هذا إلى المطبعة - بعد الجمع التصويري والمراجعة - فاجأنا الأستاذ محمد حسنين هيكل بدراسة عميقة نالت فيها رواية حيدر مساحة واسعة^(١) وأعتقد أن « التنويرين جدا » حتى الغلاة منهم لن يهتموا الأستاذ هيكل بأنه لم يحسن قراءة الرواية ، أو أنه قرأها قراءة رديئة ، أو أنه أساء فهمها ، أو عجز عن فهم ما وراء النصوص والعبارات ... إلخ .

ومن الأحكام التي ساقها في دراسته ما جاء موافقاً لما في هذا الكتاب ، ومنها جديد لم نعرضه ، ولم يعرضه أحد من قبل ، بقدر علمي . وخصوصاً ملاحظاته التي تسجل وجوه شبه أو اختلاف بين سلمان رشدي وروايته « آيات شيطانية » من جهة ، وحيدر حيدر وروايته « وليمة لأعشاب البحر » من ناحية أخرى ، وفي السطور التالية نقدم أهم النقاط التي تمثل رؤية الأستاذ هيكل في هذا المجال :

١ - ما أثير حول قصة نشر رواية حيدر في مصر لم يكن في حقيقة أمره مسألة تتصل بالحرية . ولكن جوهر القضية أن مؤسسة من مؤسسات الدولة - هي وزارة الثقافة - أعادت نشر الرواية ، وهذا يعتبر قراراً بتركية العمل عن رغبة في تعميم فائدته الأدبية ، زيادة على الدعم المادي ، فالنسخة الواحدة تتكلف عشرة جنيهات ، وتباع بأربعة جنيهات فقط .

٢ - كان الأسلوب الذي لجأ إليه الدفاع عن « الوليمة » هو الاستدعاء الوهمي لقيم عظيمة في غير مجالها ، مثل الحق والحرية ، ومثل الاستنارة والتنوير ،

(١) على أطراف الدين والسياسة والأدب (٤ - ١٣) - وجهات نظر - العدد ١٨ - السنة الثانية - يوليو ٢٠٠٠

ومثل العلم والثقافة . وجرى رسم الخطوط لمعارك مهيبه : مثل الانتصار للعقل ضد الخرافة ، والوقوف مع الفن والأدب ضد الجهل والأسطورة ، والتقدم مع جيوش النور حتى تندحر جيوش الظلام ... إلخ . والحقيقة أنه ليس هناك ما يسيء إلى القيم مثل استدعائها إلى غير مجالها .

٣ - تصرفت وزارة الثقافة على عجل ، كما يتصرف رجل وقعت من حوله الجدران أثناء وجوده في الحمام ، وأخذته المفاجأة فلم يعرف كيف يتصرف . وعجزت لجنة الأدباء والكتاب أن تجد لها مخرجاً في مطلب الحرية والتنوير ، لأن ذلك لم يكن موضوع الأزمة ، لأن موضوعها كان تركية عمل مدعم بأموال الشعب .

٤ - راح الأدباء والكتاب المدافعون عن الرواية إلى اعتبار أنفسهم « هيئة مثقفين » لها تكوين وتنظيم وسلطة دون معيار متفق عليه ، وبغير اعتراف يمنح الشرعية بالقبول . ثم صدرت منهم بيانات لم يتنبه أصحابها أنهم خسروا المعركة قبل الطلقة الأولى ، فقد استطاع الآخرون وضعهم في موقف يبدو وكأنه معادٍ لقيم الدين والفضيلة .

٥ - ومن مقولات هؤلاء أن النص الروائي يفهمه المتذوق الفني ، وليس القارئ العادي .

وذلك منطبق يجعل العمل والنقد الأدبي « دردشة » بين أفراد صفوة تعرف بعضها ، وتتلاقى في دوائرها ، وتتقن لغة خاصة يجرى لها الحديث بين أصحابها بما يغني عن الكلام مع بقية الناس .

٦ - ويدعى هؤلاء أن بعض العبارات المقتطعة من نص « أدبي » اجتزاء متعمد لبعض نصوصه . وهذا غير صحيح على إطلاقه ؛ لأن جمهورهم لم يقرأ أعمال أفلاطون ، أو أرسطو ، ولا « رسائل إخوان الصفا » أو « مقدمة ابن خلدون » ، لكن هؤلاء اطلعوا على أجزاء وإشارات أعطت للجزء مصداقية الدلالة على الكل . وكتاب « رأس المال » لكارل ماركس الذي قسم العالم إلى معسكرين عقائديين ونوويين لم يقرأه كاملاً إلا بضعة مئات من العلماء والدارسين على امتداد قرن ونصف ، ولم يكن هناك من قرأ ، وإنما كان هناك من سمع .

٧ - ومن نقط الالتقاء بين حيدر حيدر وسلمان رشدي :

(أ) ادعاء كل منهما ، وادعاء من دافع عنهما أن « الرواية » تمثل « دفاعاً » عن الإسلام ، وقد رأينا وزير الثقافة المصرى « والتنويريين جدا » يصرون على أن رواية الوليمة تعلو من شأن الإسلام والتجربة الدينية .

(ب) تبرئة الكاتب اعتماداً على نظرية « التخيل » : فأبطال « الوليمة » عليهم وحدهم مسئولية ما نطقوا به فى حوارات « المتخيل » من مشاهد القصة ، وهو - كما يقول هيكل - صدى لدفاع « سلمان رشدى » بمقولة أن المغضوب عليه فى سياق « آيات شيطانية » لم يكن غير أحلام رآها النائم فى نومه . وهل يسأل نائم عن الأحلام حين تزور ؟

(ج) وهناك وجه شبه طارئ على شخصية الرجلين وهو « الشعور الحاد بالتضخم النرجسى » ، وقد ذكرنا فى الصفحات السابقة من الكتاب أن حيدر حيدر كان يفخر بأنه « أجراً » كتاب العربية على الخوض فى الدين والسياسة والجنس ، وأن أسلوبه هو أسلوب المستقبل ، وأن الهجوم عليه هجوم ظلامى على التنوير والثقافة والعقل والحرية ... إلخ .

وننقل عن هيكل سطوراً مما روته زوجة « سلمان رشدى » التى عاشت معه أيام صدور روايته ، وهى الكاتبة الأمريكية « ماريان ويجنز » « ... كان سلمان سعيداً وهو يستمتع بالضجة التى ثارت حوله ، وبالشهرة التى تحققت له ... وأنها وجدتته رجلاً أنانيًا بلا قضية حقيقية ، وأن الضجة من حوله أضافت إليه « ورماً » من الغرور بحجم القيل ... » .

* * *

هذه شهادة هيكل ، وهى شهادة تاريخية مهمة ، وترجع أهميتها إلى أن التنويريين جدا يعجزون عن اتهامه بأنه لم يقرأ رواية حيدر ، أو أنه قرأها قراءة رديئة ، أو أنه واحد من « الظلاميين » .

وعودا على بدء نذكر القارئ بأن حيدر والتنويريين وظفوا كل الوسائل فى الدفاع والعدوان ، ومنها التزوير ، والمغالطات والتلاعب بالألفاظ ، واستعداد المسئولين . ومما يؤسف له أنهم أقحموا كتاب الله العظيم فى الدفاع عن حيدر وعن مستنقعه العفن . وهذا ما نفصل القول فيه فى الصفحات التالية .

وبالقرآن يدافعون عنه !!!

باب جديد طرقه الذين يدافعون عن حيدر وروايته ، ما كنت أحب أن يطرقوه لأنه لا يخدم غرضهم إلا في الظاهر ، وعلى سبيل التعسف والتعنت والافتعال .. وأعنى به الاستشهاد بالقرآن الكريم في تبرئة حيدر من إثم العبارات الساقطة التي تسيء إلى الدين والقيم والخلق . واستعانهم بالآيات القرآنية يعتمد على تنظيم أجزاء القضية على النحو الآتى :

- جاء فى القرآن على ألسنة أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين واليهود أقوال تعبر عن كفر بواح وإساءة إلى القرآن والرسول ﷺ .
- فمسئولية هذه الأقوال واقعة على أصحابها .
- وجاء حيدر بعبارات سيئة يفهم منها الإساءة إلى الدين والخلق على ألسنة شخصيات روايته « وليمة لأعشاب البحر » وهى شخصيات خيالية مخترعة ، وهذه الأقوال السيئة تعبر عن جوانيتهم ومعتقداتهم .
- ومن ثم لا تقع المسؤولية على كاتب الرواية .

* * *

وفى الصحف والمجلات رأينا حماسة قوية للفكرة التى عبر عنها أصحابها بمقالات ذات عناوين زاعقة مثل : هل نصادر القرآن^(١) ؟ هل نحذف الآيات التى تعرض حجج المشركين من كتاب الله^(٢) ؟

(١) مقال لرجب البنا : مجلة أكتوبر - العدد ١٢٣٠ - ٢٠٠٠/٥/٢١

(٢) مقال لمحمد مسعد - صحيفة القاهرة - العدد الخامس ٢٠٠٠/٥/١٦ ، وانظر كذلك مقالاً بعنوان : إساءات الكفار للذات الإلهية ، للدكتور عبد الله النجار (ص ١٦ ، ١٧) من مجلة روز اليوسف - العدد ٣٧٥٤ - ٢٠٠٠/٥/٢٠

ولكن التشبيه أو القياس مع الفارق الكبير جدًا ، ولو أن « حيدر » استأنس بمنهج القرآن ، وأخذ نفسه .. ولو ببعض ملامحه ما عرض نفسه للبلاء أو المؤاخذة :
١ - فما أورده القرآن من أقوال أعداء الإسلام أقوال حقيقية واقعية منسوبة لشخصيات حقيقية ، وإن لم يورد أسماء أصحابها .

أما الحوارات فى الرواية فهى كما يقول كاتب الرواية خيالية منسوبة لشخصيات من صنع الخيال .

٢ - أقوال أعداء الإسلام جاءت فى القرآن - على ما حملت من كفر وافتراءات - بلسان عربى مبين ، وأسلوب رفيع بليغ يتسق مع الأداء القرآنى المعجز .
أما الحوارات الحيدرية فكثير منها سوقى هابط المستوى قبيح الخيال .

٣ - يورد القرآن أقوال المشركين وحججهم ، ويعقبها بالرد عليها بحجج وأدلة مفصلة ، أو موجزة ، أو بتهديد ووعيد .

أما أغلب ما أثير فى الحوار الحيدرى فلم يرد معه ردود ، وكذلك ما أثير فى السرد من باب أولى .

٤ - ما جاء فى القرآن من مواجهة ودفاع كان ترسيخًا لحقائق ومفاهيم بدونها لا يستقيم الوجود الإنسانى الراقى والعقل الرشيد ، والعلائق الإنسانية الطيبة ، والقيم الحية البناءة .

أما معروضات الرواية من حوار وتعليقات عليها فلم تكن تهدف إلى هذا أو بعضه .. إنما كانت فى مجموعها تجريحًا للعقيدة والموروثات ، وإثارة للغرائز الدنيا ، ونقصًا للحد الأدنى من الذوق .. وهذه الطوايع لا يعدمها القارئ فى تضاعيف السرد الروائى كذلك .

* * *

وأعداء الإسلام الذين اعترضوا عليه ، وحاربوه ، وتقولوا عليه يمثلون فى فئات ثلاث هى : الكفار والمنافقون واليهود .. ونحاول فيما يأتى أن نعرض بعض مفتريات هؤلاء كما عرضها القرآن لنتبين طريقتهم ونهجمهم فى النيل من الدين والقرآن والرسول ﷺ ، وكذلك تفنيد القرآن لدعاوهم وادعاءاتهم لتوضيح منهجه كذلك فى هذا السبيل .

ولنبداً بالكفار وبعض مواقفهم وأقوالهم :

مع بداية الدعوة لما نزل عليه ﷺ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١)
صعد الصفا فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا : مالك ، قال :
« رأيتمكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني ؟ » قالوا :
بلى . قال : « فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ، قال أبو لهب : تباً لك ..
ألهذا دعوتنا وجمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ
عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي
جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾^(٢).

فالرد القرآني هنا جاء على سبيل الوعيد المفصل مع بيان أمرين :

الأول : أن المركز المالي والاجتماعي لأبى لهب لن ينقذه من النار .

والثاني : إشارة إلى جريمة من جرائم امرأته ، وهى إلقاء الشوك فى طريق
الرسول ﷺ ، فجاءت « حيثية » لإدانتها وتعذيبها .. وإن لم يكن لها يوم الصفا
حضور أو اعتراض على النبي ﷺ

* * *

ووصفوا القرآن بأنه سحر ، وأنه أضغاث أحلام ، وأنه أساطير مملأة على
محمد ﷺ ، وأنه قول بشر .

- ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سَحَرٌ يُؤْتِرُ ﴾^(٣) .
- ... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ سَحَرٌ مُّبِينٌ ﴾^(٤) .
- ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ... ﴾^(٥) .
- ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾^(٦) .

(١) سورة الشعراء ، الآية (٢١٤) .
(٢) سورة المدثر ، الآية (٢٤) .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية (٥) .
(٤) سورة الفرقان ، الآية (٥) .
(٥) سورة المسد ، الآيات (١ - ٥) .
(٦) سورة سبأ ، الآية (٤٣) .

- ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبْنِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾^(١) .

وقد نفى القرآن الكريم كل هذه الافتراءات فى آيات متعددة ، وبين مصدر القرآن ، وصفاته الجليلة .. ومن ذلك قوله تعالى :

- ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) .

* * *

ومن وسائل الكفار فى التضليل محاولة « تعجيزهم » لرسول الله ﷺ بمطالب لا يهضمها عقل ، ولا يستطيع أن يحققها أو يحقق بعضها إنس أو جن .. فإذا ما ظهر عجز النبي ﷺ عن ذلك أشاعوا أنه ليس بنبي مرسل ، لأنه عاجز عن الإتيان بالمعجزات .. ومن هذه الطلبات التعجيزية ما عرضه القرآن الكريم فى الآيات التالية من سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَاتًا * أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِوَقِيلِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾^(٣) .

وكان الإيجاز المكثف هو أقوى الردود وأوفاهها على هذا التعجيز المفصل .. إن الله لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .. والاعتراض على الرسول البشر ،

(١) سورة النحل ، الآية (١٠٣) . (٢) سورة الحاقة ، الآيات (٤٠ - ٤٢) .

(٣) سورة الإسراء ، الآيات (٩٠ - ٩٥) .

أوبشرية الرسول ﷺ كان قائماً في نفوس الناس من قديم .. ولكن الله لم يستجب للناس في هذه لطفاً بهم ، وذلك لاختلاف الطبعين . خلُقًا وخلُقًا : الملائكة الذين خلقوا من نور ، والبشر الذين خلقوا من طين^(١) .

* * *

وقد رسم القرآن الكريم ملامح صورة المنافقين في دقة ووضوح فاضحا أكاذيبهم وأباطيلهم ، كما نرى في الآيات الآتية :

- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِئِمُ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتِ ثَجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾^(٢) .

لقد قدمت آيات سورة البقرة صورة جامعة للمنافقين ، وثمة ملامح أخرى عرضتها آيات أخر ، منها :

- ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٣) .

وهم جبناء كذابون ، ولا يبالون أن يحلفوا بالله كذباً وزوراً جرياً وراء نفع أو اتقاء لعقاب .

(٢) سورة البقرة ، الآيات (٨ - ١٦) .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٧٧/٥ .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٦٧) .

- ﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ^(١) .
- ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) .
- ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ... ﴾ ^(٣) .
- ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٤) .

ولخطورة النفاق حكم الله سبحانه وتعالى على النفاق بأنه كفر ، وأن مصير المنافقين والكفار سواء : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ ^(٥) .

وفى الآية توجيه كريم للمسلمين ألا يجالسوا المنافقين وهم يخوضون فى أحاديث الكذب والنفاق حتى لا يحكم عليهم - وهم ساكتون لا يعترضون - بأنهم منهم ، أو أنهم قصروا فى الدفاع عن الإسلام .
ومنهم جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ، ويقولون هو أذن سامعة يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقه ^(٦) .

ومنهم من يقول : إن عاتبنى حلفت له ما قلت هذا ، فيقبله ، فإنه أذن سامعة ، أى مستمع وقابل ^(٧) ، وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلٍّ أَدْنَىٰ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٨) .

* * *

- | | |
|------------------------------------|------------------------------------|
| (١) سورة التوبة ، الآية (٥٦) . | (٢) سورة التوبة ، الآية (٦٢) . |
| (٣) سورة التوبة ، الآية (٧٤) . | (٤) سورة المنافقون ، الآية (٢) . |
| (٥) سورة النساء ، الآية (١٤٠) . | (٦) « تفسير الطبرى » (٢١٥/١٠) . |
| (٧) « تفسير القرطبي » (٣٠٣١/٤) . | |
| (٨) سورة التوبة ، الآية (٦١) . | |

أما اليهود فكان أمرهم أشد وأنكى .. فقد دأبوا على الإساءة إلى الرسول ﷺ والصحابة ، ووصف الله سبحانه وتعالى بما لا يصدر إلا من الكفار والملاحدة .. مع أنهم أهل كتاب .. من ذلك الخبر التالي الذى نقله إلينا ابن هشام فى « السيرة النبوية » :
دخل أبو بكر بيت « المدراس » ^(١) على يهود وقد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : « فنحاص » ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه خبر آخر من أخبارهم ، فقال أبو بكر - رضى الله عنه - لفنحاص : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله ﷺ ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجذونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل ؛ فقال فنحاص لأبى بكر : ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا .. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك .

فذهب إلى رسول الله ﷺ شاكياً ، وشرح أبو بكر - رضى الله عنه - للنبي ﷺ ما حدث ، وأنكر فنحاص أن يكون قد قال ما قال ، ومن الآيات التى نزلت فى هذا الموقف : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ^(٢) .
ويظهر أن حرصهم على الحياة ، وحبهم للمال دفعهم - على سبيل الإسقاط - إلى وصف الله - جل وعلا عما يفترون - بما عبرت عنه الآية التالية :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ ذِكْرٍ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٣) .

(١) المدراس : البيت الذى يتدارس فيه اليهود كتابهم .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٨١) - « سيرة ابن هشام » (٥٥٩/١) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٦٤) .

نقلت الآية اتهامهم الباطل لذات الله بالبخل ، وجاءت الآية بالرد الفوري على هذه الأبطولة :

(أ) بالدعاء عليهم ولعنهم .

(ب) بنفى التهمة ونسبة الغنى والكرم إليه سبحانه .

(ج) من صفاتهم التماذى فى الطغيان والكفر حسداً من عند أنفسهم كلما رأوا ما ينزل على النبى ﷺ من نعماء .

(د) تجذر العداوة والبغضاء فى قلوبهم ، فهم لا يجتمعون على حق أبداً .

(هـ) إفساد الله كيدهم وخططهم للإيقاع بالمؤمنين .

(و) ومن سجاياهم السعى فى الأرض بالإفساد كأن الإفساد والتخريب رسالتهم فى الأرض .. والله لا يحب من هذه صفته ^(١) .

* * *

وثلازمهم لعنة الله إذ يعلنون لكفار قريش أنهم أحق بالأمر من محمد وأصحابه ، وأن عقيدتهم الوثنية خير من الإسلام .

ففى العام الخامس للهجرة انطلق نفر من زعماء اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى ، وحى بن أخطب النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، وقدموا على قريش فى مكة فدعوههم إلى حرب الرسول ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقال لهم قريش : يامعشر يهود .. إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ^(٢) .

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (٩١/٣) .

(٢) « سيرة ابن هشام » (٢١٤/٢) .

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (١).

* * *

واستقراء هذه الآيات - وهى بعض قليل من كل كثير - يضع أمامنا بعض ملامح القرآن الكريم فى التعامل مع خطاب أعداء الإسلام ، وتفنيد أباطيلهم وأكاذيبهم :

١ - تراوح المعروض من خطابهم ، وكذلك تفنيده بين الإيجاز والتفصيل ، وذلك فى توازن دقيق يراعى مقتضى الحال .

٢ - النظر إلى مصادر السيرة النبوية ، ومعارضة أخبارها بما جاء من آيات يصل بنا إلى نتيجة مطردة .. وهى أن القرآن الكريم قَدَّم خطاب الكفار والمنافقين واليهود بأداء مساوٍ أو مقارب جدًا لأدائهم .

٣ - اعتمد القرآن فى تفنيد دعاوى المخالفين - زيادة على الأدلة العقلية - على نوعين من الأدلة - أو وسائل الإيضاح :

(أ) الأول : الحاضر المشهود : ومثاله أن الكفار كانوا يزعمون أن القرآن ليس من عند الله .. وأن محمدًا ﷺ كان يقصد غلامًا روميًا نصرانيًا فى مكة اسمه (جبر) يعلم محمدًا ﷺ القرآن ويمليه عليه . وقد نقض القرآن هذه الفرية بقوله : إن القرآن بلسان عربى مبين ، وهذه الحقيقة لا ينكرها الكفار .. وهذا الغلام (جبر) الذى يلحدون إليه - أى يشيرون إليه مُدَّعين أنه معلم محمد ﷺ - لا يعرف العربية ، ولا يتحدث إلا الرومية .. وهى أيضًا حقيقة لا ينكرها الكفار . وبهذا الدليل الحاضر المشهود نسف القرآن ادعاءهم (٢).

والثانى : التاريخى الغائب .. وإن كانوا يعرفون كثيرًا منه ، كتاريخ الأمم ،

(١) سورة النساء ، الآيتان (٥١ ، ٥٢) .

(٢) انظر : « تفسير الطبرى » (٢٣٣/١٤) .

وقصص الأنبياء ، وأخبار الطغاة من الملوك .. فالقرآن - على سبيل المثال - وهو يرد بعض حججهم - يذكرهم بإصرار الطغاة - من أمثال فرعون وقارون ممن أهلكتهم الله - على كفرهم لأن المرسل بشر .. وليس ملائكا .

٤ - وظف القرآن في تفنيد دعاوى المخالفين طريقتي السلب والإيجاب ، أو النفي والإثبات ، فينفي عن الذات الإلهية والرسالة والرسول ما تقول به الكفار ، وأثبت ما هو لها نقيض .. فينفي عن القرآن أن يكون قول شاعر ، أو قول كاهن ، ويثبت له : أنه قول رسول كريم ﷺ .

وقد يكون النفي قبل الإثبات بطريقة ضمنية ، كما في آية المائدة التي ذكرناها من قبل ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ... ﴾ [سورة المائدة ، الآية ٦٤] .

٥ - وجاء التهديد والوعيد في مواقع مناسبة من سياقة الآيات .. فمن لا يعمل عقله ، ويؤثر أن يعيش ببصيرة عشواء ، وقلب أعمى كان تهديده وإنزال العقاب به أمرا يتفق مع طبيعة العدل .. وصدق الشاعر إذ قال :

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم
٦ - عرض خطاب الكفار مصحوبا بالرد عليه - وهو رد يخاطب العقل والشعور - وراءه أهداف نبيلة أهمها :

(أ) إقناع الضالين بترك الكفر والضلال ، واعتناق الإسلام دينًا .

(ب) تحذير الإيمان في نفوس المسلمين ، ووقايتهم من الوقوع في الشك الذي يثيره أعداء الإسلام وهم يرون القرآن وقد فُتدَ مفترياتهم بالدليل الناصع ، والحجة الدامغة .

* * *

ومرة أخرى : أدعو القارئ أن يعيد قراءة الصفحات السابقة ، وبعدها مباشرة يعود إلى ما استخرجناه من معجم لغوى لحيدر حيدر ، والذي سجلناه في ختام القسم الأول من هذا الكتاب ، ليرى إن كان يجوز لحيدر أن يستبيح ما استباح قياسا على

ما عرضه القرآن من حجج المشركين ؟ وهل أصاب من زرع في صحيفة « القاهرة » هذا العنوان المثير : هل نحذف الآيات التي تعرض حجج المشركين من كتاب الله ؟ ويواصل تساؤله داخل المقال : ... ألم يعترف القرآن بالكافرين وحقوقهم .. بل وأورد حججهم بين دفتيه نتلوها في صلواتنا فننال الجزاء الكبير ؟ هل زرع هذا من عقيدة المصلين شيئاً ؟ وهل سنطالب الوزارة بحذف هذه الآيات الكريمة من كتاب الله أيضًا ؟ وأي عقيدة تلك التي تهترئ لحمل معدودة سطرت في أحد الكتب^(١).

وأمام قوله : (جمل معدودة) يؤسفنى أن أؤكد أن الكاتب لم يقرأ رواية حيدر ، بل لم يتصفحها ، ولكنى أكرر : ليعد الكاتب الكريم إلى الصفحات السابقة .. وليعقد موازنة سريعة بين ما ذكر فيها وبين المعجم الحيدري الهابط الساقط وأترك الحكم بعد ذلك لبصيرته وذائقته .

* * *

ومرة أخرى أقحم بعض التنويريين جدًا القرآن الكريم في الدفاع عن حيدر وروايته : لماذا تحرمون على حيدر الكلام في الجنس ، وعرض مشاهد جنسية في سياق روائى ، مع أن القرآن ذكر أسماء الأعضاء الجنسية صراحة ، وبه كذلك مشاهد جنسية صارخة ، كما أنه تحدث عن الشذوذ الجنسى فى قوم لوط ؟^(٢).

والإسلام يعترف بالجنس ، وعمق تأثيره على الوجود الإنسانى .

ولا يغفل الإسلام عما يحدثه التجاذب الفطرى بين الجنسين من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك .. ولكنه يقيسها بمقياسه الدائم الذى يقيس به كل شئ : فما سار مع الناموس ، ناموس الحياة والكون فهو صالح ، وهو صواب .. وما خالف هذا الناموس فهو خطأ ، وهو عمل غير صالح .

إنه لا ينكر الجنس ، وما يرف حوله من مشاعر وأفكار لأن منهجه الذى يسير

(١) محمد مسعد - مجلة القاهرة - العدد ٥ - ٢٠٠٠/٥/١٦

(٢) من حديث أحد الزملاء فى مناقشة هاتفية مساء ٢٧/٥/٢٠٠٠ ، وقد أخذت نفسى بما طلبه

من عدم ذكر اسمه « حتى لا يفضب العامة » على حد قوله !!

عليه فى معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها نظيفة ، وفى معرض النور .. لامستقدرة ، ولا مختلصة فى الظلام^(١) .

ومشاعر الجنس ككل شىء آخر فى القاموس الكبير : فكل ما يؤدى منها إلى الصعود والرفعة .. كل ما يؤدى إلى القوة والتماسك .. كل ما يؤدى إلى التوازن .. كل ما يؤدى إلى جمال المشاعر وصفاء النفوس ، وطلاقة الأرواح فهو جميل ، ومباح ، ومطلوب .

وكل ما يؤدى إلى الهبوط والنكسة إلى عالم الحيوان ، والضعف والانحلال والتفكك ، والانحراف الذى يفقد التوازن ، وغلظ المشاعر ، وعرامة الشهوة التى تخنق طلاقة الروح فهو قبيح .. ومنكر .. وحرام^(٢) .

والجنس وموقف الإسلام منه موضوع كبير يحتاج إلى مؤلفات ضخمة .. ونكتفى فى هذا المقام بالإجمالة السابقة التى تلقى إضاءة خاطفة على موقف الإسلام من الجنس ، لنلقى إضاءات سريعة على أمور ثلاثة فى القرآن :
الأول : الأسماء الجنسية فى القرآن ، ويعنى الزميل أسماء الأعضاء الجنسية .. والواقع أن القرآن لم يذكر منها إلا كلمة « فرج » وجاءت مضافة إلى مريم - عليها السلام - العذراء فى مجال وصفها بالعفة ، وقد رماها المبطلون بالزنى :
﴿ وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٣) .

- ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا مِنَ الْقَاسِمِينَ ﴾^(٤) .

وجاءت كلمة « فروج » بالجمع خمس مرات فى القرآن الكريم ، فى مجال الإشادة بالمتعفين الذين يصونون أعراضهم من السقوط ، ودعوة المسلمين لذلك :
﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾^(٥) .

(١) محمد قطب : منهج الفن الإسلامى ٧١ . (٢) نفسه ٧٢ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية (٩١) . (٤) سورة التحريم ، الآية (١٢) .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية (٥) .

- ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ... ﴾ (١).

- ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾ (٢).

والعرب كانوا يستخدمون الكلمة للرجل والأنثى على سواء ، بلا حرج .. وإن استخدموا تكتيات كملمس العفة ، وغير ذلك . فالقرآن إذن لم يستخدم « أسماء جنسية صارخة ... » كما ذكر صاحبى فى مهاتفته .

* * *

أما تصوير القرآن لطبيعة قوم لوط - عليه السلام - فى « شذوذهم الجنسى » فكان بالتلميح الذى جاء أقوى إحياء ، وأشد تأثيراً فى المشاعر والعقول من التصريح :

- ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ ﴾ (٣).

ومشهد آخذ يدين قوم لوط - عليه السلام - بإصرارهم على إتيان الفاحشة الشاذة ، ويعتبر آخر المشاهد فى حياة هؤلاء العصاة .. فقد بعث الله ببعض ملائكته ، ونزلوا ضيوفاً على لوط - عليه السلام - لقد جاءوا فى صورة فتية فىهم جمال وفتنة وصباحة وإشراق ، ففزع لوط خوفاً عليهم من قومه الذين علموا بوجودهم ، وأصروا على أن يرووا نهمهم الشهوانى الشاذ منهم ، وعرض لوط بناته لهؤلاء ليتزوجوا بهن ، فرفضوا هذا العرض رفضاً حاسماً ، فكان الانتقام الربانى الرهيب (٤) :

- ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَ مِّنْ سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ ﴾ (٥).

(١) سورة النور ، الآية (٣٠) .

(٢) سورة النور ، الآية (٣١) ، وانظر : سورة الأحزاب ، الآية (٣٥) ، وسورة المعارج ، الآية (٢٩) .

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان (٨٠ ، ٨١) .

(٤) انظر : (سيد قطب : فى ظلال القرآن ١٩١٣/٤ - ١٩١٥) .

(٥) سورة هود ، الآية (٨٢) .

والمشهد بتمامه عرض فى الآيات الآتية :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ غَاوِىَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾^(١) .

ولننظر إلى تعبير لوط - عليه السلام - عن شذوذ قومه :

﴿ ... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ ... ﴾^(٢) .

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ... ﴾^(٣) .

ولننظر إلى تعبير قومه عن شذوذهم :

﴿ ... مَا لَنَا فى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * .

وكلها عبارات تعبر فى دقة عن المعنى المقصود .. ليس هذا فحسب .. ولكن تلقى بدلالاتها وإيحاءاتها القوية المؤثرة .. فقولهم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ تعبر عن المعنى المقصود وهو « ممارسة الشذوذ » ، وتوحى - زيادة على أداء المعنى - بتمكن آفة الشذوذ منهم ، وشيوعها فيهم ، واشتغالهم بها .

وواضح أن التعبير عن هذه الآفة جاء بأسلوب يتفق مع ما يتسم به البيان القرآنى من سمو وجلال ورفعة حتى فى التعبير عن الأمور والنوازع الدنيا .. وأدعو القارى أن يعود إلى الكلمات الحيدرية التى عبرت عن هذه النوازع ومواقف السقوط ، ليؤمن بخطأ - بل بخطيئة - من أراد أن يغالط ، ويشبه أو يقيس هذا على ذاك .

* * *

(١) سورة هود ، الآيات (٧٧ - ٨٠) .

(٢) ، (٣) سورة الأعراف ، الآيتان (٨٠ ، ٨١) .

كان حديث القرآن عن الشذوذ الجنسي ومنهجه في التعبير عن هذه الآفة هو الأمر الثاني .. أما الأمر الثالث الذى أثاره الزميل هاتفيًا فهو أن القرآن به مشهد - أو مشاهد - جنسية . لينطلق من ذلك إلى حق حيدر - بالقياس - فى عرض مشاهدته الجنسية .

والمشهد المتكامل فى هذا المجال عرضه القرآن فى سورة يوسف - عليه السلام - ، وتعرضه للفتنة على يد امرأة العزيز .. ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ أنقذه منها .. يقول تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الْيَاسِيَةُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رِئَیْ أَحْسَنَ مَثْوَاىِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَاهَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ . وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ .

فالمشهد يعرض صورة امرأة استبدت بها الشهوة العارمة ، وحاولت أن تطفئ نار شهوتها بأى ثمن ، مستبيحة لنفسها ما لا يليق بالإنسان السوي : تدعوه لنفسها ، وهى الشريفة الحسبية النسبية ، وهو غلامها الذى اشتراه زوجها ، وجعله فى خدمتها ، وغلقت الأبواب - كل الأبواب حتى لا يفلت منها ، فلما حاول الإفلات منها تشبثت به ، ومزقت قميصه من دبر ، ورمت ضحيتها بدائها وانسلت ، فكذبت على زوجها ، واتهمت يوسف - عليه السلام - بأنه حاول اغتصابها .

وفى المقابل نلتقى بشخصية الطاهر العف الشريف الذى يرفع جميل سيده الذى آواه ، وأحسن مثواه ، ويخاف ربه لأنه من عباده المخلصين .. وتمتد « توابع المشهد » فى صورة يوسف - عليه السلام - ، وينتصر الحق على الباطل مهما كانت شدة المعاناة : محنة فى فتنة الجنس ، ومحنة فى سنوات السجن ظلمًا ، وكل أولئك يفرز بعد ذلك درسه الذى لا يتخلف أبدًا .. النصر للحق ولو طال الزمن .. وهذا الدرس النبيل من أهم الفروق بين الأدب الغث الهزيل ، والأدب الرفيع الجليل !!

(١) سورة يوسف ، الآيات (٢٣ - ٢٥) .

وهذا المشهد الذى قدمه القرآن ، والذى امتدت توابعه على امتداد قصة يوسف - عليه السلام - ، وما يهديه من دروس وعبر قصة كاملة من قصص الهبوط الجنسى ، ودفعة من دفعات العرامة الحسية التى تنسى فى ساعة الشهوة الغليظة كل اعتبار .. فكيف تجد طعم الجنس فى هذه القصة التى تتحدث عن هبوط الجنس ؟ هل تجد فى ذلك العرض الذى يهدف إلى إثارة التلذذ بالجنس ، والإعجاب بلحظه الهبوط ، والمتعة بالمشاعر المنحرفة ، والفتنة الموكوسة ؟ أم تحس - مع جمال العرض ودقته وأمانته وصراحته - بالنفور من تلك الفتنة المنحرفة والتفرز من ذلك الهبوط ؟

ذلك طريق التعبير عن مشاعر الجنس المنحرفة حين يراد التعبير عنها بطريقة الإسلام .. أمانة فى الوصف بلا إثارة جنسية ، ولا تلذذ ، ولا إفساد ^(١).

* * *

وكما حاول أنصار رواية حيدر « توظيف القرآن » للدفاع عن الرواية ، وتبرير ماجاء بها من « سقوطات » حاول بعضهم « استدعاء » التراث للغرض نفسه ، وكانت صحيفة « القاهرة » ^(٢) هى أبرز الصحف التى تكفلت بهذه المهمة ، وجاء العنوان الذى شغل ربع صفحة الموضوع - مثيلاً ... جد مثير :

أحرقوا كتب السيوطى والقرطبى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والغزالي ، وابن القيم .. واجعلوا حياتنا ظلاماً .. دامساً !!!

والمقال - كما يظهر من عنوانه - أو عناوينه - متوقد الانفعال ، يستهله كاتبه بلال فاضل بالهجوم الضارى على الدكتور محمد عباس الذى وصفه الكاتب بأنه « أديب فاشل ، يعمل تاجرًا فى الأشعة الطبية .. حيث يجنى منها الملايين التى تمكنه من التفرغ لكتابة الصفحات الوعظية المطولة التى يختلط فيها الغث بالسمين » !!

وبعد حملة أخرى على صحيفة الشعب وحزب العمل يبدأ الكاتب فى معالجة

(١) محمد قطب : مرجع سبق (٧٧) .

(٢) العدد السادس ٢٣/٥/٢٠٠٠ .

موضوعه الأصلي الذي كاد يفلت من قارئه لشدة انفعال الكاتب .. والمحور الأساسي للموضوع هو : كثير من الفقهاء والعلماء الكبار من أسلافنا لهم كتب - أو فصول في كتب - ضمت أدبًا مكشوفًا .. بل جنسيًا صريحًا صارخًا .. وهو لا يجرؤ على نقل سطور منها حتى لا يخرجها الظلاميون من الملة .

وبعد أن يقدم كاتب المقال ثبوتًا بأسماء علماء وفقهاء وأسماء كتب فيها « جنسيات صارخة » من وجهة نظره أنهى مقاله ببيت القصيد .. بالهدف الذي تغياه المقال :

« إذا كنتم ستحرقون أى رواية أو عمل أدبي لاحتوائه على ما ترونه كفروا دون أن تنظروا إلى سياقه .. فمن باب أولى ابدءوا بحرق كل هذه الكتب ، واجعلوها ظلامًا .. رغم أن الله عَزَّ وَجَلَّ يريدنا نورًا » .

وواضح أن هذا لون من الدفاع المستميت عن رواية حيدر باستدعاء تراثيات لفحول من العلماء والفقهاء والأدباء القدامى ، وضرب مثلاً بابن القيم .. فهو - كما يقول كاتب المقال - عن كتابه الطب النبوى : به فصل كامل اسمه « فى العشق - والباه » - والباه هو الجنس - حافل برواية القصص والحكايات عن الجنس والأوضاع الجنسية ، والحديث عن اللواط والعشق والزنا .. ولست أجرؤ على نقل أى سطر من سطره هنا » .

وأقول : ياليتك أقدمت ونشرت منه صفحة ، أو صحتين ، ولا أقول : جرؤت .. فالمسألة ليست فى حاجة إلى جرأة .. فالفصل الذى جاء فى ثلاثين صفحة (٢٤٩ - ٢٧٨) ليس فصلًا روائيًا قصصيًا .. بل هو فصل طبى جمع بين : الطب النفسى ، والطب العضوى ، وهو من أحسن الفصول التى كتبها ابن القيم فى كتاب عنوانه « الطب النبوى » ، ومثل هذه الكتب العلمية الطبية تذكر الأسماء بصراحة يقتضيها الشرح والتفسير .. وليس فى ذلك ما يثير الغرائز والشهوات .. وهو فصل « تشريعى » كذلك ، يشرح فيه هدى النبى ﷺ وسلوكياته فى هذه المسائل .

ولم يتحدث عن اللواط إلا فى خمسة أسطر وعلى سبيل الإشارة إلى قوم لوط - عليه السلام - (ص ٢٦٦) . وقدم ابن القيم دراسة نفسية فقهية رائعة عن

العشق ، وأنواعه ، وحلاله وحرامه ، وهدى النبى ﷺ فى علاجه (٢٦٥ - ٢٧٨) .
وحديثه عن طرق الجماع حلالها وحرامها ، والصحى منها والضار هو حديث
الطبيب الفقيه فى كتاب طبى فقهى . يمتد الانتفاع به إلى عصرنا الحاضر^(١) .

* * *

ويقول كاتب المقال : « العلامة أبو حامد الغزالى يتحدث فى كتابه « إحياء
علوم الدين » تحت عنوان : « القول فى شهوة الفرج » حديثاً صريحاً واضحاً عن
الجنس والزنا واللواط ، موردًا حكايات وقصصاً مكشوفة ، ومستخدماً إياها لإيضاح
آداب الإسلام وتعاليمه » .

وما أشار إليه كاتب المقال خضع أيضاً للتهويل ، وبحث عما فيه من
« الحكايات والقصص المكشوفة » فلم أجد .. وقد جاء الحديث عن شهوة الفرج
فى تضاعيف كتاب كامل عن آداب النكاح (٦٨١ - ٧٥٢) من المجلد الأول من
كتاب « إحياء علوم الدين »^(٢) .. وهى دراسة فقهية نافعة ، وخصوصاً للدارس
المتخصص .

ولكنى لا أنكر أن هناك كتباً فى الإلحاد والزندقة تصدى لها الفقهاء والعلماء
قديماً بالنقض والتفنيد . وهناك كتب فى الخلعة والمجون أراد بها أصحابها
التسلية ، وتذليك الغرائز والتظرف .. ولكن من قال : إن هذه الكتب يجب أن
تكون المثل الأعلى الذى يحتذىه الكتّاب فى عصرنا ، أو على الأقل يستأنسون به ؟
لماذا لا نوجه شبابنا وأقلامنا إلى الأدب الجاد البناء .. بدلاً من أدب المجون والسقوط
والشذوذ ، ونحن فى زمن يحتاج إلى بناء أمتنا على أسس متينة من الخلق القويم ،
والقيم الإنسانية العليا ، حتى نستطيع أن نتحصن ، ونصدى لتيارات الإباحية
والعولمة التى تهب علينا فى قوة وعنف .

(١) اعتمدت على طبعة مؤسسة الرسالة (ط ٣ - ١٩٨٢) - حقق نصوصها وخرج أحاديثها ،
وعلق عليها الأستاذان / شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط .
(٢) اعتمدنا على طبعة دار الشعب بالقاهرة (د . ت) .

وهناك حقيقة يجب ألا نغفل عنها فى هذا المقام .. وهى أن كتب التراث .. ومنها الكتب التى استشهد بها الكاتب ، لم يكن ينسخ منها إلا عدد قليل جداً لأنها كانت تكتب باليد ، وقد يكتب الكتاب ، ولا يطلع عليه إلا صاحبه ، وكثيراً ما تدور فى كتب التراث مثل العبارة الآتية : « ... وقد علمت وأنا ببغداد أن فلاناً كتب كتاباً فى موضوع كذا ... وليس منه إلا نسخة فى خزانة فلان ... » ، فمسألة النشر والانتشار فى هذه الأيام كانت صعبة جداً ، ومحدودة جداً .. بعكس الزمن الذى نعيشه .. زمن العولمة والتقنية والانتشار السريع .

* * *

حرية الإبداع

أم حرية العدوان !!؟

فى زحام الحملات العاتية التى شنها « التنويريون جدًّا » على « الظلاميين » وما زالوا يشنون لم نعدم للأسف من يصرخ بصوت متشنج :

« إن هؤلاء يريدون أن يحكمونا بشرائع الغاب التى كانت سائدة من خمسة

عشر قرنًا حيث لا حرية .. والأمر كان للسيف والسهم والرمح ... » وهى

عبارة تشبه إلى حد كبير ما أجراه حيدر حيدر على لسان « مهيار الباهلى » ،

والعهد المشار إليه هو فترة النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين .

ولا أملك إلا أقول : ﴿ ... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ

إِلَّا كَذِبًا ﴾ ^(١) ، فالإسلام هو دين الحق ، ودين الحرية .

وقد جاء الإسلام ليرفع من كرامة الإنسان - من حيث هو إنسان - فكرمه

بالعقل ، وكفل له الرزق والطيبات ، وحقق له أفضلية على كثير من المخلوقات ..

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ^(٢) .

فالإسلام إذن من منطلق « تكريم بنى آدم » عمل على تحرير الإنسان من

الرق .. ليس هذا فحسب .. بل كان أول نظام يمنح الإنسان - بصرف النظر عن

جنسه ولونه ومعتقده - ما يمكن أن نسميه « الحرية الشاملة » .. ولا يعنى هذا

الحرية المطلقة المتسببة بلاضوابط ولاقيود .. فتلك هى الفوضوية بعينها ..

الفوضوية التى تقود الفرد إلى الضياع وفساد الدين ، وتؤدى بالمجتمع إلى الخراب

والانهيار .. ولكن المقصود بالحرية الشاملة تلك التى تتناول كل جوانب الحياة ،

(١) سورة الكهف ، الآية (٥) . (٢) سورة الإسراء ، الآية (٧٠) .

وتتمكن الإنسان من العيش والمعيشة بإرادته دون أن يكون مقهوراً أو مظلوماً ،
أو واقعاً تحت ضغط غير مشروع ، أو هي كما عرّفها أحد المفكرين المحدثين :
« الانطلاق المشروع في الرأي .. والاعتقاد .. وفي القول .. وفي الفعل .. وفي
الاتصال بالغير »^(١) .

* * *

وقد كفل الإسلام للإنسان حرية التفكير ، وحرر العقل الإنساني من الأوهام ،
والخرافات ، والوقوع في أسر التقليد الأعمى .. ومن حق الإنسان أن يتمتع بهذا
النوع من الحرية .. فقد خلقه الله من مادة « الطين » ، ونفخ فيه من « روحه » ،
وكرمه « بالعقل » الذي وعى حقيقة الأشياء اسماً ومسمى .. والعقل هو الذي كفل
له أن يكون خليفة الله في أرضه :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي
بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ
أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴾^(٢) .

ولقد كرم الله الإنسان بالحواس - لا لذاتها - ولكن بقدر ما توصل صاحبها
إلى طريق الفهم والاهتداء ، والتقوى والإصلاح .. ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾^(٣) .

وإذا لم تستطع الحواس أن ترتفع بالحقيقة الإنسانية في نفس الإنسان ، ولم
تكن وسائل لتحصيل العلم ، والوصول إلى اليقين والهدى ، والتحرر من ربكة الظلام
فوجودها كعدمها سواء ، بل إن الإنسان في هذه الحالة يكون أحط مكانة من

(١) الدكتور محمد البهي : الإسلام والفلسفات المعاصرة ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات (١٣ - ٣٣) . (٣) سورة البلد ، الآيات (٨ - ١٠) .

البهائم .. لأن البهائم تستخدم حواسها بأقصى طاقاتها حفاظًا على بقائها .. أما هو فقد عَطَّلَ حواسه التي أنعم الله بها عليه لاستعمالها كصاحب رسالة كرمه الله باستخلافه عنه فى الأرض .. وما قيمة العقل إذا ما عطلت طاقته عن الخير ؟ وما قيمة العين إذا لم تبصر طريق الهدى ؟ وما قيمة الأذن إذا لم تصغ لصوت الحق واليقين ؟

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١).

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به ، والرجوع إليه ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضية فى سياق الآية .. بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يبحث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه (٢).

وبهذا المفهوم الشامل للعقل ، وتحريزًا له من الجمود والتوقف والتخلف عن التفاعل الحى مع ما يرى من مظاهر الكون والحياة دعا الإسلام إلى النظر والتفكير والتأمل ، ونعى على الذين لا يفكرون ، ولا يتأملون خلق الله ، ولا يعملون عقولهم خلوصًا إلى اليقين ..

﴿ وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣).
﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴾ (٤).

وفى عشرات من الآيات القرآنية .. بل مئات تتكرر كلمة « العقل » وما ارتبط بها من ألفاظ « الفقه » ، و « العلم » ، و « التفكير » على النحو الآتى :

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٧٩) .

(٢) العقاد : التفكير فريضة إسلامية ص ٥ .

(٣) سورة الذاريات ، الآيتان (٢٠ ، ٢١) . (٤) سورة الروم ، الآية (٨) .

(أ) « عقل » ومشتقاتها : (عقلوه - تعقلون - تعقل ... إلخ) ذكرت ٤٨ مرة .

(ب) « علم » ومشتقاتها : (علم - يعلم - يعلمون ... إلخ) ذكرت ٨٦٦ مرة .

(ج) « فقه » ومشتقاتها : (تفقهون - تفقه - يفقهوا - يفقهوه ... إلخ) ذكرت ٢٠ مرة .

(د) « فكر » ومشتقاتها : (فكر - تتفكروا - يتفكرون ... إلخ) ذكرت ٨٧ مرة .

(هـ) « وعى » ومشتقاتها : « تعيها - أوعى - واعي ... إلخ » ذكرت ٤ مرات .

ومجموع الألفاظ فى المواد التى ذكرتها ١٠٤٣ (ثلاث وأربعون وألف) لفظة ، وكلها تدور على تقدير القرآن للعقل والنظر والتفكير .. وهذه المواد التى عرضنا لها هى المواد المباشرة . وهناك مئات من الألفاظ تدور حول العقل والتفكير بطريقة غير مباشرة لم نعرض لها ^(١) .

* * *

والإسلام يقرر للإنسان أن يفكر فيما شاء كما شاء وهو آمن من التعرض للعقاب على هذا التفكير ، ولو فكر فى إثبات أعمال تحرمها الشريعة .. والعلة فى ذلك أن الشريعة لا تعاقب الإنسان على أحاديث نفسه ، ولا تؤاخذ على ما يفكر فيه من قول أو فعل محرم .. وإنما تؤاخذ على ما أتاه من قول أو فعل محرم .. وذلك معنى قول الرسول ﷺ : « إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها ، ما لم تعمل به أو تتكلم » ^(٢) .

وقد تدرج القرآن الكريم فى تدريب الناس على التفكير فى مراحل متعاقبة :

(١) انظر : جابر قميحة : المدخل إلى القيم الإسلامية ٦٤ - ٦٧ .

(٢) عبد القادر عودة : التشريع الجنائى الإسلامى ٣١/١ .

فالطريق الأول : إعمال الفكر بالنسبة للمحسوسات والمرئيات^(١) .
والطريق الثاني : يخاطب فيه القرآن الناس لإقناعهم عن طريق الأسباب
والمسببات^(٢) .

والطريق الثالث : وهو طريق الاتجاه الرفيع بعد أن يكون العقل قد تدرج في
التفكير حتى وصل إلى هذه المرتبة ، وفي ذلك يقول تعالى :
﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٣) .

كما أن هناك طرائق أخرى للفكر تجمعها جميعاً آية واحدة هي قوله تعالى :
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾^(٤) .

هذه هي حرية الفكر والتفكير في الإسلام ، ربطها الله سبحانه وتعالى بوجود
الإنسان ذاته ، ودعاه القرآن إلى استعمال حقه في التفكير والتأمل مستخدماً طاقاته
العقلية دون أن يعطلها بالتقليد الأعمى ، أو يهدرها فيما لا ينفع ولا يفيد .

وكذلك كفل الإسلام للإنسان حرية الاعتقاد .. وكان من قواعد الإسلام
الراسخة قاعدة ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾^(٥) ، و ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾^(٦) ،
أما الرسول - عليه الصلاة والسلام - فما عليه إلا البلاغ ﴿ ... وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾^(٧) . وسبيل هذا البلاغ هو الحكمة والموعظة الحسنة^(٨) .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾^(٩) .

بل إن الإسلام ليأمر النبي - عليه الصلاة والسلام - وكل مسلم ألا يغلق بابه

(١) ارجع إلى سورة العاشية ، الآية (١٧) وما بعدها ، وسورة ق ، الآية (٦) وما بعدها .

(٢) راجع سورة النحل ، الآية (١٠) وما بعدها .

(٣) سورة الذاريات ، الآية (٢١) .

(٤) سورة فصلت ، الآية (٥٣) ، وانظر الدكتور العلي : الحريات العامة ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٥) سورة البقرة ، الآية (٢٥٦) . (٦) سورة الكافرون ، الآية (٦) .

(٧) سورة العنكبوت ، الآية (١٨) ، وانظر سورة النور ، الآية (٥٤) .

(٨) انظر : سورة النحل ، الآية (١٢٥) .

(٩) سورة يونس ، الآية (٩٩) .

فى وجه مشرك استجار به .. بل عليه أن يجيره ويحميه ولا يتخلى عنه إلى أن يبلغ
بِرَ الطمأنينة والأمان ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ... ﴾ (١).

* * *

وقد كانت عهود النبی ﷺ وخلفائه للذميين دليلاً قاطعاً على كفالة الحرية
الشاملة لهم وخصوصاً حرية الاعتقاد ، كما نرى فى عهد النبی ﷺ لنصارى
نجران (٢) ذلك العهد الذى أكدده ووثقه خلفاؤه الأربعة .. فنرى فى عهد أبى بكر
- رضى الله عنه - لهم ينص العهد على أنه « أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبي
ﷺ على أنفسهم وأرضهم وثلتهم - أى جماعتهم - وأموالهم وحاشيتهم ،
وعبادتهم ، وغائبهم ، وشاهدهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعهم .. » (٣).

وحينما فتح المسلمون إيلياء (القدس) كتب عمر رضى الله عنه كتاباً سنة
(١٥ هـ) نص فيه على أنه « .. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم
وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ،
ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ،
ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من
اليهود ... » (٤).

وعقد الأمان أو عقد الذمة يوجب على المسلمين حماية الذميين من العدوان
الخارجى ، ومن الظلم الداخلى ، وحماية أموالهم ، وتأمينهم عند العجز والشيخوخة
والفقر ، وكفالة حرية الدين والاعتقاد والعمل والكسب (٥).

يقول ابن حزم فى كتابه « مراتب الإجماع » : « من كان فى الذمة وجاء أهل

(١) سورة التوبة ، الآية (٦) .

(٢) كان ذلك فى العام العاشر للهجرة . انظر : نص العهد فى تاريخ الطبرى ١٢٨/٢ ، والخراج
لأبى يوسف ١٥٧ . وفى الخراج كذلك نص عهد عمر رضى الله عنه لهم ١٦١ ، ونص عهد عثمان
رضى الله عنه ١٦٢ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ١٦٠ . (٤) تاريخ الطبرى ٦٠٩/٣ .

(٥) انظر فى تفصيل ذلك : د . يوسف القرضاوى : غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ٩ - ٢٥ .

الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك صوتاً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ » (١) .

ومن المواقف التطبيقية لهذا المبدأ الإسلامى موقف شيخ الإسلام « ابن تيمية » حينما تغلب التتار على الشام ، وذهب الشيخ ابن تيمية ليكلم « قطلو شاه » فى إطلاق الأسرى ، فسمح القائد التتارى للشيخ بإطلاق أسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح له بإطلاق أسرى أهل الذمة .. فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال : « لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى . فهم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة ، ولا من أهل الملة » . فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له (٢) .

فاختلاف العقيدة لم يمنع المسلمين من رعايتهم للذميين والوفاء بعهودهم معهم ، وحمايتهم مما يحمون منه أنفسهم ، حتى عاش الذميون يتمتعون بالعدل والحرية شأنهم شأن المسلمين .. بل كان لبعضهم فى بعض العهود مراكز ومناصب ونفوذ وثروات تفوق ما كان عليه كثير من المسلمين .. مما لا يتسع المقام لشرحه ، وضرب الأمثلة له .

* * *

ولكن قد يتلجلج فى الخاطر تساؤل مؤداه : إذا كان الإسلام يدعو إلى حرية الاعتقاد ، ويحيطها بكل هذه الضمانات فلماذا لا يترك للمسلم حرية الارتداد عن دينه ، واعتناق دين آخر .. بل يعاقبه الإسلام بالقتل ؟ أليس فى هذا نوع من الإكراه للإنسان على البقاء على الإسلام الذى جاء بقاعدة « لا إكراه فى الدين » ؟! ولكن هذا الخاطر أو هذه الشبهة سرعان ما تنمحي إذا وضعنا نصب عيوننا الحقائق الآتية :

١ - الإسلام هو أكمل الأديان وأوفاهها وأشملها ، وأكثرها رعاية لحقوق الإنسان وكرامته ، فنكوص المسلم عن الإسلام يعد إهداراً لعقله وشخصيته بترك الفاضل إلى المفضول .

٢ - لم يجبر الإسلام أحداً على اعتناقه .. إنما أساس دعوته إلى الناس يتمثل

(١) عن كتاب القرضاوى السابق ١٠ . (٢) السابق : نفس الصفحة .

فى الحكمة والموعظة الحسنة .. وقد نص القرآن - كما رأينا - على أنه لا إكراه فى الدين .. وترك المسلمون النصارى واليهود والمجوس فى بلاد الشام والعراق ومصر على دينهم ، ولم يفرضوا الإسلام على أحد منهم .

٣ - اعتناق الشخص للإسلام يعنى « التزاماً جاداً » بقواعد هذا الدين مادام قد اختاره بمحض إرادته .. وتعتبر الردة فى هذه الحال « خيانة عظمى » و « إخلالاً خسيئاً » بهذا الالتزام .

٤ - والارتداد عن الدين يؤدى إلى تصور غير صحيح لهذا الدين وأنه غير صالح ، ومن أجل هذا فكر بعض أهل الكتاب فى الدخول فى الإسلام والارتداد عنه سريعاً للإيحاء إلى الناس بعدم صلاحيته ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجِئَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ بِمَا كَفَرُوا ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجِئَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ بِمَا كَفَرُوا ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجِئَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۚ ﴾ (١) .

٥ - والإسلام ليس بدعاً فى هذا .. فالمسيحية هى الأخرى تهدر دم المرتد عنها ، وكذلك تفعل الأديان الأخرى .

٦ - والإسلام : لا يقتل المرتد حال ارتداده ، وإنما يعطيه أمداً يحاسب فيه نفسه ، ويستتاب فيه .. فإن لم يتب ويثب إلى صوابه قتل (٢) .

* * *

ولا قيمة لحرية الفكر وحرية الاعتقاد والتدين ما لم يكن هناك حرية التعبير ، فالفكر والاعتقاد من الأمور الخفية ، والتعبير عنهما هو المظهر العملى التطبيقى للحرية فى لونها السابقين .

وقد رفع الإسلام « الكلمة البانية » مقاماً عالياً ، وسماها « الكلمة الطيبة » ، وهى تلك الكلمة الفاعلة الهادية التى تحمل العلم والحق والفضيلة والخير للناس : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية (٧٢) .

(٢) انظر د . محمد حسين هيكل : الحكومة الإسلامية ١٢١ ، ١٢٢ .

وعبد الوهاب خلاف : السياسة الشرعية ٣٤ - ٣٦ .

(٣) سورة إبراهيم ، الآيتان (٢٤ ، ٢٥) .

كما ذم القرآن « الكلمة الحبيثة » التي تكذب الناس في النار على وجوههم .
كما يقول الحديث النبوي الشريف . إنها الكلمة التي تؤدي إلى تخريب الفرد
وتدمير المجتمع ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ
مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾^(١) .

وتنطلق الكلمة الحرة لا يقيدتها إلا ضوابط الخلق والنظام ، وهي - في الواقع -
ليست « قيوداً وموانع » بل هي « معايير وضوابط » .. والمسلم مطالب على سبيل
الإلزام أن يواجه الباطل والمنكر باللسان إن عجز عن المواجهة والتغيير باليد ، فإذا
ما قادته هذه المجابهة إلى الموت فهو الشهادة .. بل أعلى مراتب الشهادة وأكرمها ..
فيقول النبي عليه الصلاة والسلام : « أكرم الشهداء على الله رجل قام إلى والٍ جائر
فأمره بالمعروف ، ونهاه عن المنكر فقتله »^(٢) .

* * *

وانطلاقاً من هذا المفهوم الشامل السديد للحرية يكون لزاماً على المسلم أن
يكون عضواً فاعلاً في مجتمعه ، وأن يكون صريحاً صادق العزم وهو يساهم في
معالجة قضايا أمته .. لا يسكت عن حق ، ولا يغفل عن باطل .. ولأمر ما كان
الفعل ﴿ قُل ﴾ هو أكثر أفعال الأمر وروداً في القرآن فقد وجه للمخاطب الواحد
٣٣٢ مرة :

- ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى ... ﴾^(٣) .
- ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ ... ﴾^(٤) .
- ﴿ ... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ... ﴾^(٥) .
- ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ... ﴾^(٦) .

(١) سورة إبراهيم ، الآية (٢٦) .

(٢) انظر الغزالي : إحياء علوم الدين ١١٩٤/٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٢٠) . (٤) سورة آل عمران ، الآية (٣٢) .

(٥) سورة النساء ، الآية (٧٧) .

(٦) سورة الأنعام ، الآية (١٣٥) .

- ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ... ﴾ (١).

﴿ قُلْ ﴾ هذه الكلمة التي لا يفوقها في العدد إلا لفظ الجلالة في السياقات القرآنية تمثل دعوة صادقة « للإعلام » المتجدد في مجال الحق والعدل والخير .. فالؤمن مأمور أن يقول .. والآخر مأمور أن يسمع ، وأن يقول كذلك .. وبذلك يتواصل تردد الدعوة ويتجدد مادام هناك قول موجه ، وموجه في الوقت نفسه . وقد ربي النبي ﷺ أصحابه على أن « يقولوا » أن يعبروا عن رؤيتهم ، ولو تعارضت مع رؤيته - ما لم تكن وحيًا ، وكان يستجيب للرأي الآخر مادام فيه خير ، وكان مبرأ من المعصية .

في بدر أمَرَ المسلمين أن يعسكروا في مكان .. أبدى الحباب بن المنذر رضى الله عنه رأيًا مخالفًا .. أن ينزل المسلمون في مكان آخر ، وقدم مبررات هذا الرأي ، فنزل النبي ﷺ عن رأيه ، وأخذ برأى الحباب .

وتكرر الأمر في غزوة خيبر ، وأخذ النبي ﷺ برأى الحباب (٢) .

وفي بدر قبل تلاحم الجيشين يقول النبي ﷺ لأصحابه :

- « إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا لا حاجة لهم بقتالنا .. فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري ابن هشام بن الحارث (٣) فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله .. فإنه إنما أخرج مستكرهًا » .

قال أبو حذيفة بن عتبة :

- « أنقتل آبائنا وأبناءنا ، وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ؟! والله لئن لقيته لألحمته (٤) بالسيف » .

(١) سورة النور ، الآية (٣٠) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ٦٣٠/١ .

(٣) كان أبو البختري بن هشام أكف الناس عن رسول الله ﷺ وهو في مكة ، وكان لا يؤذيه ، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه . وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب .

(٤) أى لأضربه بالسيف حتى يخالط السيف لحمه .

فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر رضى الله عنه :
 - « يا أبا حفص .. أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟! » .
 وشعر أبو حذيفة بالأسى والندم فكان يقول : « ما أنا بأمن من تلك الكلمة
 التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عنى الشهادة » . فقتل يوم
 اليمامة شهيداً^(١) .

* * *

وفى « أئحد » نزل رسول الله ﷺ عن رأيه ، وأخذ بالرأى الآخر الذى يرى
 الخروج إلى قتال الكفار خارج المدينة ، وكان ما كان من انكسار المسلمين^(٢) ،
 ولكن الشورى ظلت قاعدة ثابتة فى الحكم والسلوك .
 وفى غزوة « الحندق » ، وفى صلح « الحديبية » ارتفعت كذلك أصوات تعبر
 عن رأى أصحابها فى مسائل عامة كان وراءها دائماً حسن النية والحرص على
 مصلحة المسلمين .

وكان يوم السقيفة - بعيد وفاة رسول الله ﷺ يوم ممارسة حقيقية « للتعددية
 التعبيرية » .. آراء طرحت .. ومناقشات طالت .. وكل يقدم أسانيده وحججه ..
 ولا مانع أن يكون هناك بعض الحدة والانفعال ، ثم كان الانتصار لأنصع الآراء
 وأقواها وأدخلها فى الحق ، وأجدرها بتحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين .. وبعد
 ساعات طالت يجمع الحاضرون على « الخليفة » أبى بكر الصديق رضى الله عنه^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام القسم الأول ٦٢٩ .
 وأعتقد أن عامة المسلمين لم يكونوا يعلمون آنذاك أن العباس كان بمثابة عين للرسول - عليه الصلاة
 والسلام - فى مكة وكان يكشف له أسرارهم فى كتب يبعث بها سرّاً للنبي ﷺ [انظر للمؤلف :
 أدب الرسائل فى صدر الإسلام - الجزء الأول ٢٢ - ١٠١] .
 وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : « كنت غلاماً للعباس ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ،
 فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، وكان
 يكتنم إسلامه ، وكان ذا مال متفرق فى قومه » . [سيرة ابن هشام القسم الأول ٦٤٦] .
 (٢) انظر : سيرة ابن هشام ٦٣/٢ وما بعدها .
 (٣) سيرة ابن هشام ٦٥٦/٢ .

يقول أستاذنا الدكتور ضياء الدين الرئيس :

« إن مساجلات الرأي دارت في هذا الاجتماع بحرية وفي صراحة .. بحيث مثلت وجهات النظر المختلفة حتى أنها دعت كاتبًا غريبًا هو الأستاذ «ماكدونالد» أن يشهد بأن هذا الاجتماع يذكر إلى حد بعيد بمؤتمر سياسي دارت فيه المناقشات وفق الأساليب الحديثة^(١) .

وفي عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ووجه بمعارضة قوية حين قرر محاربة المرتدين ، وحين قرر تأمير أسامة بن زيد رضى الله عنه على جيش لقتال الروم ومن والاهم في شمال الجزيرة .

وفي عهد عمر رضى الله عنه تعارضه امرأة في مسألة المهور ..

ويهدده رجل من عامة الناس أنه يعامله بالسيف إن وجد فيه اعوجاجا .. ويهدده آخر بأنه لا طاعة له في عنقه لأنه رآه يلبس ثوبًا ضافيا ظن أن فيه جورًا على مال المسلمين ..

وعارضه جماعة من المسلمين على رأسهم بلال رضى الله عنه لأن عمر رضى الله عنه رفض توزيع أرض السواد على الفاتحين^(٢) .

وتعددت صور « الصوت الآخر » وتحول بعض هذه الأصوات إلى فتنة ومروق كما نرى في حالة الخوارج الذين كفّروا الخلفاء الراشدين ، وكل المسلمين إلا فرقتهم ، ورفعوا السلاح ، وأراقوا الدماء .. ومع ذلك لم يكفرهم الإمام على رضى الله عنه .. ولما سئل : أكفار هم ؟ أجاب : « من الكفر فروا .. هم إخواننا بالأمس .. بغوا علينا اليوم ، لهم مالنا ، وعليهم ما علينا ما أقاموا الصلاة » .

* * *

هذه بعض ملامح الحرية في الإسلام .. وهذه بعض ممارساتها العملية في عهد النبوة والخلافة الراشدة الذى كان محكومًا بالشرعية الوضيعة السمحة ، وما كانت كما زعم « التنويريون جدًا » شريعة غاب لا مكان فيها للحرية .

(١) النظريات السياسية الإسلامية ٣٩ .

(٢) انظر التفصيل في كتاب الأموال للقاسم بن سلام : ١٨ وما بعدها .

فالحرية فى الإسلام حرية حقيقية شاملة .. وهى حرية منضبطة لأن تسيبها يحولها إلى الفوضى المدمرة .. وقد أشرنا إلى ضوابطها فيما سبق .. وكلها تهدف إلى صيانة النفس .. والعقل .. والدين .. والعرض .. والمال .. فحرية التملك - وهى استجابة لغريزة حب الجمع والتملك - لو كانت مطلقة تحولت إلى سلب .. وسرقة .. واغتصاب .. وحرية الجنس لو لم تضبطها قواعد الشرع والنظام لتحول الإنسان بها إلى درك أسفل من درك الحيوانات .

وحرية التعبير إذا لم تزغ حرمة الدين والأعراض لتحولت إلى بذاء .. وسفول .. وانتهاك للعقل .. والشرف .. وقيم الأمة وتاريخها .. كما نرى فى الحملات المعلنه التى تشن على من هاجموا الرواية الحيدرية .. فهم ظلاميون .. أغبياء .. متخلفون .. عاجزون عن قراءة الأدب الرفيع .. وإذا قرءوا لا يفهمون .. وإذا فهموا الظاهر فهم لا يفهمون ما فى العمل الأدبى من إichاءات ودلالات .. وبعضهم « يقبض » من الخارج ، وله اتصالات بجهات خارجية ، وهم يعارضون من أجل تحقيق كسوب سياسية واجتماعية !! .

والتنويريون يكون على الحرية بصفة عامة .. وحرية الإبداع بصفة خاصة .. تلك الحرية التى هتك حرمتها « الظلاميون » فى شخص الفذ العملاق حيدر حيدر .. وهذا ليس جديدًا عليهم .. وهم يعتنقون مبدأ : ضربنى وبكى .. وسبقنى واشتكى .. وهؤلاء - وأغلبهم يساريون ماركسيون - يريدون حرية الإبداع لأنفسهم بإطلاق .. دون ضوابط أو قيود .. ويحرمون على من يعارضهم طاقة واحدة من طاقات الحرية ، ينفذون منها إلى إبداء وجهة نظرهم .. كتب واحد من زعمائهم المشهورين تحت عنوان « من التنوير إلى الإظلام » :

« السؤال الملح المؤرق الذى لا يفارق ذهن المرء وهو يتابع مسيرة التنوير فى مصر الخروسة هو ماذا حدث للتنوير ؟! إن الزمن الذى نعيشه يبدو مناقضًا للتنوير معاديًا له .. فرمال الإظلام تزحف من الإظلام على الوادى لتحجب ما تأسس من استنارة ، وسيوف الجهالة تحاول استئصال ما ترسخ من مبادئ للعقلانية ، ورماح التعصب لا تكف عن مناوشة كل ما ورثناه من وعى

نقدى ، وأقدام التقليد تدوس فى غلظة جاسية على كل ما يولده السؤال من تطلع إلى أفق معرفى لا حد لفضائه »^(١) .

واعتقدت أن الرجل سيتحدث عن كارثة نعيشها من قرابة عقدين من الزمان اسمها قانون الطوارئ ، بمقتضاه أصبح الدستور فى تابوت الصمت !! واعتقدت أنه سيتحدث عن تزوير الانتخابات ، وحكم الحزب الواحد الذى يركب الأمة من نصف قرن ..

واعتقدت أنه سيتحدث عن مهزلة اسمها نظام التعليم فى مصر .. ذلك النظام الذى يعد انعدام النظام أهم سماته ، والذى اتخذ من الطلاب حقول تجارب لكل فاشل من الأنظمة المتخلفة !!

واعتقدت أنه سيتحدث عن قوم مدنيين من خيرة شباب الوطن يحاكمون أمام قضاء عسكرى بتهمة محاولة « اختراق » الجماهير ، وازدراء الحكم الحاضر !! واعتقدت أنه سيتحدث عن مذلة « التطبيع » واختراق الصهاينة لواقعنا ، وعقولنا ، حتى أصبح لهم فينا عزّة .. وأنصار .. ودعاة من جلدتنا ، ويتكلمون لساننا ، ولا يعرفون شيئاً اسمه القدس ، ولا شيئاً آخر اسمه الحياء !!

واعتقدت أنه سيتحدث عن الفساد الذى يضرب أطنابه فى كل مكان حتى أصبحت الرشوة هى المعبر الطبيعى لقضاء المصالح ، وأصبح « نهب البنوك » هو « مودة » العصر ، والاستيلاء على أراضى الدولة حقاً من حقوق كبار من ذوى الكروش المنتفخة .

كل ذلك .. ولاشئ من ذلك خطر على بال الزعيم التنويرى وهو يستعرض مظاهر - أو أسباب - الإظلام الذى زحف ويزحف لالتهام التنوير .. ولكنه علل ذلك بأشياء عجب .. منها : أن مقص الرقيب يمزق الأفلام .. والتمثيلات .. والمسرحيات باسم السياسة مرة .. والأخلاق أخرى .. والدين مرات .. فلا يستمتع المشاهد بالفيلم أو المسرحية أو التمثيلية إلا بعد أن يشوه مقص الرقيب مصدر المتعة الجمالية ، فيحذف حتى قبله الزوج لزوجته^(٢) .. وصحف تغلق صفحات

(١) د . جابر عصفور : هوامش على دفتر التنوير ٢٤٩ .

(٢) السابق نفسه الصفحة .

الأدب .. والفكر .. والثقافة فى رمضان (لتحل مكانها صفحات الفكر الدينى) ..
وطلاب يوقفون محاضرات العلم فى كليات الجامعة بحجة أداء الصلاة ... » (١).

الدكتور جابر عصفور يرى أن الظلام سائد ، والحرية ذبيحة لأن الرقيب يمنع
القبلة من الأفلام .. وأنا أشك فى هذه المعلومة .. فما زالت الأفلام المصرية غاصة
بأطول القُبل فى العالم .. بل وأردئها ، وأشدّها إثارة للغتيان .. وعلى فرض
حدوثه .. هل يقضى ذلك على جماليات الفيلم المصرى !!؟ يا سيدى إن الهند
- الدولة النووية .. الدولة التى تصدر الآن تكنولوجيا إلى كثير من دول العالم
ممنوع فيها « التقبيل » - أيا كان نوعه - فى الأفلام والمسرحيات وكل عمل
فنى .. وأعمالها الفنية تفوق أعمالنا عشرات المرات موضوعيًا .. وجماليًا ..
وتسويقيًا .. فى الأسواق العالمية ..

وماذا لو أن الفكر الدينى أخذ مكان صفحة أسبوعية أى أربع صفحات فى
شهر واحد من عام ؟! ألم تر أن هذه الصفحة تحذف أحيانًا بسبب زحمة
الإعلانات .. أو بسبب زحف خطاب شخصية مهمة !!؟

والطلاب إن كانوا يتركون المحاضرات للصلاة فإنما يلفتون - عمليًا - أنظار
المسؤولين إلى خلل فى « الجدول » الذى لم يراع تخصيص نصف ساعة يوميًا
للصلاة ! ألم تر أن الدراسة تعطل يومًا أو أكثر بسبب زيارة كبير .. أو مؤتمر ..
أو ما شابه ذلك ؟! فلماذا نستكثر نصف ساعة فى اليوم على أداء فريضة ؟

والرجال الكبار جدًّا فى الصحف القومية ييكون ويصرخون من أجل حرية
الإبداع التى يمثلها حيدر حيدر بروايته الساقطة ، أذكر هؤلاء بالواقعة التالية :

كان حزب الحكومة اسمه « حزب مصر » فلما أعلن السادات فجأة إعلان
« الحزب الوطنى » أسرع أعضاء الحزب القديم إلى الانضمام إليه فى سرعة البرق
دون تردد .. فكتب مصطفى أمين تحت عنوان [فكرة] فى صحيفة الأخبار فى
١٩٧٨/٨/١٥ :

كنت أتمنى لو أن أعضاء مجلس الشعب لم يهرولوا إلى الانضمام إلى
حزب الرئيس السادات الجديد .. كنت أتمنى لو أنهم انتظروا حتى يعلن

(١) السابق ٢٥٠ .

السادات برنامج الحزب ، وبحثوه ، ودرسوه ، ثم اقتنعوا به ، وبعد ذلك
قرروا الانضمام .. كنت أتمنى لو أنهم انتظروا حتى يتألف الحزب فعلاً !!
كنت أتمنى لو أن أعضاء مجلس الشعب ذهبوا أولاً إلى دوائرهم الانتخابية ،
وتحدثوا إلى الناخبين الذين انتخبوهم عن رغبتهم في تغيير لونها الحزبي
الذي حملوه في المعركة الانتخابية ، وبعد أن يحصلوا على تأييد ناخبهم
يعلنون انضمامهم إلى الحزب الجديد !! ... » .

مجرد أمنية .. الرجل المذهب قال : « كنت أتمنى » .. ولم يقل : « كان
يجب » .. ومع ذلك أصدر عبد المنعم الصاوي وزير الإعلام قراراً بمنع مصطفى
أمين من الكتابة السياسية ابتداء من يوم ١٨/٨/١٩٧٨ .. وفي مؤتمر بمدينة « تلا »
بتاريخ ٢٢/٨/١٩٧٨ نوه السادات بهذا القرار ، وهاجم مصطفى أمين بشدة .
ولم يعترض أحد من التنويريين جداً على هذا القرار الجائر ، ولم يرتفع
صوت من دار الأخبار يقول : لا .. بل بالعكس .. نشرت الأخبار ما يؤيد القرار
ويباركه .. ففي يوم ١٧/٨/١٩٧٨ فوجئ الناس بمقال للمخرج السينمائي حسام
الدين مصطفى منشوراً في الأخبار نصه :

لا يا أستاذ مصطفى

نضال السادات هو البرنامج

الأستاذ مصطفى أمين بعد التحية : قرأت كلمتكم التي تلومون فيها أعضاء
مجلس الشعب الذين هرولوا إلى الانضمام إلى حزب الرئيس السادات
الجديد .. وقلت : « كنت أتمنى لو أنهم انتظروا حتى يعلن السادات برنامج
الحزب ، وبحثوه ، ودرسوه ، ثم اقتنعوا به .. وبعد ذلك قرروا الانضمام » .
أرجو أن تسمح لي أن أبدى رأياً في لومكم هذا : إن هرولة أعضاء
مجلس الشعب للانضمام إلى الحزب الجديد هو أمر طبيعي ، وتصرف تلقائي
صاقل .. لم ينتظروا إعلان برنامج الحزب لأن أنور السادات نفسه هو
البرنامج .. تاريخ السادات النضالي الطويل منذ شبابه الأول حتى اليوم هو

البرنامج .. حكم السادات منذ ١٥ مايو ١٩٧١ حتى اليوم هو برنامج حكم
الحزب الجديد ..

السنتان القادمتان .. وبعدهما ينزل الرخاء على مصر والمصريين هو مستقبل
حكم الحزب الجديد .. هذا كله يكون برنامج حزب السادات الجديد ، وهو
برنامج يختلف عن برامج الأحزاب فى العالم .. فكلها برامج مكتوبة .. أما
حزب السادات فبرنامج حتى .. بل هو متدفق الحيوية .. وبرنامج نعيشه أقوى
ألف مرة من برنامج نقرؤه ... » .

وهو منطق غريب يستدعى سؤالاً مؤداه : هل يعنى هذا أن الحزب الوطنى
يعيش الآن بلا برنامج بعد أن قتل « برنامج الحى » يوم المنصة فى السادس من
أكتوبر سنة ١٩٨١ ؟

* * *

ومن البكائين على « حرية الإبداع » - ورمزه هنا الإبداع الحيدرى - كبير من
كبار الماركسية .. ولعله أهم زعمائها فى الوطن العربى ، ومازال يدافع عن
الماركسية بحرارة ، وعما كان يسمى « الاتحاد السوفيتى » بحرارة أشد ، ويهاجم
الإسلاميين - أعنى الظلاميين من وجهة نظره - لأنهم - كما يرى - أعداء
دائمون للحرية والديمقراطية .. وهم دائماً لحرية الإبداع بالمرصاد .. وأجندنى
مضطرباً إلى تذكيره بمقال السيد « لينين » الذى نشره سنة ١٩٠٥ بعنوان « تنظيم
الحزب وأدبه » وفيه يقول :

« لتخلص من رجالات الأدب غير الحزبيين .. لتخلص من هوة الأدب
المتاليين .. على قضية الأدب أن تصبح جزءاً من القضية العامة للبلوريتاريا ..
وجهازاً صغيراً من الآلة الاشتراكية الديمقراطية الموحدة والكبيرة التى تحركها
الطليعة الواعية للطبقة العامة كلها .. على النشاط الأدبى أن يصبح عنصراً
مؤلفاً لعمل حزبى اشتراكى ديمقراطى منظم » ^(١) .

* * *

(١) هنرى أورفون : الجمالية الماركسية ٢٢

وقد يكون هذا التاريخ بعيدًا عن ذاكرة الماركسيين - وهم أشد المتباكين على حرية الإبداع .. أما القريب جدًا من ذاكرتنا وذاكرتهم أيضًا فهي مأساة الأديب السوفيتي الذي حصل على جائزة نوبل « بوريس باسترناك » ، وطرد من جنة الشيوعية والشيوعيين بسبب قصته الشهيرة « الدكتور زيفاجو » .. ولنبدأ « قصة » من بدايتها ، ونر موقف كبار الماركسيين منها :

إن هذه القصة - وهي لا تعدو أن تكون قصة - قد أثارت ثائرة المفكرين والكتاب الشيوعيين الرسميين ، فراحوا يصفون مؤلفها « باسترناك » بأنه « خائن » و« رجعي » و« مرتد » و« هرطيق » و« عدو لبلاده » !

لماذا ؟ .. الجواب هو أن السبب الوحيد في الثورة العاتية الصاخبة التي أعلنها الكتاب والمفكرون الرسميون على « باسترناك » ، هو أن القصة لا تمجد الشيوعية ، ولا تمجد القادة البلاشفة ، والمجتمع الشيوعي .

السبب هو أن « باسترناك » لم يزيف الواقع ، ولم يلتزم بالقيود الجامدة التي تفرضها « الواقعية الاشتراكية » الزائفة على الكتاب ورجال الفكر .

السبب هو أن « الصدق » في التعبير عما يعتل في النفس يصبح في المجتمعات الشيوعية - جريمة لا تُغتفر ، مادام هذا « الصدق » لا يخدم الأهداف الشيوعية .. مثلما يصبح « الكذب » و« تزيف الواقع » حسنة وعملًا جليلاً مادام « التزيف » و« الكذب » يخدمان الأهداف الشيوعية .

ولهذا كان جزاء « صدق » (باسترناك) هو تلوين اسمه وطرده من « اتحاد الكتاب السوفييت » . وكان جزاء تمسك المفكرين والكتاب الشيوعيين الرسميين بالقيود الصارمة التي تفرضها « الواقعية الاشتراكية » الزائفة على المفكرين والكتاب - بكل ما فيها من دعوة إلى « الكذب » و« تزيف الواقع » - هو تمجيد هؤلاء المفكرين والكتاب الشيوعيين الرسميين ووضعهم في أعلى المناصب ، وإسباغ الرعاية والتكريم عليهم .

وإنه لثمنٌ باهظٌ .. هذا الذي يدفعه هؤلاء المفكرون والكتاب الشيوعيون الرسميون .. وإنه لجزاءٌ بخسٌ ذلك الذي يدفعون كرامتهم وحريتهم وضمايرهم ثمنًا له !!

وحسبنا لكى ندرك إلى أى مدى تتبدل ضمائر المفكرين الشيوعيين الرسميين ،
وإلى أى مدى تصهرهم الشيوعية فى بوتقتها ، وإلى أى مدى تُصَبِّ عقولهم فى
قوالب جامدة ، أن نقرأ نص الخطاب الذى بعث به « الكتاب الشيوعيون الرسميون »
إلى « باسترناك » ونشرته صحيفة « ليترا تورنيا جازيتا » - أى الجريدة الأدبية - فى
اليوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٥٨ ، على أثر إعلان فوز « باسترناك »
بجائزة نوبل العالمية .

* * *

جاء فى هذا الخطاب ما يلى :

« يا بوريس باسترناك ... إليك رأينا فى روايتك وما أثارته فينا من قلق
وحيرة .. والأمر لا يقف عند اختلافنا فى تذوق القيم الجمالية ، أو تقدير
الكفاءة الفنية .. بل أشد خطورة .. فهو يتعدى ذلك إلى الاتجاه العام للرواية ..
إلى منهجك الفكرى بأكمله » .

« فالمنطق الداخلى للرواية سلسلة متصلة تبدأ برفض الثورة الاشتراكية ،
وقضى مؤكدة أن ما نجم عن الحرب الأهلية من تحولات اجتماعية أدى إلى
ازدياد أعباء الشعب ، وإلى تدهور المثقفين الروس مادياً ومعنوياً .. وتنتهى
بأن ثورة أكتوبر كانت خطأ تاريخياً ، وأن اشتراك المثقفين فى تحقيق انتصار
الاشتراكية ليس إلا كارثة لا مهرب من آثارها ، وأن ما أسفرت عنه الثورة شر
كل الشر » .

« وهذه الرواية انتكاسٌ نألم له نحن الذين قرأنا لك : ميلاد جديد ،
موجات قطار الصباح .. وهى أشعار تترقق فيها أنغام لا تأتلف معها أبداً
النفمة السائدة فى قصة : دكتور زيفاجو .

« ورغم وقوع روايتك فى جزئين من الناحية الشكلية .. إلا أن خطأ فاصلاً
فعلياً لا علاقة له بهذا الشكل هو الذى يشطرها إلى أجزاء .. والخط الفاصل
هو عام الثورة ١٩١٧ .. فالرواية تجسد حياة المثقفين الروس ولعلها تجسد
موتهم !! - تجسد موقفهم من الثورة التى تتجمع أعاصيرها ، ووضعهم أثناء
اندلاعها ، ثم اضمحلالهم نتيجة لانتصارها » .

« والثالث الأول من الرواية .. وهو يصوّر العشرين عامًا التي سبقت الثورة لا يفضى إلى رفض قاطع للثورة المقبلة رغم اعتقادنا بوجود بذور هذا الرفض .. فمن ناحية التعبير اللفظي المجرد تُقَرُّ أنت بما فى نظام الملكية الفردية من جور ، وفوارق ظالمة .. ولكنك حينما تنتقل إلى تصوير الوقائع الجزئية الحية تبرز لنا صورة مشرقة عن هؤلاء السادة الرأسماليين وخدام نظامهم من المثقفين .. فهم كائنات نورانية تفيض نبلاً ونقاء يكاد يقتلهم التحرق إلى إسداء الخير .. وهم فوق ذلك تستحوذ عليهم النزعة الإنسانية الفياضة ويعجزون حتى عن إيذاء ذبابة ! » .

« وماذا يبقى من تصريحاتك عن رفض النظام الروسى الرأسمالى قبل الثورة ؟ إن قبولك الكامل له لا يخفيه التكرار خلف ألفاظ الرفض .. فهو قبول يرتكز على تصويرك رأسماليين يتبرعون بكل ما يملكون للعمل الثورى ويعيشون وفقاً لما تمليه ضمائرهم ، ومثقفين يتمتعون بحرية عقلية كاملة لا تتدخل لتعكير صفوها أدوات القصر البيروقراطية ، وفتيات فقيرات يلقين سادة أغنياء ممثلين حنائاً ، وعمالاً لا تواجههم المصاعب فى اكتساب الثقافة » .

« والشخصيات التى تزدحم بها روايتك تحيا فى دعة واطمئنان ترفرف عليها العدالة القيصرية السابغة ، وقد يود بعضهم أن يصلوا إلى مستوى أعلى قليلاً .. قليلاً جداً من الدعة والعدالة .. وهذا قصارى انتمائهم للثورة ! » .

ثم لا شئ عن الجحيم الذى كان يقاسيه الشعب الذى جعل من الثورة أمراً حتمياً .. لا شئ إلا حديث بعض شخصياتك عن الثورة .. وهؤلاء هم نماذجك الأساسية الذين تبدى لهم العطف ... وأسلوب حياتهم لن يصبح أقل إمتاعاً إذا ما أجهضت الثورة ... فهم يستطيعون السعادة دونها .. على النقيض من الشعب الذى أخفيتته بعيداً عن أحداث هذا الجزء .. كشيء راكد خامد لا قيمة له ولم تحدد منه موقفاً معادياً إلا عندما بدأت النيران تندلع من هذا البركان ، وبقي أبطالك الفرديون من المثقفين الممتازين يعيشون فى ثراء فكرى ولا تعنيهم إلا مشكلات الوجود الذهنى .. فأنت تقول : « إن غريزة القطيع هى ملاذ الابتذال العقلى .. سواء تعلق الأمر بالإخلاص لسولوفوف أو كانت أو ماركس .. الأفراد وحدهم باستطاعتهم البحث عن الحقيقة .. وهؤلاء الأفراد يقطعون علاقتهم بكل الذين لا يعيشون الحقيقة ..

وما أقل الأشياء التي تستوجب منا الولاء في هذا العالم ! » على حد تعبير أحد « أبطالك » ، نيكولاى نيكولايفيتش .

« وتنشب الثورة التي طال عنها الحديث دون عون هؤلاء الأفراد الباحثين عن الحقيقة .. فرجال « الفكر » و « المثل » لم يبذلوا أية تضحية من أجل معتقداتهم .. بل واصلوا حياتهم العقلية الأثيرة لديهم .. ولكن الثورة فادحة الثمن ، وتفرض على مشعلى نيرانها أعباء قاسية من معاناة الجوع والبرد وشظف العيش ، وتجعل مصارعهم دانية .. والدكتور زيفاجو هذا الفرد الموهوب الممتاز لا يريد أن يتعرض لشيء من ذلك .. إن حياته ثمينة وليست كحياة أفراد القطيع ، ويجب أن يصونها ويهيئ لها الراحة وسط الدمار والخرائب ، وهو يستشعر نحو الثورة نفورًا كبيرًا .. وليس هذا الموقف في نظرك منطويًا على الجبن والندالة .. فهو وأمثاله لا يريدون الحياة الآمنة ، والدعة المطمئنة إلا من أجل الإنسانية .. لأنهم منابع حياة عقلية لا تنضب .. ولم تكن الثورة حدثًا ضخمًا يعيد تشكيل حياتهم ماداموا يواصلون سيرتهم القديمة ، وغاية ما تصبو إليه نفوسهم ألا يعكرو صفو حياتهم طارق جديد .. من أجل عيون الإنسانية ! » .

« والثورة تستوجب تحديد موقف معها أو عليها ، وتلح في المطالبة .. فينزلق شعور الاغتراب عنها إلى العداء السافر لها .. ويخفى زيفاجو أنه طبيب حتى لا يزعجه الآخرون أثناء وقت استشرى فيه الوباء . وهو يقول « في العالم الجديد الذى يبنيه القلب على غمط ملكوت الرب .. ليس ثمة شعب بل أفراد » .

« فالشعب ليس موجودًا بالنسبة إلى هذا الفرد الموهوب .. وهو لا يحمل نحوه أية مسئولية ، ومسئوليته كلها تنصب على ذاته وعلى قلة ضئيلة أثيرة لدى هذه الذات » .

« وتقول لارافيدوروفنا والحرب الأهلية فى أوجها لحبيبتها زيفاجو : أنا وأنت مثل آدم وحواء عندما كانا فى البدء ، لا يمتلكان ما يستران به الجسد .. نحن عاريان شريدان .. ونحن آخر ما تبقى من السمو الرائع الذى بُنى على مر آلاف السنين فى هذه الأرض منذ آدم وحواء . وفى ذكرى هذا السمو الذى ينقشع الآن نعيش ونحب ونبكي ويتعلق كل منا بأحضان الآخر » .

« فكل ما تبشر به الثورة من خصب وازدهار للملايين الناس لا أهمية له أمام هذه الكبرياء والأنانية الحمقاء .. فإن كنت تنتمى إلى نمط محدد فمعناه أن تفقد إنسانيتك وأن تستحق اللعنة » .

« ونحن لا ننكر وجود أمثال زيفاجو أثناء الثورة والحرب الأهلية ، ولا ننكر الطابع النموذجي لهذه الشخصيات » .

« ففى اعتقادنا أن دكتور زيفاجو يمثل فعلاً نمطاً معيناً من المثقفين الروس ، وهو نمط ولوع بالكلام عن شقاء الشعب ويجيد تنمية ولكنه عاجز كل العجز عن أن يفعل شيئاً يزيل هذا الشقاء .. وتشعر نماذج هذا النمط بأهمية ذاتية استثنائية ، ويعيشون بمعزل عن الشعب ، وهم على استعداد فى أوقات المحنة لخيانته والتخلى عنه ، ورغم أنهم شديداً الحساسية تجاه أى أذى يصيبهم مهما تضاءل ومهما يَكُنْ مُتَخَيِّلاً إلا أنهم قادرون على تبرير ما ينوء الشعب تحته من أثقال ، وعلى إضفاء عبارات جميلة على هذه الأوضاع » .

« ولكن أهذا النوع هو صفوة المثقفين الروس ؟ وهل من الصواب أن يبرزوا رغم قصورهم وهربهم وتفاديتهم أن يحددوا موقفاً بوصفهم نخبة ممتازة ؟ هل من حقهم أن يجلسوا القرفصاء كقضاة يصدرن الأحكام على الثورة والشعب الروسى .. أو القطيع الأخرس العاجز عن التفكير ؟ أمن حق هذا الزيفاجو أن يكون قاضياً وجلاداً فى الوقت نفسه ؟! إنه يقول : « إن هذا النظام يناصرنا العداء .. وفلسفته غريبة على ؛ فإن أحداً لم يأخذ رأبى فيما إذا كنت موافقاً على هذه التحولات » ... ويقول : هل الماركسية علم ؟ .. إن العلم شىء أكثر اتساقاً . أتتكلمون عن الماركسية الموضوعية ؟ أنا لأعلم مذهبا أكثر ذاتيةً وابتعاداً عن الواقع من الماركسية » .. ولماذا كل هذه التحضيرات من أجل حياة المستقبل ؟ .. لقد خُلِقَ الإنسان ليعيش لا ليُفنى فى التحضير للحياة » .. هذا هو ما يقوله .

« أى أن فلسفة زيفاجو لا تدور إلا حول محور واحد هو ذاته الضيقة ، ولا يدخل الشعب وانتصاراته وما يكابده ، فى حسابه على الإطلاق . بل إن انتصار الثورة يملؤه حنقاً ، ويثير فيه الحنين إلى العالم الذى فقده ، إلى جنة العزلة المريضة حيث لا يزعجه دوى الملايين وهى تستيقظ من إغفائها وحيث لا تصك أذنه ضوضاء البناء . إنه لا يؤمن بأنه بإمكان الإنسان إعادة تشكيل الحياة .

فالحياة نعيشها ونمارسها ، ولا يجب أن يفسدها التحضير للغد ، وليس مستساعاً أن نرهن الواقع مقابل حلم . ويلوح له أعداء الثورة أصدقاء ويحس بالحب لهم ، ولكن انطواءه على نفسه يمنعه من أن يقاتل في سبيلهم ، فيظل مستغرقاً في ازدياد الثورة وقادتها الأغبياء والتحرق العقيم إلى فردوس أعدائها ! » ولنعد إلى الفصل الذى اضطر فيه زيفاجو إلى إطلاق الرصاص على البيض ، وهو فصل يشير في مجموعته إلى إعجابك - ككاتب - ببطل قصتك ، وإلى أنك تشاطره أفكاره ومواقفه .

« فما هي هذه الأفكار والمواقف ؟ لنوجزها هنا : فقد أزعج الدكتور زيفاجو على أن يشترك مع جنود الأنصار ، وكان أعداؤهم في الناحية الأخرى رائعين مشيرين للإعجاب من وجهة نظر زيفاجو ، وهم فوق ذلك أعزاء على قلبه ، وهو معهم بكل روحه ، فلماذا لم يذهب إليهم بجسمه أيضاً ؟ لأنه خشى أن يعرض حياته للخطر ، وليس ثمة سبب آخر . ولا شك في أنك مستيقن من كفاءة هذا التبرير لزدواج موقف بطلك ! ثم يصوب زيفاجو ناره إلى شجرة محترقة حتى لا يصيب أعزاه البيض .. ولكن المصادفة تجعله يقتل ثلاثة منهم .. ولم يعد يشعر بالعطف على البيض ، بل على عاملة التليفون الثورية التى قتلوها ، ثم ينتقل عطفه إلى الجندي الأبيض الذى قتله هو . حينما يكتشف أنه لم يمت يتحایل على إطلاق سراحه رغم تأكيد الجندي بأنه عائد إلى صفوف أعداء الثورة ليقاتل الحمر من جديد !

« ألا يشير زيف عواطف زيفاجو وضحالتها ، وخاناته المتعددة لما يليه وجدانه النفور والاشمئزاز ؟ ولكنك حاولت جاهداً بكل ما فى موهبتك من قوة أن تتلمس له المآذير . ووصلت فى النهاية إلى تبرير الخيانة . ولم تجد تبريراً فى تمجيدك للفردية ، واعتبار العالم الذاتى الذهنى قمة الكمال الروحى ، يُضْحَى من أجل حمايته بكل شئ .

« ولم تقف عند ذلك ، فقد جعلت من زيفاجو شاعراً يحمل مسؤولية نقل شعره إلى العالم . وختمت الرواية بمقطوعات بعثت فيها موهبتك لأنك حريص على أن تتم المطابقة بينك وبين زيفاجو .

« ويموت زيفاجو بعد أن ظلت حياته كلها مرتبطة بالآلام كآلام المسيح ،

ويترك وصيته الشعرية منتهيةً بكلمات المسيح : « ستسبح إلى القرون من الظلام كقافلة من السفن كى أحكم بينها » .

« ولكن ألا تقتصر « آلام » الطبيب الشاعر على تمجيده لنفسه فوق مصاف البشر ؟ وألم يكن الحافز لهذا المسيح العقلى هو أن يقتل زملاءه ويخونهم ويبغضهم لينقذ (روحه) هو ؟ ما أبعد زيفاجو عن المسيح . فقد كانت نفسه شغله الشاغل ولم يهتم بالإنسانية أدنى اهتمام .

« وأنت لست بعيدًا عن الرمزية ، فإن موت زيفاجو فى أواخر العقد الثانى يرمز إلى مصرع المثقفين بعد أن أصابتهم الثورة فى المقتل !! فزيفاجو فى رأيك هو أسمى تعبير عن روح المثقف الروسى ، ولكنه فى رأينا أخطأ درك يصل إليه المثقف .

« وفى رأيك أن المثقفين الذين ساروا مع الشعب وصوّروا نضاله وانتصاره قد هجروا رسالتهم الحقيقية ، وانتحروا انتحارًا أدبيًا ولم يقدموا شيئًا ذا قيمة ، ولكننا نعتقد أن هذا هو الطريق السليم الذى سار فيه الكتاب قبل الثورة وأن انفصال الوعى من مصالح الشعب ردةً أيديولوجيةً تصيب الأدب بالعقم والجمود .

« ونود أن نضيف هنا أن ما تحفل به الرواية من ازدراء للشعب إبان الثورة ، يتعارض تعارضًا صارخًا مع تقاليد الأدب الروسى الرائعة . ولم نُشر حتى الآن إلى الناحية الفنية من روايتك ، ولا يفوتنا أن نسجل ما فى السرد من تشتت وما فى البناء من تزعزع ، بل ما فى الرواية من تمزق الأوصال ، فأجزاؤها المختلفة لا تأتلف فى لوحة متكاملة . ولكن تصويرك للطبيعة كان حافلًا بالجمال والشاعرية .

« ومهما يكن كلُّ منا ثقيلًا على نفسه ، فقد أطلقنا على الأشياء أسماءها الحقيقية ، فمواقفنا من الشعب والثورة والإنسان العادى متناقضة . « وإن كنت ما زلت قادرًا على إنعام التفكير فيما قلنا ، فلا تدغ الفرصة تفلت . ونحن نود ذلك من كل قلوبنا .. » .

* * *

وحسبنا أيضًا ، لكى نقف على مدى الجمود المذهبى فى الأدب الذى

يخضع له الكتاب - فى ظل الشيوعية - أن تقرراً قرار « اتحاد الكتاب السوفييت » ... وفيما يلي نصه :

« انعقد مجلس رئاسة اتحاد السوفييت ، ومكتب اللجنة التنظيمية لاتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية ، ومجلس رئاسة قطاع موسكو من اتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية لمناقشة مواقف بوريس باسترنك . ووصل الأعضاء إلى قرار إجماعى يَعتَبِرُ هذه المواقف متعارضة مع رسالة الكاتب السوفيتى ، وموجهةً ضد تراث الأدب الروسى ضد الشعب والسلام والاشتراكية . وتبدأ هذه المواقف منذ زمن طويل بتصريحاته التى تجبذ « الفن الخالص » ، وتنتهى بأن أصبح الآن أداةً من أدوات الدعاية البورجوازية ، ومصدراً يسير المنال من مصادر الرأسمال السياسى للعناصر المسئولة عن الحرب الباردة ، وللعناصر التى تسعى إلى تشويه كافة الحركات التقدمية والثورية . إن هذه العناصر لا تحبى تدهور باسترنك الأخلاقى والسياسى لأنها حريصة على تكريم ما قد يكون لديه من موهبة أدبية ، بل لأنه انضم إلى صراعهم الضارى - رغم عقمه - ضد حركة التاريخ الصاعدة .

« وقد اختنق نشاط بوريس باسترنك الأدبى منذ زمن طويل فى العزلة المقفلة داخل الذات الفردية ، وفى الانفصال عن الشعب والمشكلات الحاضرة . ولا تعبر روايته « دكتور زيفاجو » التى أثارت غباراً كثيفاً من الدعاية إلّا عن غرور زائف وضحالة فكرية . فهى صحيحة فِرْعَةً يطلقها سجن الأناية الفردية ، تنم عن ألمه ولوعته ، لأن التاريخ لم يسر فى الطريق المتعرج الذى ودّ أن يسير فيه . وفكرتها الأساسية زائفة مبتذلة الثقتت من كومة فضلات أدب الانهيار ، فبوريس باسترنك يود أن يثير الشكوك حول شرعية ثورة أكتوبر وضرورتها الآن ، حينما يتأهب الاتحاد السوفيتى للاحتفال بعيدها الحادى والأربعين ، كدولة قوية متقدمة تقف فى طليعة الثقافة العالمية والعلم . وقد أصبح انتصار الاشتراكية حقيقة تاريخية راسخة فى بقاع شاسعة من أوروبا وآسيا . ويقدم بوريس باسترنك الفلسفة الفريسة المريضة لبطل قصته من مناهضة الفكر التقدمى والفعالية الخلاقة .

« وقد حاول اتحاد الكتاب السوفييت - وهو الذى يحيط العمل الإبداعي بالرعاية - طيلة سنوات أن يساعد بوريس باسترنك فى التحقق من أخطائه وفى تجنب التدهور الأخلاقى ، ولكن باسترنك الآن قد قطع آخر صلاته بوطنه وشعبه ، وجعل من اسمه وإنتاجه سلاحًا سياسيًا فى أيدي الرجعيين » .
« ولا ينطوى قرار منح جائزة نوبل لرواية « دكتور زيفاجو » - رغم تنكره خلف كلمات رنانة عن شعر باسترنك ونثره - إلا على موقف سياسى وضيق من جانب العناصر الرجعية » .

« ويصاحب منح باسترنك جائزة نوبل حملة هوجاء ضد الاتحاد السوفييتى ، هى فى حد ذاتها دليل على الطابع الدعائى لا الأدبى لقرار منح الجائزة » .

« ومن دواعى الأسف أن هذه ليست المرة الأولى فى منح جائزة نوبل لهؤلاء الذين يخدمون تجار الكراهية ومثيرى الحرب الباردة ، والذين يشنون الحملات الصليبية ضد التقدم الاجتماعى والنزعة الإنسانية . ولم تستطع لجنة نوبل الأدبية أن ترى كنوز الأدب ذات الشهرة العالمية فى إنتاج ليوتولستوى وتشيفخوف وجوركى وماياكوفسكى وغيرهم ، ولم تقع عينها على « بونين » إلا بعد أن هرب من الاتحاد السوفييتى وناصبه العداء ، وقد أبصرت الآن بالمرتد باسترنك . ولا عجب أن اعتبرت هذه الجائزة فى الصحافة الغربية جائزة معادية للشيوعية . ويفصح رجال الفكر فى السويد وفى غيرها من البلاد عن رأيهم القائل بأن باسترنك نال جائزة نوبل لأسباب سياسية بحتة .

« ونظرًا لتدهور باسترنك السياسى والأخلاقى ، وخيانتة الشعب السوفييتى وقضية الاشتراكية والسلام والتقدم واستهدافه خدمة الحرب الباردة مما أدى إلى منحه جائزة نوبل ، فإن مجلس رئاسة اتحاد الكتاب السوفييت ، ومكتب اللجنة التنظيمية لاتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفييتية ، ومجلس رئاسة قطاع موسكو من اتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفييتية ، لا تعتبره منذ الآن كاتبًا سوفييتيًا ، وتفصله من اتحاد الكتاب السوفييت » . (٢٨ أكتوبر ١٩٥٨) (١) .

(١) ماهر نسيم : الأدب الشيوعى ١٤٨ - ١٥٦ .

هذا هو ما قاله « المفكرون الشيوعيون » الرسميون فى خطاب بعثوا به إلى « باسترناك » ؛ وما قرره « المفكرون الشيوعيون » الرسميون فى اجتماع عقده « اتحاد الكتاب السوفيت » .

وليس ثمة شك فى أن الخطاب والقرار يكشفان عن « الجمود الفكرى » ، و « الديكتاتورية الفكرية » فى ظل النظم الشيوعية . فهذه النظم تحرم الكتاب والمفكرين من « الحرية الفكرية » وتجعل منهم مجرد أدوات تستخدمها الأجهزة الشيوعية الرسمية فى خنق الحريات ، والقضاء على الاستقلال فى الرأى ، وصب عقول المفكرين والكتاب فى قوالب جامدة ، وحملهم على تمجيد الحياة الشيوعية ، بكل ما تحفل به من رذائل ومثالب ، وإرغامهم على الكذب وتزييف الواقع ، وإدخال الفزع فى نفوس أولئك الذين لا يرضخون ولا يخضعون للأجهزة الشيوعية .
وتلك هى محنة الأدب الشيوعى الذى لا يؤمن بالحرية ولا يؤمن بالصدق ، ولا يؤمن بالكرامة الإنسانية^(١) .

* * *

وبعد كل ما سبق نرى أننا عشنا مع خطابين غربيين عجيبين :
خطاب يواجه « باسترناك » .. وأصحابه مفكرون شيوعيون كبار .
وخطاب يقف مع حيدر .. وأصحابه لجنة من النقاد الكبار بزعامة الدكتور القط .
الخطابان متفقان فى روح الغلو والإسراف والحدة فى إصدار الأحكام ..
وكأنها نهائية لا تتحمل الشك ولا تقبل الجدل !! .
ولكن المفارقة المضحكة المبكية أن هيئة - أو هيئات - الحكم على باسترناك هيئات شيوعية ماركسية تحاكم رواية إنسانية المضمون ، راقية المعانى ، مستكملة كل عناصر الفن الروائى الرفيع ، وتحكم عليها بالهبوط والخروج والمروق ، وعلى مؤلفها بالغدر والخيانة و ... و ...

(١) السابق ١٥٧ .

أما لجنة الحكم على رواية حيدر فهي هيئة عربية مصرية مسلمة تدافع بحرارة
عن عمل هابط يجافى روح الفن والذوق والدين !!
الأولى : تهاجم على طول الخط .
والثانية : تدافع باستماتة على طول الخط .
الأولى : لم تجد فى رواية باسترناك حسنة واحدة .
والثانية : لم تجد فى رواية حيدر سيئة واحدة .. وهذا من أعجب العجب !!! .

* * *

خاتمة المطاف

لقد طال بنا المسار ، وتعددت منا الوقفات مع هذه الوليمة الحيدرية الدميمة .. وأعتقد أنني منصف غير مسرف إذا قلت : إن رواية « وليمة لأعشاب البحر » :

- فى ميزان الإسلام رواية ساقطة داعرة !!
 - وفى ميزان العقل رواية مختلة فاسدة !!
 - وفى ميزان الأدب والنقد رواية ضعيفة مهترئة .
- وهو حكم لم نلقه على عواهنه ، ولم يكن مدفوعاً بحماسة وعشوائية .. فكل صفحات هذا الكتاب تمثل حيثيات ميدانية واقعية موثقة لإبراز هذا الحكم وبيان وجه الحق فيه !!

* * *

وقبل كتابة هذا الكتاب تصدينا لرواية حيدر ، وقلنا فيها ما نرى أنه الحق .. جاء ذلك فى مقالات نشرت فى صحيفة « الشعب » وصحيفة « آفاق عربية » ، وكذلك فى ندوات .. وأحاديث .. ولقاءات إذاعية ، وتلفازية .. وكنا ومازلنا نقصد بعملنا هذا ولواحقه وجه الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، وإحقاق الحق ، والانتصار للكلمة الطيبة النظيفة الشريفة .. ولكن بعض الإخوة - بحسن نية - عاتبنا على هذا التصدى .. لأنه كان سبباً لشهرة حيدر وشهرة روايته التى أصبحت توزع بعشرات الألوف .. بعد أن كانت توزع بالآحاد والعشرات .. بل أصبحت تباع فى السوق السوداء .

قال الأخ الكريم - وأنا أحاوره - : لو سكتتم وما نطقتم ، وما كتبتم لظل حيدر هذا حيّاً دفيناً مجهولاً فى قريته بأقصى شمال سوريا ، ولظلت روايته هذه مجهولة أو محصورة فى أضيق نطاق .

قلت لصاحبي : إن الاستهانة بالشر في بدايته ، أو لصغره وخفاء تأثيره سيحوّله - بالإغفال تدريجيًا - إلى قوة ضاربة ، وتيارات ضارية يصعب حصارها ومواجهتها ، وأذكرك بما كتبته في مدخل هذا الكتاب :

- معظم النار من مستصغر الشرر .

- إذا نحن طامنا لكل صغيرة فلا بدّ يومًا أن تُساعَ الكبائرُ

إن التفريط في عقل بعير سيجر إلى التفريط في البعير نفسه ، ثم في القطيع ، ثم في المرعى والحمى .

والتغافل عن بغلة عثرت في أرض العراق سيقود إلى إهمال إصلاح الطرق ، ثم مرافق الوطن والأمة .

وإهمال « بثرة » ملتهبة في الجلد ، قد يؤدي بالتدريج إلى تورم خبيث يودي بالحياة .

ونحن - الأدباء والنقاد الإسلاميين - رساليون .. ورسالتنا في الحياة نابعة من قاعدة جلييلة شامخة من قواعد هذا الدين الخاتم الذي نؤمن به .. وهي قاعدة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . ورحم الله أبا حامد الغزالي الذي قال : « إن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين . ولو طوى بساطه ، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ^(١) .

* * *

قال صاحبي - وأنا أحاوره - : ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنك بتصديكم هذا الحيدر قد مكنتموه - أوسهلتموهم له - أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه !! . قلت له : أتفق معك في أنه دخل التاريخ .. ولكنني أختلف معك في

(١) إحياء علوم الدين ١٨٦/٧ .

« وصف الباب » الذى دخل منه إلى التاريخ .. إنه لم يدخل التاريخ من « أوسع » أبوابه .. ولكنه دخل التاريخ من « أ... » أبوابه ... من الباب الذى دخل منه أشهر داعرى الفكر ، وساقطى الأدب ، وعتاة المزيفين ، ودعاة الهدم والتدمير ، ومصاصى الدماء والدموع والنخاع .. إنها الشهرة التى لا تفارقها اللعنة ، وعلى مدار التاريخ تستهدفها البصقات !!!

* * *

ولكنى _ إحقاقاً للحق - أقر وأعترف بأن رواية حيدر « وليمة لأعشاب البحر » قدمت للأمة والفكر - من حيث لا تقصد ولا يقصد صاحبها خدمات جلية عديدة تنضوى كلها - على تعددها - تحت كلمة واحدة هى « التعرية » .. تعرية كثيرين كانوا يتدثرون بأردية ثقيلة صفيقة من الغش .. والخداع .. والكذب .. والادعاء ، وتعرية كثير من القيم النفعية كانت تتحكم فى مسيرة الأمة فكرًا وأدبًا !!

وأول من تعرى - أو عُرى - وربما أسعده ذلك - وزير ثقافتنا « الوسيم جدًا » الخديوى فاروق حسنى الذى أنفق من مال الشعب المطحون مائة وسبعين مليون جنيه فى ليلة واحدة .. لا على تجهيز وزفاف « قطر الندى » بنت خمارويه .. ولا فى ألف ليلة وليلة .. ولكن فى ليلة واحدة سماها ليلة الاحتفال بالألفية الثالثة !!

لم يستح الخديوى فاروق حسنى أن يعلن فى قناة الجزيرة أن رواية حيدر ليس فيها ما يسيء إلى الإسلام .. بل إنها تخدم الإسلام ، وتعتبر دعاية طيبة له .. فلما قال له الأستاذ حسين عبد الغنى : ولكن الرواية فيها عبارات تسيء إلى الدين والأخلاق .. قال الوزير « الجميل » : هذه رؤيتهم والمعروف أن الأخلاق نسبية . والوزير « الجميل » يردد ماتبناه السفسطائيون من أمثال هيبىاس وأنتيجون وبروتاغوراس فى القرن الخامس قبل الميلاد من القول بنسبية الأخلاق .. والنظرية بتبسيط شديد جدًا تعتمد على محورين هما :

١ - لا ثوابت أخلاقية ملزمة تستوجب الإجماع عليها .

٢ - شخصية الأخلاق انطلاقاً من التصرف الحر دون قيد .. فالطيب الحلال : طيب حلال إذا رأيت أنه كذلك .. وهو خبيث حرام إذا حكمت عليه بذلك !! وتفرعاً على « نسبة » الأخلاق الفاروقية الحشنية يعتمد تكييف السلوك على منطق التبرير الذاتي ، فأنت أستاذ نفسك ، وحاكم ذاتك . فالرشوة تستساغ إذا كيفت بأنها إكرامية ، تلين القلوب ، وتسهل « مصالح » المواطنين .

والخمر - لحرمة فيه - لأنه يجمع الأصدقاء ، وقليل منه - كما قال بعضهم - يصلح المعدة .

والشدوذ الجنسي السالب لا عيب فيه - كما نقل عن « كبير » مصاب بهذه الآفة - فعباقة العالم من أمثال أبي نواس وأندريه جيد ، وأوسكار وايلد كانوا « كذلك » ، وقال الكبير : وفيما تسمونه شدوذاً سمو بالروح .. إنه « يوجا حقيقية » تُذل الجسد .. وبإذلاله تسمو الروح .

* * *

ومن « المعرّين » كبير من كبار وزارة الثقافة لا يعرف الفرق بين الفاعل والمفعول وبرج الجزيرة ، ولا يحسن جملتين متتاليتين كتابة أو نطقاً .

ورعاة ثقافة يأمرّون المطابع أن تدور بكل غث يضرب الدين والعقل والمنطق وقيم شعبنا الأصيل .. فأين الثقافة يارعاة الثقافة !!؟ يا عجباً !! بل يا أسفاً .. هل فاقد الشيء يعطيه !!؟

وأثبتت « معارك » الوليمة أننا نعيش - لا أزمة نقدية - ولكن نكبة نقدية هي - في واقعها وحقيقتها - انعكاس قوى لأزمة أخلاقية حادة جدّاً قوامها الكذب والنفاق .. والتفريط والإفراط .. والطيش والاندفاع وسوء الظن .. ولأترك التعميم إلى التخصيص والتعيين :

ماذا يعنى الاعتراض على رواية حيدر ؟ إن هذا يعنى أن المعترض : إرهابى .. من دعاة الفتنة .. سفاح دموى .. قاتل من ورثة خالد

الاسلامبولي^(١) يقبض من الخارج .. يهدف إلى تحقيق مكاسب سياسية واجتماعية .. ظلامى .. رجعى .. جامد .. ضيق الأفق .. من أعداء الثقافة وحرية الإبداع .. جاهل .. أحرق من دعاة الإسلام الحزبى^(٢) .

أما القضاة أو الحكماء الذين خلعوا هذه الصفات على المعارضين ، واحتضنوا رواية حيدر فقد وصفوا أنفسهم بأنهم :

التنويريون .. المثقفون .. المثقفون الشرفاء .. أنصار الإبداع والحرية .. حراس الفكر والعقل .. رموز التنوير والانطلاق الفكرى !!

وهم يصرخون فى وجه الظلاميين :

« من وكلكم وأعطاكم الحق فى الدفاع عن الدين ، ومهاجمة الإبداع ؟!! » .

ونسوا أن السؤال نفسه يمكن أن يجابهم « الظلاميون » به ، ويهتفوا فى وجوهم :

« وأنتم .. من وكلكم وأعطاكم الحق فى الدفاع عن « الإفراغات الإبداعية » المتقيحة الساقطة ؟

* * *

والخلاصة أن التنويريين اتخذوا من الرواية الحيدرية : معيار حكم ، وميزان تقييم : فمن « معها » تنويرى تقدمى مثقف بإطلاق .. ومن « عليها » ظلامى رجعى بإطلاق .

ونسى التنويريون فى - سعار حماسهم - أنهم بهذا « الميزان » قد وقعوا فى الحرج والتناقض مما تكشفه الأسئلة الآتية :

- إلى أى فصيل ينسبون الكاتب إبراهيم عيسى ، وهو من أقواهم يسارية ، وله مقال قوى جداً فى فضح حيدر وروايته ؟

- وما مكان الدكتور فؤاد زكريا على « فيلسوف العلمانية » ، وله حملة شديدة على الرواية ، واللجنة القطيعة التى كتبت تقريرها « العجيب » عن الرواية ؟

(١) انظر : عبد العظيم رمضان فى مقاله ص ٢٠ من مجلة أكتوبر العدد ١٢٢٩ - ١٤/٥/٢٠٠٠

(٢) انظر : سيد خميس فى مقال له ص ١٠ من أخبار الأدب العدد ٣٦٣ - ٢٥/٦/٢٠٠٠

- وهل يصنف الكاتب المعتدل الأستاذ « سامح كريم » فى الظلاميين أم التنويريين بعد أن وصف رواية حيدر بأنها « متواضعة جدًا من الناحية الفنية حتى لا يكاد المرء يقلب بعض صفحات حتى يشعر بالسأم والملل ، فليس فيها بريق وجاذبية العمل الإبداعى الجميل .. وإنما اشتملت على الكثير من تشابك الأحداث ، وتداخلها بشكل مزدحم يتوه معه القارئ .. الأمر الذى يجعله يقيد الأحداث واحدة بعد الأخرى فى قصاصة صغيرة منعًا للنسيان والسهو حتى يمكن متابعتها والتحكم فى خيوط نسجها .. وهو أمر ليس فى صالح العمل الإبداعى الذى يفترض فيه أن يروق القارئ ، ويسوقه من أولى صفحاته إلى آخرها ، فلا يتركه إلا وقد فرغ منه تمامًا منتجًا لديه متعة ولذة .. »^(١).

* * *

أما حيدر حيدر فقد أخذ التنويريون جدًا ينفخون فيه من أرواحهم ، ويُلْمَعونه .. يلمعونه بكل ما يملكون من قوى وإمكانات ، فلم يعد هو ذلك القزم القمىء الدميم القابع فى « حصين البحر » بأقصى شمال سوريا .. لا أنيس له إلا كلبه .. ولكنهم « شيئوه » و « عمَلَقوه » فهو فى نظرهم :

- خير من عَبَّر عن عصره .. بل هو سابق لعصره .

- وهو أجرأ من عالج وتناول الدين والسياسة والجنس^(٢) .

- وهو رمز للإبداع الحر ، والمبدعين الأحرار .

- وهو شهيد فكر ، يطلبه الظلاميون الخونة لقتله .

- وهو ... وهو ...

(١) مقال بعنوان : ويسألونك عن الإبداع (الأهرام ١٣/٦/٢٠٠٠) .

(٢) صدقهم حيدر فيما يقولون ، وصدق نفسه ، فوصف أسلوبه بأنه سابق لعصره ، وأنه الأبقى على الزمن ، وأنه أجرأ من تناول « المحرمات الثلاثة » : الدين .. والسياسة .. والجنس .. وهذه المرأة لا تتوافر فى أديب آخر غيره [انظر أخبار الأدب : العدد ٣٦٦ . ص ٩] . وهو يذكرنا بغالى شكرى بحملاته المنكرة على ما سماه « بالكهنوت » وعَرَفَه بقوله : « الكهنوت كلمة جامعة مانعة ، لا سبيل أمامها للتخلص من الجذر الدينى وشعيراته الميتافيزيقية : السر .. الغيب .. المقدس .. المحرم .. المطلق .. المفارق .. الأزلى .. الأبدى .. الأوحى ... [انظر مجلة المنار - العدد ٥٧ السنة الخامسة - سبتمبر ١٩٨٩ - القاهرة] .

وانطلق المحظوظون من التنويريين إلى لقاء الرجل ليظفروا منه بك
أو كليمات « يعطرون » بها صحفهم ، وأحدهم لم يكنف بهذا .. بل شرح ييب
نشر « الوليمة » فى نشرته الأسبوعية ، ووالله لقد أخذنى الخجل حينما قرأت لواحد
من هؤلاء يصف ما عاناه من مشاق على مدى أربع وعشرين ساعة بالطائرة والسيارة
إلى أن وصل إلى « المحروس » حيدر حيدر ، وظفر منه بحديث ، وحرص على أن
يلتقط معه عددًا من الصور فى أوضاع مختلفة ، وظفر منه كذلك بتوقيعه على
« الأتوجراف » الخاص به (!!) . كتب السيد المحترم فى نشرته الأسبوعية المغمورة
« ... على باب المنزل (منزل حيدر) يوجد كلب حراسة ، وقمت بمداعبته (!!!)
وخلال ثوانى (كذا) فتح لنا الباب الكاتب الروائى حيدر حيدر ، يرتدى فائلة
بنصف كم ، وبنطلون (كذا) ، ويبدو عليه الشباب والحيوية والعبقرية (!!!) .. » .
وتذكرت ما كتبه أنيس منصور فى كتابه القيم « حول العالم فى ٢٠٠ يوم »
واصفًا المشاق التى عاناهما حتى التقى بـ « الدالاي لاما » أيام أزمته المشهورة .. ولكن
شتان . وتذكرت - بعد قراءتى الكلمات السابقة - جملة الدكتور محمد عباس
المشهورة « وضحكت ، وضحكت .. وضحكت » لا من قدرة « السيد التنويرى
المحترم » على مداعبة كلب الحراسة .. (وكلاب الحراسة من صفاتها الشراسة) ،
ولكن من وصف حيدر بأنه تبدو عليه العبقرية ... هكذا .. بسهولة يا تنويرى ؟
الشباب والحيوية نعم .. وارتباطهما بالبنطلون والفائلة أم نصف كم .. جاز ..
لكن « العبقرية » ... !!!؟

* * *

نعم هذه بعض « التعرييات » التى قدمتها رواية « وليمة لأعشاب البحر » من
حيث لا تقصد .. ومن حيث لا يقصد كاتبها حيدر حيدر .. ولكنى أذكر القارئ
مرة أخرى بأن هذه الرواية :

- فى ميزان الإسلام رواية ساقطة داعرة !!
- وفى ميزان العقل رواية مختلة فاسدة !!
- وفى ميزان الأدب والنقد رواية ضعيفة مهترئة .

أقولها بعد دراسة طويلة ، ومعيشة واعية .. أقولها لأقصد بها إرضاء أحد ..
ولأغضاب مخلوق .. ولكن أقصد بها وجه الحق .. وتحرير الحقيقة .. بلا إسراف
أو تقصير .. بلا إفراط أو تفريط .

والحمد لله رب العالمين في الأولى والآخرة .

د . جابر قميحة

ربيع الآخر ١٤٢١

الموافق يوليو ٢٠٠٠

الوثائق

بيان مجمع البحوث الإسلامية

بشأن رواية

وليمة لأعشاب البحر

لمؤلفها : حيدر حيدر

طبع ونشر الهيئة العامة لقصور الثقافة التابعة لوزارة الثقافة بالقاهرة .

تم عرض موضوع الرواية المشار إليها على « لجنة البحوث الفقهية » فكلفت اثنين من أعضائها المتخصصين بكتابة تقريرين منفصلين عن الرواية لعرضهما في جلسة استثنائية « مجمع البحوث الإسلامية » حدد لها يوم الأربعاء ١٣ من شهر صفر ١٤٢١ هـ الموافق ١٧ من شهر مايو سنة ٢٠٠٠ م ، وقد تم عرض هذين التقريرين والرواية على المجمع في جلسته الاستثنائية وتبين ما يأتي :

أولاً : أن وزارة الثقافة التي نشرت هذه الرواية لم تستطلع رأى الأزهر الشريف أو مجمع البحوث الإسلامية مع ما ورد فيها من أمور كثيرة تتصل بالإسلام والعقيدة والشريعة .. وذلك على خلاف ما يقضى به القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها ولائحته التنفيذية والقوانين المتصلة بحماية حق المؤلف وتنظيم وزارة الثقافة مما قطعت فيه الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة بفتواها الصادرة بجلسة ٢ من فبراير سنة ١٩٩٤ (ملف رقم ١ / ٥٨ - ٦٦) من أن الأزهر الشريف هو وحده صاحب الرأى الملزم لوزارة الثقافة فى تقدير الشأن الإسلامى للترخيص أو رفض الترخيص بالمصنفات ، وأن شيخ الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ، وما يتبعه من إدارات هو صاحب الولاية فى فحص المؤلفات والمصنفات التى تتعرض للإسلام لإبداء الرأى فيها .

ثانياً : إن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التى تُحَقِّقُ وتهين جميع المقدسات الدينية بما فى ذلك ذات الله - سبحانه وتعالى - والرسول ﷺ والقرآن الكريم واليوم الآخر ، والقيم الدينية .

ومن ذلك أنها تستهزئ بذات الله ، مثل وصفه بأنه « فنان فاشل » (ص ٢١٩) ، وأنه نسى بعض مخلوقاته من تراكم مشاغله التى لا تحدد فى بلاد العرب وحدها (ص ٢٥٧) وأنه أقام مملكته الوهمية فى فراغ السماوات ليدخل فى خلود ذاته بذاته (ص ٤٢٦) .

كما يفترى على الرسول - عليه الصلاة والسلام - بأنه تزوج لأكثر من عشرين امرأة ما بين شرعية ، وخليفة ، ومتعة (ص ١٤٨) ، وأنه كان يتزوج من عذارى القبائل بغية توحيدها (ص ٤٢٦ ، ٤٢٧) .
وأنه خُرفَ في آيات القرآن الكريم ونسب إليه ما ليس منه كقوله : « واللّه - تعالى - قال في كتابه العزيز :
(إذا بليتם بالمعاصي فاستغفروا) (ص ١٤٨) .

كما أن الرواية تعرض صراحة على الخروج عن الشريعة الإسلامية وعدم التمسك بأحكامها وذلك بالدعوة إلى ضرورة الانفصال عن الدين .. واللّه .. الأخلاق .. والتقاليد .. والأزمة الموحلة .. والجنة .. والحجيم الخرافيين .. وطاعة أولى الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب والطقوس التي رسمتها دهور الكذب (ص ٣٤٨) .

ثالثاً : إن الرواية خرجت عن الآداب العامة خروجاً فاضحاً .. وذلك بالدعوة إلى الجنس غير المشروع ، واستعمال الألفاظ في الوقاع وأعضائه الجنسية للذكر والأنثى بلا حياء مما يعف اللسان عن ذكرها وكتابة نصها حفاظاً على الحياء العام الذي انتهكته الرواية .

رابعاً : إن الرواية لم تكتم بذلك .. بل حرصت صراحة على إهانة جميع الحكام العرب ، ووصفتهم بأفح وأقذع الأوصاف مما يعف المقام عن ذكرها ، وطالبت بالخروج عليهم والثورة ولو بإراقة الدماء .

خامساً : اتضح تجمع البحوث الإسلامية من كل ما سبق أن ما ورد برواية «وليمة لأعشاب البحر» لمؤلفها حيدر حيدر خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وينتهك المقدسات الدينية والشرائع السماوية ، والآداب العامة ، والقيم القومية ويشير الفتن ويزعزع تماسك وحدة الأمة التي هي الركيزة الأساسية لبناء الدولة ، ويضع على عاتق من نشروا هذه الرواية دون استطلاع رأى أهل الاختصاص المسئولية الكاملة عن هذا التجاوز والآثار المترتبة عليه .. دينياً واجتماعياً .. وذلك على النحو الموضح تفصيلاً بالتقريرين المقدمين من عضوى مجمع البحوث الإسلامية المشار إليهما .
واللّه ولى التوفيق .

شيخ الأزهر

الأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوى

تحريراً فى ١٣ من صفر سنة ١٤٢١ هـ

الموافق ١٧ من مايو سنة ٢٠٠٠ م

لقاء من علماء الأزهر الشريف إلى السيد رئيس الجمهورية بشأن قضايا وزارة الثقافة المصرية



د . عبد المنعم البرى



عبد الحى الشرمأوى



العجمى الدمنهورى

التوحيدى لأعرف رايه بوضوح فى الوطنية واستدراج العاهرات بعد انتصاف الليل، مونيكاً حضارة الأنبياء، تاتيه لى فى الصلاة كانك جزء من الصلاة.

وفى رواية اخرى تحت عنوان «رائحة النعناع» يقول المؤلف: برعاية وزارة الثقافة إذا قدر لحد أن يخلد فسوف تكون بديرة، أحضرها اصدقائى، لم ادر ما الذى اعترانى وحتى أثناء الممارسة السريعة الملهوفة والتي انتهت فى ثوان كنت متضيقاً من حجم كبر ثدييها ومن انها كانت عبارة دفة لرج متسخ، قابلتها بعد ذلك بايام نحتك لى انها كانت خارجة لتوها من المستشفى قالت: كنتوا كثير قوى تبتونى..

تلك الحقاير المسفة يتفق عليها من حر مال الدولة، وتخرق بها الأسواق بازهد الأمانم والدستور جعل الأسرة أساس المجتمع قوامها الدين والأخلاق ووزارة الثقافة تبدد اموال الأمة فى تدمير الشباب وإشاعة الرذائل بين جموعه مما نتج عنه سلوكيات تنثر بالثبوير وعظائم الأمور، وليس لإيمان واشكال الأنكحة الفاسدة وعبادة الشيطان وزنا المحارم والمغتصاب البنات إلا بوانر لتلك الثمرات المرة لهذا الغرس الخبيث الذى أفرغ قلوبنا من انهيار القيم، وتحطيم سياج الأخلاق وإيقاد نيران الشهوات.

يا سيادة الرئيس: إن هذه المطبوعات التي تصدر عن «وحدات» وزارة الثقافة فى عهد الوزير فاروق حسننى قد ضمت إلى تدمير الأخلاق تطاولاً سافراً على المقدسات الدينية من سخرية بالذات الإلهية، والقرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم، حتى لقد قال كاتب رواية «الصقار»: إنه كان إذا قضى حاجته يتطهر بصفحات وأوراق القرآن بدلاً من التطهر بالماء!!

يا سيادة الرئيس: ثم كانت الطامة الكبرى والداهمة الدهياء، تلك الرواية «وليمة لأعشاب البحر» التي قال عنها الوزير فاروق حسننى: إنه ليس فيها ما يسى للإسلام، وإنها تدعو للعقيدة والإيمان وتجل الإسلام!! رغم أنها تطفح بكل قبيح من القول ورذيل الأعمال، فالكاتب المدعو «حيدر حيدر» يسب فيها الله عز وجل ويسخر علناً من القرآن العظيم، ويرمى سيد الخلق

السيد محمد حسننى مبارك - رئيس جمهورية مصر العربية، سباً الله على طريق الحق خطاه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

سيادة الرئيس: إن جمهرة علماء الأزهر وهم يلتفون حولك جنوداً للحق مخلصين نحو الغايات النبيلة والأهداف الكبيرة لتحقيق ما فيه خير البلاد والعباد يفزعون إلى الله تعالى ثم إليك لتدارك ما يمر بمصرنا وما نزل بها من فتن من شأنها أن توقد نيراناً تتبدد بها الجهود وتأتى على الأخضر واليابس.

لقد دأبت وزارة الثقافة منذ سنوات على إصدار مطبوعات استهدفت اخص خصائص الأمة فى العقيدة. وفى الأخلاق وفى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بنشر كتب وروايات ومقالات فى المطبوعات المختلفة التي تصدر عن وحداتها الثقافية حتى نالت من المشروع النبيل «مهرجان القراءة للجميع» فدرسوا بين إصداراته مطبوعات سيئة منها «محمد واليهود» الذى حمل محاباة لليهود مع تحامل وتشويه للإسلام وكتابه، وكتاب «موسم الهجرة إلى الشمال» لمؤلف سودانى حظرت السلطات السودانية نشره هناك ثم وخذ طريقه بوزارة الثقافة المصرية وتم نشره ضمن إصدارات «مهرجان القراءة» عام ٩٦ وكتاب «دعوة للحوار» للدكتور حسن حنفى، وقد تم نشره كذلك عام ١٩٩٦ - سنة ما فيه من تلخيص لمواقفه التي لم تجد من المنسويين - بل العلم غير واحد فقط دافع عنه ونجح فى النعير حنيد بها، ورواية «الصقار» التي صدرت ضمن سلسلة كتابات جديدة عام ١٩٩٧، وكتابات «المجموعة القصصية» وهي عبارة عن قصص قصيرة يجمعها هدف واحد وفي هذه الروايات إثارات ملهية للفرايز الجنسية - تسلياً بالتصوير المكشوف للعلاقات الجنسية بين تعساق والزناة، فى عبارات فاجرة ماجنة فيها إشاعة للرذائل وذبج للفضائل، من ذلك ما جاء فى ديوان «صرخة يروق لها البحر» وفيه: فتاة يقاسمى فى حبها الله فاحبه ولا اناصبه العداء، لمن سخونة الأرداف وقلق النهدين، انت اختبرت خصوصيتى، وسخونة رغوتى دليل وحيد على انتماء الماء للنار، وربما أسهر ليلة بكاملها مع أبى حيان



د. يحيى إسماعيل



د. مصطفى إمام



د. محمود حمادة

صلى الله عليه وسلم بالفسق والزنا مع الدعوات المتكررة للفسق والفجور وتهيج الغرائز الجنسية. ومع هذا يقول وزير الثقافة عنها إنها تبجل الإسلام. أى تبجيل وإى إسلام يا سيادة الرئيس فى وصف كاتب الرواية لله عز وجل بأنه فتان وفاشل (ص ٢٢٠). أى تبجيل وإى إسلام فى قول الكاتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية وخليفة ومتعة، (ص ١٦٨) والخليفة هى المعشوقة غير الزوجة. أى تبجيل وإى إسلام هذا فى قول الكاتب على لسان مجاوره: «خرا بربك دك من الانحطاط العضوى، بغير تعقيب. أى تبجيل وإى إسلام هذا والكاتب يقول معلقاً: كان يداعب تلال المؤخرة الحبرية وحلمة الثدي للتنوع، الأمان لكم انتم الرجال، صبح والله صبح لم يبق الرجل للمبيت فى أكثر من عش، تلك رغبة ربنا ونبينا محمد أول المرسلين (ص ٦٠٩). هل كان رسولنا صلى الله عليه وسلم أول المرسلين والله جل جلاله يقول فيه (ما كان محمد أباً أحدهم من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)». أى تبجيل وإى دين يا سيادة الرئيس فى قول الكاتب «فتحررت فاردة ثدييها، ثم استندت بنصفها ونمسك عن الإسترسال رعاية لحرمتك وحرمة الدولة وحق القراء (١٨٦)». أى تبجيل وإى إسلام هذا والكاتب المارق يقول فى واطئ «فلة، اكتشف الله فى جسدها، واندفع الذهب فأنكشف الله فى جسد فلة العاهرة» (ص ٢٥٩). سيادة الرئيس: إن علماء الأزهر الشريف يناشدونكم سرعة التدخل شخصياً لوقف هذه الجرائم وتطهير وزارة الثقافة من كل من أساء إلى الدين والوطن والأخلاق، وبدد المال العام فيما يضر بالأمة، كما يناشدونكم رفع الحصار عن الدعاة المخلصين الذين يعرفون كيف يدعون إلى الفضائل ويحاربون الرذائل بالحكمة والموعظة الحسنة حسبة خالصة لوجه الله تعالى، ثم يناشدونكم بالتدخل الشخصى لإعادة الوحدة إلى صفوف علماء الأزهر وجمع كلمتهم على ما فيه خير البلاد والعباد، ورفع الظلم الواقع على بعضهم من بعضهم حتى يفرغوا لاداء حق البلاغ عن الله تعالى ومعاونة الدولة فى مطاردة الفساد والمفسدين. سيادة الرئيس: نرفع إليكم هذا النداء نحن هداة الأمة واثمتها املين سرعة تدخلكم بالوسائل الحكيمة التى

١- د. العجمى دمنهورى خليفة - استاذ ورئيس قسم الحديث وعلومه بجامعة الأزهر (سابقاً)، استاذ الحديث المتفرغ بجامعة الأزهر ورئيس جبهة علماء الأزهر.

٢- الشيخ سيد عبدالمقصود عسكر - أمين عام مساعد مجمع البحوث الإسلامية السابق

٣- د. سعيد أبو الفتوح البسبوني - استاذ الشريعة المساعد بكلية حقوق جامعة عين شمس وأمين عام جبهة علماء الأزهر.

٤- د. حسن يونس عبيد - استاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر، وكيل جبهة علماء الأزهر

٥- د. محمد عبدالمعتم البرى - استاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر، ورئيس مركز الدراسات الحرة سابقاً.

٦- د. إبراهيم محمد الخولى - استاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

٧- د. مصطفى محمد إمام - استاذ اللغويات بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

٨- د. إبراهيم محمد قاسم - استاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر

٩- د. محمد على عبده زايد - استاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

١٠- د. يحيى إسماعيل احمد حيلوش - استاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر وعضو جبهة علماء الأزهر وأمين عام جبهة علماء الأزهر سابقاً

١١- د. عبد الستار فتح الله سعيد - استاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر وأم القرى.

١٢- د. عبدالحى حسين الغرماوى - استاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر وأم القرى.

١٣- د. محمود على حمادة - استاذ ورئيس قسم الدعوة بكلية أصول الدين - فرع أسبوط.

١٤- د. احمد على طه ريان - استاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة والقانون - القاهرة.

١٥- د. الخشوعى محمد الخشوعى - استاذ الحديث المساعد بكلية أصول الدين - القاهرة.

١٦- د. مروان محمد شاهين - استاذ الحديث الشريف وعلومه بجامعة الأزهر.



د . محمود مزروعة



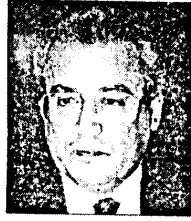
د . عبد الله شحاته

- ١٧- د. محمد السيد جبريل - أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر.
- ١٨- د. أحمد محرم الشيخ ناجي - أستاذ ورئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين فرع أسبوط.
- ١٩- د. مجاهد محمد هريدي - أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين فرع أسبوط.
- ٢٠- د. عبد القادر محمد أبو العلا - أستاذ وعميد كلية الشريعة والقانون فرع أسبوط.
- ٢١- د. عبد اللطيف خليف - نائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق.
- ٢٢- د. محمد حربي محمود شريف - مدير عام الوعظ ورئيس لجنة الفتوى بالشريعة.
- ٢٣- د. عبد العليم المطعنى - أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر.
- ٢٤- د. توفيق عبدالغنى سلمان - وكيل كلية أصول الدين فرع شبين الكوم.
- ٢٥- د. عبدالفتاح فرج موسى - مفتش بأوقاف كفر الشيخ، عضو جبهة علماء الأزهر.
- ٢٦- د. جمال عبدالحميد فتيحة - دكتوراه فى الحديث وعلومه.
- ٢٧- د. محمود محمد مزروعة - أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر وأم القري، مقرر لجنة البحوث العلمية بجبهة علماء الأزهر سابقاً.
- ٢٨- د. طلعت محمد عفيفي سالم - أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
- ٢٩- د. عبدالرافع عبدالحليم الفقى - مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
- ٣٠- د. رمضان أحمد الدقن - مدرس اللغة العربية بكلية اللغة العربية.
- ٣١- د. فرج محمد إبراهيم الوصيف - أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية الدعوة فرع المنصورة جامعة الأزهر.
- ٣٢- د. رياض السيد عاشور - مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
- ٣٣- د. عبد الله محمود شحاتة - أستاذ الشريعة الإسلامية - كلية دار العلوم - القاهرة.
- ٣٤- د. أبو اليزيد أبو اليزيد العجمي - أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية دار العلوم بالقاهرة.
- ٣٥- د. عبدالنذير أبو هاشم محمد - أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر.
- ٣٦- د. عبدالرحمن محمد عويس - أستاذ تفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر.
- ٣٧- الشيخ إبراهيم عبدالجليل مقلد - مفتش بأوقاف الدقهلية.
- ٣٨- د. محمد نايل الصواف - عميد كليات اللغة العربية بجامعة الأزهر وليبيا والسعودية، وعضو
- جميع اللغة العربية.
- ٣٩- د. عاطف أحمد أمان - أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر، الملك خالد بالسعودية.
- ٤٠- الشيخ محمد أحمد النجوى - من علماء الأزهر الشريف.
- ٤١- د. محمود فرج سليمان - أستاذ ورئيس قسم أصول الفقه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات.
- ٤٢- د. منيع عبدالحليم محمود - وكيل كلية أصول الدين، القاهرة.
- ٤٣- د. عبدالله عبدالحى عبدالرازق - أستاذ ورئيس قسم الدعوة بجامعة الأزهر سابقاً.
- ٤٤- د. محمد عبدالسميع.
- ٤٥- د. عطية السيد فياض - مدرس الفقه المتأثرين بكلية الشريعة.
- ٤٦- د. شعيب عبدالمنعم مرسى الغباشى - مدرس الإعلام بكلية اللغة.
- ٤٧- الشيخ ماهر عثمان عقل - واعظ عام بوزارة الداخلية سابقاً، عضو جبهة علماء الأزهر.
- ٤٨- د. حسن أحمد جبر - أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين - الزقازيق.
- ٤٩- الشيخ محمد المهدي الأطروبي - من علماء الأزهر الشريف.
- ٥٠- إسماعيل على محمد على - أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد بكلية أصول الدين المنصورة.
- ٥١- د. زكى محمد أبو سريع فرغلى - أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية الدراسات الإسلامية والعربية.
- ٥٢- الشيخ أحمد عيسى - عضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف سابقاً.
- ٥٣- د. صلاح زيدان - أستاذ أصول الفقه المساعد بجامعة الأزهر.
- ٥٤- الشيخ على طه سعد - من علماء الأزهر الشريف.
- ٥٥- فريد على حليط - مدرس مساعد بكلية الشريعة والقانون.
- ٥٦- يسرى محمد السيد هانى - أستاذ ورئيس قسم الدعوة بكلية أصول الدين، فرع المنصورة.
- ٥٧- يسرى عبدالمعطي عجمور - أصول الدين، القاهرة.
- ٥٨- د. محمد أنور بيومى - مدرس مساعد، أصول الدين، شبين الكوم.
- ٥٩- د. عبدالغنى إسماعيل - أستاذ الجراحة والأوعية الدموية الدقيقة وحاصل على الإجازة العالية فى الدعوة والثقافة الإسلامية، جامعة الأزهر.
- ٦٠- علاء السيد عنتر - مدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بطنطا

- ١٧- د. محمد السيد جبريل - أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر.
- ١٨- د. أحمد محرم الشيخ ناجي - أستاذ ورئيس قسم الحديث بكلية أصول الدين فرع أسبوط.
- ١٩- د. مجاهد محمد هريدي - أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين فرع أسبوط.
- ٢٠- د. عبد القادر محمد أبو العلا - أستاذ وعميد كلية الشريعة والقانون فرع أسبوط.
- ٢١- د. عبد اللطيف خليف - نائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق.
- ٢٢- د. محمد حربي محمود شريف - مدير عام الوعظ ورئيس لجنة الفتوى بالشريعة.
- ٢٣- د. عبد العليم المطعنى - أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر.
- ٢٤- د. توفيق عبدالغنى سلمان - وكيل كلية أصول الدين فرع شبين الكوم.
- ٢٥- د. عبدالفتاح فرج موسى - مفتش بأوقاف كفر الشيخ، عضو جبهة علماء الأزهر.
- ٢٦- د. جمال عبدالحميد فتيحة - دكتوراه فى الحديث وعلومه.
- ٢٧- د. محمود محمد مزروعة - أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر وأم القري، مقرر لجنة البحوث العلمية بجبهة علماء الأزهر سابقاً.
- ٢٨- د. طلعت محمد عفيفي سالم - أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
- ٢٩- د. عبدالرافع عبدالحليم الفقى - مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
- ٣٠- د. رمضان أحمد الدقن - مدرس اللغة العربية بكلية اللغة العربية.
- ٣١- د. فرج محمد إبراهيم الوصيف - أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية الدعوة فرع المنصورة جامعة الأزهر.
- ٣٢- د. رياض السيد عاشور - مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر.
- ٣٣- د. عبد الله محمود شحاتة - أستاذ الشريعة الإسلامية - كلية دار العلوم - القاهرة.
- ٣٤- د. أبو اليزيد أبو اليزيد العجمي - أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية دار العلوم بالقاهرة.
- ٣٥- د. عبدالنذير أبو هاشم محمد - أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر.
- ٣٦- د. عبدالرحمن محمد عويس - أستاذ تفسير وعلوم القرآن المساعد بجامعة الأزهر.
- ٣٧- الشيخ إبراهيم عبدالجليل مقلد - مفتش بأوقاف الدقهلية.
- ٣٨- د. محمد نايل الصواف - عميد كليات اللغة العربية بجامعة الأزهر وليبيا والسعودية، وعضو

«وليمة لأعشاب البحر».. عمل نقاد رواية يتصور للنايين

الكاتب المثير للفتنة هو الذي أهان القرآن وليس الرواية



د. جابر عصفور



د. صلاح فضل



كامل زهيري



د. عبد القادر القط

شخصيات أخرى، وإى اجتراء، لمباراة من عمل روائي وفهمها خارج سياقها وسعيها عن شخصية الناطق بها ورد المستمع لها فهو فهم غير سليم، ومن ناحية أخرى فإن وظيفة الأدب الروائي هي نقد الحياة وتعميق الوعي الجمالي بها، وهذا يقتضى المحافظة على حرية التخيل من ناحية وقوة التعبير الفني وصدقه من ناحية أخرى.

وأية محاولة لانتقاص حرية التخيل أو إضعاف الصدق تؤدي إلى إضرار بالوظيفة الأدبية الجوهريّة.

والرواية تقدم تجربة واسعة لعراقيين يعتنقان الفكر الشيوعي، ويقاومان مع كثير من عامة الشعب العراقي الحكم العسكري القائم على العسف والمطاردة والقتل والتعذيب والمحاكمات الصورية أيام حكم انقلاب عسكري معروف، وحين لا يجدان بصد المطاردة والسجن والتعذيب منجى من الموت إلا الهجرة إلى بلد عربي يتوسعان فيه الأمان والترحيب بها جران إلى الجزائر بعد أن كانت ثورتها قد نجحت وطرد المستعمرين الفرنسيين، واستولى الوطنيون على الحكم، كان مهدي جواد ومهيار الباهلي يأملان أن يجدا شيئاً من الطمأنينة النفسية تعيد إليهما الاستقرار في تلك المدينة الجزائرية الصغيرة «بونه» على ساحل البحر.

لكن الجزائريين كانوا يجتازون حينذاك فترة انتقال يسودها القلق والاحساس بأن السياسيين والانتهازيين قد جنوا ثمار ثورتهم التي ضحى الآلاف الشهداء بأرواحهم في سبيلها، فكان في نفوسهم كثير من الشك فيما بينهم وكثير من الشك فيما يفد اليهم من الغرباء.

وهكذا تحول العذاب الجسدي والنفسي

تقدم رواية «وليمة لأعشاب البحر» رؤية مركبة للواقع السياسي المتحرك للتيارات التي سماج بها الوطن العربي في النصف الثاني من القرن العشرين، وتبرز المشاهد الاستهلاكية للرواية الروح التي تسيطر على اتجاه المعنى فيها، حيث تصور وداع مهدي جواد- الشخصية المحورية- قبل رحيله إلى الجزائر على النحو التالي: «أخت في لون المزارع وشهقة النحيب ترفع القرآن بيد، وباليدين الأخرى صحناً من الطحين. على الكتاب المطهر يضع راحة كفه، ثم يعبر بخشية وجلال، منحنيًا بقامته ورأسه تحت قوس الطحين متممات وأدعية تنطلق من أعماق السلالة التي تودع طفلها: أقسم بهذا المقدس وبهذه النعمة أن أكون وفيًا، وألا أنسى في الغربة البعيدة رائحة البيت والأرض والخبز، وصلوات الأجداد، والحب والدم، وصرخة الحسين وهو يذبح بسيف الشمرة، إنه من السلالة النبوية، على الرغم من أنه أصبح ثورياً شيوعياً، وربما حنّ بقسمة بعد ذلك، ولكن قبل أن نمضي في تدليل القراءة الصحيحة للرواية ينبغي أن نذكر أن تقييم الأعمال الإبداعية عامة، والرواية على وجه الخصوص يعتمد على ادراك طبيعة الرواية، بوصفها تتمثل في إبداع عالم فني متخيل، يحاكي في قوانينه العالم الكبير، اعتماداً على تكوين شخصيات متخيلة، تنسب إليها أقوال وأفعال خاصة، ومواقف مماثلة لما يحدث في الحياة بشكل أو آخر، وكل العبارات التي ترد في الأعمال الروائية لا يمكن أن تفهم على وجهها الصحيح منفصلة عن سياقها، ولا عن طبيعة الشخصيات التي تنطق بها، ولا التعليقات التي ترد عليها من

محضر اجتماع اللجنة العلمية
المشكلة لإعداد تقرير عن رواية
«وليمة لأعشاب البحر»

اجتمعت اللجنة العلمية المشكلة بقرار الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة رقم ٥٤ لسنة ٢٠٠٠ لإعداد تقرير عن رواية «وليمة لأعشاب البحر» للكاتب السوري حيدر حيدر في تمام الساعة من مساء الثلاثاء ٢٠٠٠/٥/٩ بحضور كل من:

١ د. عبد القادر القط مقرر اللجنة
١ د. صلاح فضل عضواً
١ د. كامل زهيري عضواً
١ د. مصطفى مندور عضواً
١ د. عماد بدر الدين أبوغازي أميناً

للجنة

وقد اعتذر عن عدم الحضور:

١ د. أحمد هيكلمررضه

وقد استعرضت اللجنة التقارير الفردية المقدمة من أعضائها وتناقشت فيها باستفاضة (مرفق صورة منها) ثم أنتهت إلى صياغة تقرير جماعي يعبر عن رؤية اللجنة (مرفق نص التقرير).

وقد انتهى الاجتماع في تمام الساعة التاسعة والنصف مساءً.

أمين اللجنة:

د. عماد بدر الدين أبوغازي

مقرر اللجنة:

١ د. عبد القادر القط

تقرير اللجنة العلمية عن رواية
«وليمة لأعشاب البحر»

الذي لقيسياه في العراق الى قلق دائم وإحساس بالغربة والعجز من التواصل مع أبناء مهجرهم إلا من خلال علاقات عاطفية شخصية محدودة، يصفها الراوي بأسلوب شعري جميل وهو يصور حب مهدي جواد وسلمى الأخضر في رحاب البحر والطبيعة وصخور الشاطئ، وفي مجابهة محفوفة بالمخاطر مع مجتمع المدينة الصغيرة المحافظ، ورسم الراوي صلة أخرى ذات طبيعة حسية خاصة وأن لم تخل من مشاركة في ذكريات المقاومة العراقية والثورة الجزائرية بين مهيبار الباهلي وفلة المنايية، وهي امرأة شاركت في الثورة مشاركة فعالة ثم وجدت نفسها في النهاية - كما وجد كثير من الجزائريين أنفسهم - وحيدة منبوذة - فلم تجد إلا الجنس سلوانا عن هزيمتها. والمعنى الكلي للرواية يشير الى قيام هركتين ثورتين: إحداهما شيوعية مجافية للدين في اهور العراق ويكون مصيرها القتل الذريع، والأخرى ثورية تحررية رفعت القرآن الكريم واعتمدت على الايمان فانصورت في الجزائر كما يقول الراوي: «حين هبط ثوار حرب التحرير الجزائرية من الجبال المصبوغة بالدم كانوا يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأول. كل مجاهد علق على صدره قرآنا عربيا كان بمثابة الرقبة ضد رصاص المستعمر». ونلاحظ أن طبيعة الشخصيات التي تتحرك في الرواية على قدر كبير من القلق والتوتر العصبي، يجعل أحاديثها أحيانا تبدو متجاوزة للمألوف، وقد يجد فيها القارئ غير المتعرس بقراءة الأعمال الأدبائية أسرافا في المראה والحدة، لكنه عندما ينسحب إلى طبيعة الشخصية ويستحضر الموقف في جملة يتبين أنها تعبير عن لحظة بعينها وتصبح ضرورية من الوجهة الفنية لتصوير الموقف. ومن هنا فإن مناسب إلى الرواية من بعض العبارات التي يبدو في الظاهر أنها يمكن أن تمس شعور القارئ، غير المدرب لما يظن أنه مساس بالدين أو طعن في القرآن الكريم أو تعريض بحياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو من قبيل سوء فهم الفن الروائي وتحريف عباراته، وانتزاعها من سياقها وتجاهل مايرد في النص ذاته من رد عليها من شخصيات مخالفة، والمشاهد المشار إليها على وجه التحديد هي مايلي:

أولا: ماورد في صفحة ١٢٨ - ١٢٩ من الطبعة المصرية على لسان الشيويعي الهارب «مهيبار الباهلي» في صور نقد ادعاء حكومة الرئيس بومدين تبرير التأميمات الاشتراكية بأنها من الاسلام، حيث تقول الشخصية المتخيلة في حوارها مع الآخرين:

«التأميم ليس الاشتراكية، وهذا الذي يحدث ليس أكثر من ترقيع مزيف لا يحو الاستلاب الجوهري للانسان، اشتراكية بروج العلم لا بروج الدين هذا ماينبغي أن يكون... الوعي

العميق بالتاريخ غائب، وهؤلاء يهمنشون التاريخ ويعيدونه مليون عام الى الوراء... في عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر، يحكمونا بقوانين الهة البدو وتعاليم القرآن... خراء، ثم تتابع الرواية على الفور شرح رد فعل الشخصية، الثانية «كان مهدي جواد يتعلّى البحر من خلال الزجاج المغيش مراقبا الدوران الآلية لطيور النورس... ولكن يبعد عن رأسه ظنين الكلام الضخم التي يطلقها عقل السيد الباهلي الملتاث كان يسلس العنان لخياله».

وبقراءة هذا المشهد يتضح انه يعبر عن موقفين لشخصيتين تنتميان الى الحزب الشيويعي، احدهما تنقد تجربة الجزائر في التأميمات باسم الدين والقرآن، وتؤكد على الجانب اللاديني، وتصف التجربة بأنها خراء، والأخر - وهو شيويعي ايضا - لا يقبل كلامه ويحكم عليه بأنه ملتاث العقل، وعندها لا بد لنا من ملاحظة مايلي:

١ - نسبة هذه الأقوال الى الرواية والمؤلف غير صحيحة، لأنها تصدر عن شخصية متخيلة، تناسب معتقدها، وهي في منظور شخصية أخرى نوع من لوعة العقل.

٢ - الغاء النقطة التي جاءت بعد لفظة القرآن والقول بأن الوصف البدوي الذي جاء عقبها ينصب على كلمة القرآن فيه تحريض مقصود، وأساسة واضحة لتهيج المشاعر الدينية، وهو مخالف لأمانة النقل، يترتب عليه تغيير للمعنى واختلاف الدلالة، لأن مايوصف بأنه خراء هو الحكم السياسي بتجربيات دينية.

٣ - إهمال الإشارة الى رد فعل الشخصية المقابلة واعتبار كلامها لوعة عقل مختل يصبح من قبيل الاتقربوا الصلاة.

على أنه من المعروف - حتى في الكتابة غير لادينية - أن من يروي الكفر ليس بكافر، والقرآن الكريم مليء بأقوال المحدثين والكفار الواردة في سياق الرد عليه وتفنيدها ولا ينتظر من الأعمال الادبائية سوى أمرين.

- أن تكون الأقوال ملانسة لطبيعة الشخصية التي تنقلها، وهذا متحقق

- أن تكون الدالة الكلية للعمل مغايرة لهذا المنظور الجزئي.

والقراءة الكاملة للنص الروائي تشهد بوبرود عشرات العبارات الأخرى التي تعلّى من شأن التجربة الدينية التي أدت الى انتص - ثورة الجزائر، وتؤكد شعور التقديس المهيمن على بقية الشخصيات تجاه القرآن الكريم واحترام التربية الاسلامية والتدبير بالاستعمار الاجنبي، ومنها وصية الشهيد الجزائري - والد الفتاة التي تلعب دور البطولة - لزوجته: «ربهم تربية تليق بنا كمسلسلين... نحن نقاسل حتى لا يلوث الاستعمار شرفنا، ومن لا يحافظ على بيته لا يحافظ على وطنه (ص ٦٤).

ويقول مهيبار الباهلي - أحد الشخصيتين

الرئيسيتين : الفلاحون شجرة الثورة ووقودها. هم الذين أبقوا الجذوة متقدة حتى النصر... هؤلاء هم البحر ونحن السمك الآن نحن بينهم كما كان رسولنا محمد مع المهاجرين والأنصار».

وحينما نقول أسيا عن المستعمرين الفرنسيين: «غرسوا في ذاكرتنا أن المسلمين والعرب كانوا غزاة فاتحين، كانوا يؤكدون لنا أن القرآن مأخوذ عن الإنجيل والتوراة، واللغة العربية لغة دين وشعر لا لغة علم، وهذا هو سبب تخلف العرب في العلوم والحضارة الحديثة». يرد عليها صديقها مهدي بقوله: «هذا طبيعي، إنهم منطقيون ومنسجمون مع غاياتهم. الاستعمار في النهاية ليس العنف وحده، بل التزوير والاستلاب والقطيعة مع الجماعة».

ثانيا: ما جاء في صفحة ١٤٨ من الحوار التالي الذي يدور بين مهدي جواد ومدرس اللغة العربية والحاج محمد - صاحب المنزل الذي يسكن فيه - عقب نقاش حاد اتهم فيه الحاج محمد المدرس بالفاحشة لجرد أنه كان يعطي درسا لتلميذة لديه، وشعر في طرده ليسكن مكانه شخصي فرنسي سوف يضاعف له الأجر، ويأتي الحوار هكذا:

«فاجأه مهدي هازنا: عمى الحاج، بصلاة محمد على راسك هل أحجبت في حياتك؟

وقال الحاج: واحدة واحدة. على سنة الله ورسوله

- طبعاً تزوجتها

- اكيد.

- ولكن الله قال: انكحوا ما طاب لكم. ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعا، ونحن على سنته. لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة، بين شرعية وخليفة ومتعة، وكان صلوات الله عليه وسلم يقول: (تناسلوا). تناسلوا. فإني مفاخر بكم الأمم) استبد الخضب بالحاج: الرسول تزوج حسب الشريعة. أما أنتم فتريدونها شيوعية، والله تعالى قال في كتابه العزيز: (إذا بليتّم بالمعاصي فاستنّوا). وهذا المشهد يدور بين شخصيتين متخيلتين، أحدهما مدرس غريب يتعرض للطرد من مسكنه، بحجة خروجه على الأخلاق وقد كان ملتزما بها حتى هذا المشهد، بينما يمكن السبب الحقيقي في الرغبة في مضاعفة الكسب وبو بالتعامل مع بقايا الاستعمار الفرنسي، والطرف الثاني يتنذر بالدين وهو جاهل به، والشيويعي لم يخطئ في نسبة الآية الكريمة «انكحوا ما طاب لكم»، ولكن الحاج الجاهل نسب الى القرآن ما ليس فيه، وهنا تكمن المفارقة القصصية. وكل منهما يعبر عن رأيه وموقفه، وتذرع المدرس بفعل الرسول

العبارات يتوقف على مدى شعورهم بالحرَج والتحفُّظ أو الاكتفاء بإدانة الشخصية المتخيلة في سوء تعبيرها. ولا يمكن أن يلغى مثل هذا النزق التعبيري عشرات العبارات والمشاهد الأخرى بروح الاحترام والتقدير للدين، فالحياة مفعمة بالجانبيين، وعندما يتصدى الأدب لنقدنا، ويجعلنا نشعر بالتحرج منها، يكون قد قام بوظيفته في انفتاح وعينا بالمخالقين لنا وتشكيل خبرتنا بالكون والوجود.

لهذا فإن إعادة نشر هذه الرواية لا يمكن أن يعدّ مساساً بالدين ولا يجوز محاكمتها، من منظور غير أدبي، ومأقيل عنها فيه تجن كبير عليها وتحريف لمواضعها، وتجاهل لقيمتها الفنية المتميزة.

يواجهه، يقرص أنفها، لكن أنفك هذا سيعترض مستقبلنا.

- هو من صنع ربي، لماذا تسخر منه، - لا بد أن ربك فنان فاضل أن.

ونلاحظ على هذا المشهد ثلاثة أمور

أولها: أنه يأتي على سبيل الدعابة وروح الفكاهة، في لحظة غزلية بعيدة عن الجد، ومن شأن الأدب في هذه المواقف أن يتطرق بعبارة غير لائقة تأتي على لسان الشخصيات الملائمة لها.

ثانيها: أن الفتاة تحاول التخلص من عيبها الخلفى في قلطحة الأنف بنسبته إلى ربها على الطريقة الجوازنية في العامية الدارجة، وهو يلتقط منها الخيط ليدفن تصورها لربها لا ربه هو ولا الذات الإلهية. ثالثها: أن موقف القراء من مثل هذه

عليه السلام لا يقصد به الطعن عليه في هذا الموقف، بل يحاول أن يستند إلى حجة دينية في خطابه للحجاج الذي يظهر التدين، ولا يمكن عند القراءة الأدبية للنص في جملته أن نستشعر رغبة المساس بشخصية الرسول فهي ترد بوصف المعظم، وإن كانت تبالغ في عدد نسائه، ورد فعل الحاج الغاضب عليها تعديل للمعنى ونسبته إلى الفكر الشيعي لمحاورة.

أما المشهد الثالث فهو غزلي عابث، يدور بين مهدي جواد، المدرس الشيعي، وتلميذته التي تتحول إلى عاشقة، ويمضى هكذا:

«تجذب أسيا من شعره فيلتقى بصراهما.. أنت لي، هاه، عليك أن تفهم ذلك منذ الليلة، ويضحك، أنفها الكبير المفلطح

الثقافة الجادة

لا للتطاول على الله ، والقرآن ، والرسول ﷺ

ومما جاء في مقال الأستاذ فاروق جويده ما يلي :

ليس من الحكمة فى شىء أن يحاول البعض إشعال النيران كلما هدأت خاصة أننا جميعاً دولة ووطنًا وشعبًا قد دفعنا الثمن غالياً .. وفى السنوات الأخيرة استطاعت مصر أن تتجاوز محنة الإرهاب التى هددت أمننا واستقرارنا وأطاحت بالكثير من أحلامنا فى التقدم والرخاء .

ولا أدرى لماذا يحاول البعض الآن الدخول بنا إلى معارك لا مبرر لها وقد تكون خسائرها أكبر بكثير من كل ما فعله الإرهاب بنا .. إننى أتابع منذ فترة بعيدة بعض الكتابات فى الصحف والمجلات المصرية التى دأب كتابها على الهجوم على الإسلام : الدين .. والعقيدة .. والرموز .. والتاريخ .. ولا أدرى ما هو الهدف من هذه الكتابات وما هى الغاية منها .. وإن كنت على يقين أنها لا تخدم مصالح الوطن بأى شكل من الأشكال .

ولا يمكن أن يكون بين الدولة والإسلام عداوة ، ومن الخطأ أن يحاول البعض بأساليب رخيصة إيجاد هذه العداوة .. إن هناك جوانب أساسية توضح موقف الدولة التى لا يمكن أن تعادى الإسلام دينها أو تأخذ منه موقفاً .

إن الإسلام ما زال حتى الآن الدين الرسمى للدولة المصرية .. وكل القوانين والتشريعات والمواقف والسياسات تؤكد ذلك لأنها تعبر عن خلال هذا المنظور الواضح الذى لا خلاف ولا جدال حوله . إن رئيس مصر حسنى مبارك يعرف تماماً كرجل مسلم قدر دينه وعقيدته ، ويدرك عن وعى عميق أن هناك فرقاً شاسعاً بين الإسلام الدين والإرهاب الظاهرة .. وفى أكثر من مناسبة كان الرئيس مبارك يؤكد هذا الموقف ، وفى رحلاته الخارجية كان الرجل يوضح ذلك أمام الإعلام الغربى ، وكان يدين دائماً هذا الخطأ الشائع فى دوائر الغرب الذى يربط بين الإسلام والأرهاب ، لأن الإرهاب ظاهرة عالمية لا وطن لها ولا دين .

إن اهتمام الدولة بالأزهر الشريف تراثاً وتاريخاً وتعليماً ودوراً لا يحتاج إلى تأكيد ولم تبخل مصر الدولة يوماً عن مؤسساتها الدينية بالمال والدعم والمساندة . هذا هو التوجه الرسمى الواضح والصريح للقيادة السياسية وللدولة تجاه الإسلام .. ولكن بعض المزايدى والمتربصين لا يريدون لهذا الوطن أمناً أو استقراراً . إن بعض هؤلاء يتصور أن الهجوم على الإسلام والاعتداء على المقدسات الدينية يجد صدًى لدى أجهزة الدولة فى معركتها مع الإرهاب .. وهذا تصور خاطئ

بمعكس خللاً فى التفكير والفهم .. إن الدولة تقف ضد الإرهاب ونحن معها ولكنها لا يمكن أن تقف ضد دينها .. وأنا لا أتصور أن يفتح هؤلاء بتصرفاتهم الحمقاء معارك وخصومات ومواجهات ليس لها ما يبررها على الإطلاق .. إن المثقف الحقيقى هو الذى يجنب وطنه العثرات فما بالك بمن يلقى به إلى دوامات من الصراع والنتائج غير المحسوبة .

ماهى الحكمة من هذا الهجوم الضارى فى بعض الصحف المصرية على رموزنا الإسلامية والسخرية منها .. والتهجم عليها .. وكيف نغفل ذلك أمام شباب يفقد القدوة فى كل شىء .. ولماذا هذا الإصرار المريب على إسقاط هبة هذه الرموز ومنها نماذج إنسانية رفيعة كانت غاية فى السماحة والزهد والعلم وحب الوطن ..

أتصور مثلاً أن تسخر هذه الكتابات من النماذج الرديئة فى حياتنا وما أكثرها أو أن تواجه الإرهاب بالفكر المستنير والإبداع الواعى .. أما أن تشمل السخرية كل ما يتعلق برموزنا الإسلامية فهذا عدااء سافر للإسلام وهو أمر سيئ لنا جميعاً .

ما هو الهدف من نشر رواية سورية هى « وليمة لأعشاب البحر » للكاتب السورى حيدر حيدر من ميزانية أجهزتنا الثقافية وكيف تصدر من أموال تخص نجرع مصر وقراها وشبابها المطحون .. إن هذه الأمور خصصتها الدولة لتواجه بها خفافيش الظلام فى ريف مصر وقراها .. ومن الخطأ الجسيم أن تذهب لغير ذلك .. هل يعقل أن نترك كتابات عشرات المبدعين الشباب من المصريين وننفق أموالاً خصصتها الدولة لهم على رواية رديئة للكاتب السورى أثارت جدلاً واسعاً حول قيمتها الفنية !!

وهنا أتساءل .. ماهى الحكمة من نشر أعمال أدبية شاذة لأشخاص مرضى يعانون أمراضاً نفسية وجنسية .. إن مصر كعبة الثقافة العربية وكان صدور رواية أو قصة لكاتب عربى من القاهرة المعز تنويجاً لمسيرته واعتراضاً بقيمته .

ولكننا الآن فى مصر نطبع وننشر لكل من هب ودب .. ولم يكن غريباً أن تتسلل نماذج ساقطة كان منها رواية « الحبز الحافى » للكاتب المغربى محمد شكرى وهى تحكى ذكريات رجل شاذ جنسياً وكانت ضمن مناهج التعليم فى الجامعة الأمريكية حيث يدرسها أبناؤنا ويؤدون الامتحانات فيها .. ثم كانت أخيراً « وليمة لأعشاب البحر » وهى كارثة أخرى فى سجل الأعمال غير المدروسة التى تنشرها مؤسساتها الثقافية .

ماهى الحكمة فى أن نختار هذه النماذج وأمامنا نماذج إبداعية راقية لعدد كبير من الكتاب العرب تتجسد فيها كل قيم الفن الرفيع منذ احتضنت مصر طوال تاريخها المبدعين العرب الكبار .

إننا لا يمكن أن نكون ضد حرية الإبداع .. ولكن لا توجد حرية بدون مسؤولية .. وهناك فرق كبير بين إبداع جاد ومترفع ومسئول .. وبين إبداع مبتذل ورخيص ومسموم .

ما هي الحكمة في هذا التشجيع المموم الذي يقوم به بعض نقادنا لهذه التيارات الدخيلة على ثقافتنا ابتداء بلغة الجسد .. وانتهاء بنوبات الشذوذ ..

إن هذه الكتابات تعتمد تمامًا على حديث الغرائز حيث لا أسلوب ولا فكر ولا هدف ولا قيمة .. وهي أبعد ما تكون عن جماليات الفن والإبداع .. هناك فرق كبير بين فنون تؤكد قيم الجمال حتى ولو قدمت نماذج سلوكية قبيحة .. وفنون أخرى تروج القبح وتدعو إليه .

إن موضوعات كتابات الجسد .. ورسوم الجسد .. ومسرح الجسد .. وسينما الجسد .. وروايات الجسد .. كل هذه التقاليع لا علاقة لها بالفن الحقيقي لأنها تعكس أمراضًا نفسية يحتاج أصحابها إلى مصحات وليس إلى دور نشر وكتاب ونقاد وقرء مؤسسات ثقافية تملكها دولة .

والأغرب من ذلك أن هذه الكتابات تجدى صدى واسعًا في الدوائر الغربية حيث تترجم كل يوم ويتلقى أصحابها التهاني والورود والدعوات ويشاركون في المؤتمرات ، والسبب في ذلك أن هناك تجارة رابحة في الغرب الآن ويستطيع أى كاتب عديم الموهبة أن يقدم نفسه من خلالها إن يكتب في الجنس ولغة الجسد .. أو يهاجم الإسلام .

إن الإبداع الحقيقي لا يمكن أن يكون خصمًا لمقدسات الناس وعقائدهم .. كما أنه لا ينبغي أن يكون دعوة للتحلل والتسيب والفساد .. ولا ينبغي أن يكون سلمان رشدي هو النموذج الأمثل لكتاب الرواية لأننا لسنا أمريكا ولنا إنجلترا برغم أن هذه الدول لا تسمح لأحد بالاعتداء على مقدساتها الدينية .

منذ شهور تلقيت مجموعة قصصية لكاتبة ناشئة وعندما بدأت أقرأ فيها اكتشفت أن الكاتبة غير قادرة على صياغة جملة عربية سليمة .. وكانت أفكارها مشوشة .. والقصص جميعها تنحصر في تجربة امرأة تمارس الجنس مع نفسها .. هل هذا هو الإبداع الذي نريده لأبنائنا وبناتنا ؟

نموذج آخر .. لشاعر يحاول أن يسخر من كل شيء في صياغة ركيكة .. ابتداء بالخالق جل جلاله .. وانتهاء بكل الرسل والأنبياء .. فهل هذا هو الشعر الذي نريده ؟

لو خرج رجل مجنون إلى الشارع ، ووقف عاريًا في ميدان التحرير فإن الشرطة سوف تلقى القبض عليه ، ويعاقبه القانون .. فماذا عن هؤلاء الذين يمارسون العري في الكتابة ، ويجدون من ينشر لهم ، ويدافع عنهم ، ويعطيهم الأموال من جيوب الشعب الغلبان ؟

لو أن شخصاً قرر الآن أن يطبع كتاباً ، ونحن على أبواب الانتخابات البرلمانية ، وأن يثار فيه من الحزب الوطنى ويشوه رموزه .. هل يجد فى أجهزة الثقافة من ينشر له هذا الكتاب ؟

وهل يعقل بعد ذلك أن نسمح بكتابات تتجراً على الله ورسله وأنبيائه ونقول : إن هذا يدخل فى نطاق حرية الإبداع ؟!! هل الحرية أن نروج نماذج للشذوذ الفاضح ؟

إن البعض يتصور أن هذه النماذج الرديئة من الكتابة هى دعوة للاستنارة ضد جحافل الإرهاب .. وهذا تفسير خاطئ لمسئولية الإبداع ودور المبدع .. إننا لا نستطيع أن نواجه الإرهاب بالأعمال الشاذة .. ولكننا نواجهه بالفن الحقيقى .. بالقيم الرفيعة .. والقذرة الصالحة .. والسلوك المترفع .. والحوار الجاد ..

إن هؤلاء يتصورون أنهم بذلك يخدمون الدولة فى معركتها ضد الإرهاب ، ولا أعتقد أن ذلك صحيح .. إنهم يسيئون للدولة وله .. ويسئون لنا .. ويدخلون بنا فى سرايب مظلمة من الأخطاء والتجاوزات .. يعلنون الحرب على قيم المجتمع ومقدساته .. ولا أعتقد أن الدولة بكل مؤسساتها فى حاجة إلى المزيد من المشاكل فلديها ما يكفئها !!

إن مصر هى أول من أرسى قواعد التوحيد فى الكون .. وهى التى احتضنت كل رسالات السماء فى التوراة والإنجيل والقرآن .. وهى التى أكرمت العائلة المقدسة .. وحفظت للإسلام دوره وتاريخه .. واحتضنت بين ترابها الطاهر آل بيت رسول الله ﷺ .. كانت مصر دائماً حصناً لكل دعوة للتوحيد .. فكيف نسمح لجماعة من الانتهازيين وأصحاب المصالح بأن يدخلوا بالدولة وبالشعب وبالدين فى معارك لا مبرر لها غير البلبلة والمشاكل والصراعات .. والإساءة لمشاعر الناس .. كيف أصبح فى نظرهم كل من أدى الصلاة إرهابياً .. وكل من دخل المسجد متطرفاً .. وكل من ترك لحيته متأمراً .. وكل من دعا إلى الله عدواً للدولة .

كيف توجه الأجهزة الثقافية أموالها لإصدار أعمال تسخر من مقدساتنا وهناك آلاف من المبدعين الشباب الشرفاء لا يجدون من يطبع إبداعاتهم الراقية فهل انتهت كل قضايانا ومشاكلنا الفكرية والثقافية والاقتصادية ولم يبق أماناً غير أن تطبع هذه النوعية من الكتب الرديئة والكتابات التى تسخر من كل مقدساتنا .

إن كل من يروج هذه النماذج المريضة يهدد أمن مصر واستقرارها .. ويهدد أيضاً دورها ورصيدها وريادتها .. ويهدد قبل ذلك كله أجيالاً لا ينبغي أبداً أن نقدم لها هذا الزاد المسموم .

فى معركة ضد الإرهاب كلنا فى خندق واحد .. شعباً وحكومة .

فى معركة مشبوهة ضد الإسلام ..

الكل خاسر .

ماكتبه حيدر حيدر لعللاقة له بحرية الإبداع!

إبراهيم عيسى

والتعبير، ويسعدني كما يؤسفني أن اصدم أصدقائي بأن ما جاء في هذه الرواية لايمت إلى حرية التعبير بصلة تذكر.

حرية التعبير والإبداع في حق الكاتب في تنوير الناس، ومواجهة السلطة، والسلطان، والتصدى للظلم، والقمع والفساد، والاستبداد، في لوج عالم الاجتهاد، وقراءة النصوص الدينية، وتفسيرها.. التماهي مع سير وقصص الأنبياء، والاستلهام الحر من حياتهم، مسيرتهم.. في كشف الجمود السياسي والفكري والديني.. في تعرية شيوخ الطاعة ووعاظ السلاطين، في تعرية السلاطين.. في الهجوم السافر على أحفاد أبي الحجاج الثقفي ويزيد بن معاوية، ومنصور السفاح، في السعي إلى الديمقراطية، والحرية ونزاهة الانتخابات، وحق التصويت غير المزيف ولا المزور، في مجابهة ومواجهة حملة مباحث النفاق، وجملة مواخير السياسة.. في سب ولعن وكشف وفضح الاستبداد والفساد.

إذا كنا نريد أن نضحك على أنفسنا وعلى الناس وندعي وندعو إلى أن حرية الإبداع هي وصف القرآن بالخرا، أو نبي بالشذوذ أو عضو اثني بالذلة والمحراب، فالحرية برينة من هذه الأفكار العنلة.

واريد أن أسأل: ما الإضافات إلى الحرية والإبداع والضمير الوطني والعربية الثقافية والاسلام المستنير التي أضافتها فقرات تصف القرآن بالخرا؟ ما هذا الحرص الغبي المستغبي على تقديم الحرية على أنها قد تشمل لصق صفات حقيرة بين حنيف أو مقدس ديني منزّه في الاسلام أو المسيحية أو اليهودية؟!

إن هامش الحرية في الوطن العربي ضيق ومحدود ويكاد يكون لامرئيا، فبدلا من أن نقاتل ونناضل من أجل اتساع هذا الهامش والكفاح من أجل أن تصبح الحرية حقا وحقية، نكاد غرق في عطن الوطن، وإرث الروث، حين نصر على استنفار جهودنا لجعل هذا الهامش مخصصا فقط لحق المبدع في نعت المقدسات بما يحلو له، أو حق المبدع في هلك قلب القاري بذكر الأعضاء الذكورية والأنثوية وزجاجات البيرة وبلل المثي وسب الدين والملة في قصائد النثر.. لقد تحرك المثقفون من الأدباء المصريين غضبى من حملة جريدة «الشعب» على اصدار مؤسسة في وزارة الثقافة رواية «وليمة لأعشاب البحر» مستندين على الأسباب الآتية:

١ - أنها حملة ارهاب فكرى ودينى تستهدف قمع حرية الإبداع، وتكفير الأدباء.

٢ - أن السكوت على هذه الحملة انتقصار لأصحابها وسوف يشجعهم على استلام بقية المبدعين والمثقفين وأستلقاط كلمة أو سطر أو فقرة من رواية أو قصيدة وإزالة أحكام التكفير عليهم.

٣- أن هذه الحملة دعوة إلى القتل والتصفية الجسدية للأدباء، خصوصا المشرفين على السلسلة التي أصدرت الرواية.

٤ - أن ما كتبته حيدر حيدر يدخل تحت بند حرية الإبداع، وأنه لم يحمل مساسا بالدين، ولا مقدساته وأن الفقرة التي تم ابتسارها وأستلماها في غير

على قدر ما استاء البعض وتوجس آخرون من المظاهرات التي انطلقت من جامعة الأزهر الأسبوع الماضى منددة برواية «وليمة لأعشاب البحر» (دون حتى أن يتبينوا اسمها) ورافضة لما اعتقدوه وظنهم صحيح- مساسا بالمقدسات الدينية.

على قدر ما جاءت ردود أفعال مثقفينا مستائة ورافضة، على قدر ما رأيت في المظاهرات شيئا إيجابيا وفعلا شعبيا وطلابيا محمودا مطلوبيا، فالحاجب المشرق في هذه المظاهرات أن لدينا - مازلنا - طلابا وشبابا مهتمين بالشئون العامة وما يحيط بهم في مجتمعهم.. وأن لدينا - مازلنا - طلابا وشبابا يستفهم المساس - مجرد المس - بمعتقداتهم الدينية، وأن لدينا - مازلنا - بعضا من الناس تسرى في عروقهم دماء مستنفرة وقلوب متقدة.

اليوم خرجوا - وهذا حقهم كامل غير منقوص لا مئة من أحد، ولا دفعا من أحد - في مظاهرات من أجل كبرياتهم الدينى، ففي الغد يخرجون من أجل كبرياتهم الوطني والسياسى واليوم يتدبرون بتجاوز اعتقدوه في وزارة الثقافة، وغدا يتدبرون بتجاوز يعتقدونه في غيرها.

علينا كمثقفين ووطنيين - أن نتحفظ ونحتفى بهذه المظاهرات، لا أن نستنكرها ونستنكف منها، حتى ولو كان شعارها ضد رواية أو أعمال أدبية أو أعمال يدعى أصحابها أنها كذلك.

إذا ثار شباب وطلاب وتيار ضد رواية أو كتاب أو قصيدة، فهذا دليل على أنهم مهتمون ومهمومون بقضايا عامة خارج ذواتهم، وشخصوصهم.. دليل آخر في السياق نفسه على أنه لا تزال الروايات والأعمال الأدبية الإبداعية قادرة على إثارة مجتمع واستثارة جدل وتحريك مظاهرات، ولعل - مثقفينا - الثامن في العسل والجالسين على هامش الحياة السياسية والفكرية يستيقظون - يوما - على أهميتهم وأهمية مايكتبون وينشرون، ويوجهون هذه الأهمية وجهتها الحق، وجهتها الصواب، نحو الحرية الحقيقية ضد القمع والفساد والاستبعاد، وليس ضد حرية كاتب في العيب في الذات الالهية، أو قرآن ربي المجيد.

قبل أن أتيا إلى مساهم رلق قد نسمع أن هذه المظاهرات خرجت بحشد وتعبئة من تيارات، وهذا ما أشك فيه كثيرا، فهذه التيارات ليست بالقوة التي تحكم وتنظم وتخطط وتنفذ، فقد فشلت كثيرا في كثير من خطراتها وأهدافها، ولم تفلح في لم أحد ولا جر قدم نحو قضايا عديدة كانت ملحة عليها، وفاهرة لها.. فأتحسب - حتى لو كانوا هم من نجحوا في الحشد والتعبئة هذه المرة - فلاحية الموضوع، ولفداحة الحدث، ماجاء في الرواية، وما استغفر الناس.. كل أناس..

أما حكاية أن الطلاب الذين خرجوا لم يقرأوا الرواية، فلا أعلن هذا ينقص أو يزيد في الأمر شيئا.. فالأحسن أنهم لم يقرأوا الرواية، فقد استفزهم أكثر، أما أنهم اعتمدوا فقرات متقطعة، وسطورا مبتسرة في الرواية نشرتها لهم صحيفة «الشعب» ففي ظني أن هذه الفقرات والسطور تكفى جدا لاستشارتهم، ولحفزهم على التظاهر، وأن أي سياق أدبي «مزعوم» لايننى ولايسمن من جوع في شرح شيء للناس يقلل من غلوائهم ويهدى من روعهم..

وقد احتج كثير من المثقفين والأدباء.. بأن ماكتبه حيدر حيدر صاحب الرواية المشنومة «بش الرواية التي كشفت بؤس واقعنا الثقافى، ماكتبه يستند إلى حرية الإبداع

هدفها، وإن الوصف جاء على لسان إحدى شخصيات الرواية، ومن ثم فالروائي لا يكتفي بها.

هذه الأسباب تبدو من الخارج منطقية ومتناسكة، لكن بمجرد تأملها نكتشف أنها عوراء، أن لم تكن عمياء، وأنه إذا اتفق بعضنا على أن هذه الحملة استخدمت أساليب تهيجية غوغائية، فمن يظن الضمير أن نقول: إن مواجهة الغوغائية لا تكون بالغوغائية نفسها، وأن التهيج الصادر من جريدة «الشعب» يدعو إلى كون هذا الأدبي كافرا، وتصدى له تهيج يساري يرى أن هذا حرية إبداع، وإن هؤلاء أرمائيون، بل وصل إلى وصف أحدهم بأنه يتناول على رموز الدولة؟! وفي ظني أن ما فعلته جريدة «الشعب» حقها الطبيعي الذي لا يناقشها فيه أحد، صحيح أن الجريدة بالغت حتى التطرف والشطط في استدعاء الناس على حيدر حيدر، وناشر الرواية، وصحيح أنها أصيبت بجنون ملاحقة النصوص فيما يشبه محاكم التفتيش التي تأخذ في أرجلها بابرياء كثيرين ولا تعطى فرصة لأحد كي يلتقط نفسه، أو يرفع حسا.

لكن هذه الأساليب كلها مبهودة في هذا التيار، وجزء أصيل من رسالته السياسية، ولا هي مستغربة، ولا مستوحشة، بل مستسقة تماما.. لا أرى جديدا لكن للمغارقة، فالقضية التي تسلمتها الحملة بسيطة وواضحة تماما

سؤال: هل من حق أحد أن يصف القرآن بالخراء؟!
أجب.. انطق.. قل الحق.. وماتره يرضى ضميرك..

إن تجد سوى إجابة واحدة.. لا.. ليس من حق أحد..
ثم ماعقوبة من يقول أن القرآن خراء؟

إن يقتل.. أن تقطع يده، ورجلاه من خلاف..
لم تقل الحملة ذلك. طالبت بوضوح.. معاقبة المستولين الموظفين.. هذه واحدة. وطالبت بتأطير الشعب، وإعلان غضب المسلمين في مصر من هذه الجريمة.

عداها العيب!!

إذا كانت هذه مطالبها فقد عداها العيب فعلا. بل أرى أن من الواجب على المثقفين أمام رواية حيدر حيدر، وما جاء فيها من وصف حقير للقرآن الكريم حتى لو على لسان كلب في الرواية، وليس على لسان أحد أبطالها.

من الواجب علينا الاعتذار وليس الاستكبار. نعم.. أجد نفسي خجلان فعلا من أن أحدا من الكتاب كتب هذه الفقرات ونشرها غيره من المثقفين.. وأرى واجبا عليهم الاعتذار لا الاستكبار.

لاكان يقصد، ولا كانوا يقصدون.. أسفون للرأي العام.. أسفون للحس المسلم السليم.

أما الاستكبار والقول بأن وصفنا القرآن بالخراء حرية إبداع فهذا أمر والله العظيم «ثلاثة» ينسئ إلى حرية التعبير، والأبداع، ويجعلها خراء حقا.. وينفر الناس منا، ويدعو جماهير القراء والمواطنين إلى كراهيتنا وبغضنا فإذا كان العالم معسكرين.

معسكر يقول له أنه ضد وصف القرآن بالخراء ومعسكر يقول له أن تعبير «القرآن خراء» هو إبداع جاء على لسان شخصية في الرواية وليس على لسان الروائي «حلو شغل الحواة ده»؟

فسوف أكون - كأي مواطن سليم العقل والوجدان - مع المعسكر الأول فورا.

حرية إبداع أياه «باروخ امكم» انتظروا هذا الرد.. أعود فأقول: لو انشغل المثقفون المصريون الذين استنفروا ضد حملة الشعب على خراء حيدر حيدر نصف هذا الاستنفار حين تم اعتقال الكتاب والمفكرين في السجون، ضد سجن الصحفيين، تلك الجريمة السياسية المنكراء القذرة، ضد مضادة كتاب سياسي، أو رواية صادرتها مباحث أمن الدولة ضد تزوير انتخابات، ضد قساوون الطواغيت.. لكتنا احترامنا حرية الإبداع حقا. لا أفهم سر أن أحدا من المثقفين لا يتحرك إلا إذا كان في

الأمر هجمة من تيار ديني تحت ستار الدين ضد مبدع متهم بالإساءة إلى المقدسات «لا أقول مناقشة اجتهادات المفسرين، ولا أقول مناقشة صحة أحاديث منسوبة إلى النبي، ولا أقول خزعيلات شيوخ الطاعة.. لا.. أقول: الإساءة إلى المقدسات!!».

ما السر؟

أعلم أن عشرات من المثقفين المصريين قالوا لي أنهم يكرهون رواية حيدر حيدر ويرونها عملا تأفها، وأنهم ضد مذكره، ويرونه شيئا حقيرا، لكن ماذا يفعلون إلا مواجهة الهجمة الأرمائية؟

وأقول لهم: ما الذي جعلنا نعتقد أن الحملة ضدنا أساسا؟

وإذا كانت ضد مثقف أو أديب أو مشرف سلسلة أدبية فعليه أن يوضح ويستوضح.. ومن الجائز جدا أن يشعر أنه أخطأ فيعتذر، أو يستقبل «بالتناسية» إبراهيم أصلان - المشرف على هذه السلسلة - واحد من أنقى وأرقى وأطهر رجال الأرض، وشخص أصيل ورائع وأعتقد أن هذه الحملة لم تمس حتى طرف بنطلونه، فمن الجائز أن تكون الرواية قد عبرت عليه دون أن يتفحصها، ومن الجائز أن يكون تقديره قد أخطأ، ولأظن في دينه ولا في أسلامه.. وأظن أنه أصلب عودا وأقوى قلبا وأصمد روحا من أن يبتزّه أي واحد فينا، حينما رسمت رسامة صهيونية منذ أعوام خنزيرا وكتبت عليه محمد «نبينا المصطفى» لم يقل أحد لأعدنا ولاحتي عندهم أنها حرية إبداع، وعندما نخرج السينما الأمريكية بفيلم يقدم أرمابيا وقساتلا ممسكا بمصحف شريف نصرخ: إنها امبريالية وصهيونية، ما الذي ننتظره إذن عندما ننس نحن مقدساتنا؟!

يقبت ثلاث نقاط، واحدة مكررة واثنان جديدتان، نبدا بالجديد..

١ - قرأت للكاتب محمد عباس، ما يكتبه، وقرأت محاولة إصابته بالسهم نفسه الذي أصاب به حين استلقطوا له بعض الجمل والفقرات في روايته «قصر العيني».. والحقيقة أنني أرى في محمد عباس كاتباً جريئاً وجسوراً، يكتب ما يراه، وما يريد، ويحصل اللي يحصل.. والحقيقة أن كتاباته فيها خطابة، ومثيرة، ووعظية وحس تظاهري ومثيري للفتية، لكن ما الضرر.. هو حر.. اتفق معه واختلف، أحببته أو أكرهته، لكن هذا سمته وصفته وكتاباته، ولقد رأيت في مقالات كثيرة له شجاعة ليست في كثير من المثقفين في مواجهة الظلم والاستبداد والفساد وأمن الدولة!

أما ما ذكره عن روايته التي لم أقرأها فإن كل ما جاء من فقرات في الرواية لا ينسئ إلى محمد عباس في شيء «باللمعاجة»!!

طبعاً... لا توجد رواية في العالم لاتمس الجنس من قريب أو بعيد، ولا يوجد ما يمنع أو يعطل كاتباً عن الحديث عن الجنس في رواية له، وليس في ذلك ما ينسئ إلى علي الإطلاق.. ضد الفحش في الجنس، ممكن حتى هذا فيه كلام.. لا أحد ضد الاستعارة من القرآن الكريم، والفاطه، وجمل، ومعانيه، لم يقل أحد على الأرض شيئاً من هذا قبلاً ولا بعداً.

محمد عباس ليس في روايته - على ما قرأت من فقرات مختارة بعناية، وبترصد وبترمس - ما ينسئ له.

الخلاصة عندي.. هل قال محمد عباس - على لسان شخصية من شخصيات روايته - أن القرآن خراء.. أو أن نبيا شاذ، أو أن الانجيل كذا؟! لا.. لم يقل.

إنني يكتب ما يحلو له، وإنتم مآلكم.. حتى لو كتب ما أدانه عند حيدر حيدر تباً للآثنين أن صغ.

الأمر الثاني: أنني قرأت قطعا رواية «وليمة لأعشاب البحر»، وقرأت كل ما كتب عنها من دراسات نقدية وأدبية «كله على ما أظن»، ويسعدني أن أسجل رأيي لزملائي وأصدقائي جميعاً - مع احترامي للثقافة الكبار قوى الذين امتدحوها حتى كدت أظن

أنها المثال والنموذج - وهو رأي في جملة واحدة.

«إنها رواية خراء طارح». وهذا ليس وصفا أدبيا ولا نقدا أدبيا، إنه مجرد رأى ينطوى تحت حرية الرأي والتعبير. أخيرا.. كان من الممكن أن يضع المرء لسانه في حلقه ويسكت ويعتزل هذه الفتنة وتحرقوا جميعا.. إسلاميين على يساريين، فلا أحد منكم مد يدا ولا أفرغ مداد حبره لنجدة كاتب مصادر ومطارد، أغلقوا سبع صحف له وصادرت مباحث أمن الدولة روايته دون أن يهرع البعض الى طبعها تحديد للسلطة أو للسلطان.

كان من الممكن أن اصمت، ولم يكن أحد يرمى رذائه بعدها في وجه رأيي أبدأ، لكن لو كنا ممن يضعون السننهم في حلوقهم ما كان حالنا هكذا ولا هذا مقنا.

مرة أخيرة.. حرية الرأي والإبداع والتعبير هي التي نوجهها ضد الجمود، والقمع، والكبت والقمع، وفي سبيل الحرية والديمقراطية، والشفافية، والنهوض بامتنا، ومجتمعاتنا.

أما عدا ذلك فهو ليس كذلك، وينجينا رب الممالك من المهالك.. قول يا رب

ولنا تعليق،

تعتبر «أخبار الأدب» نفسها في معركة دفاعا عن حرية الإبداع وحق التفكير الذي لا يصح أن يشهر في وجهه سلاح التكفير. ولأن الحرية لا تتجزأ، ننشر هنا مقالا لرئيس تحرير جريدة «الدستور» الموقوفة إبراهيم

عيسى الذي طلب أن يقدم صوته «المختلف» من خلال أخبار الأدب ونحن نرحب به.

وكما أن الدين لا يهدمه سطر في رواية، فإن حرية الإبداع لا يمكن أن يهدمها مقال إبراهيم عيسى، الذي يستحق التعامل من أكثر من زاوية، فهو:

● أولا: يجزم من السطور الأولى بحق الطلاب في التظاهر ضد الراوية دون أن يفسرواها - هو الذي تعرض لهذا في أبداعه وعمله الصحفي - وهو لا يكتفي بهذا بل يقرر من البداية أيضا أن الرواية تمس المقدسات.

● ثانيا: يرى إبراهيم عيسى - ولا أحد يخالفه - أن مقاومة فقهاء السلطان ووعاظ الطاعة إحدى مما اعتبره أهانة للمقدسات: وسؤالنا إليه: ما الذي أخرج نصر حامد أبو زيد من مصر؟ هل كتب رواية هو الآخر أم أن معركته كانت مع فقهاء الطاعة؟

● ثالثا: من المدهش أنه يرى الأساءة في رواية حيدر، بينما لم يجد في رواية محمد عباس أية أساءة بما في ذلك تحريف سورة الاخلاص، فإن كان ما نشرناه في العدد السابق للنقاد عبدالعزيز موافي غير كاف، فإننا نحيل الصديق إبراهيم عيسى الى المنشور في هذا العدد أيضا، ليرى ما ذكره عباس عن «مريم العنراء» المقدسة في الديانتين المسيحية والإسلامية.

المصادر والمراجع

- ١ - أبو نواس الحسن بن هانى ... عباس محمود العقاد - مكتبة الأنجلو - القاهرة (د. ث) .
- ٢ - إحياء علوم الدين ... أبو حامد الغزالي - دار الشعب - القاهرة (د. ث) .
- ٣ - أدب الرسائل فى صدر الإسلام ... الدكتور جابر قميحة - الجزء الأول : عصر النبوة - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٨٦ .
- ٤ - الأدب الشيوعى ... ماهر نسيم - دار المعارف - القاهرة (د. ث) .
- ٥ - الأدب وفنونه ... الدكتور محمد عنانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٩٧ .
- ٦ - الأدب وفنونه ... الدكتور عز الدين إسماعيل - دار الفكر العربى - الطبعة الثالثة - القاهرة .
- ٧ - أركان القصة ... أ. م. فورستر . ترجمة كمال عباد - دار الكرنك - القاهرة سنة ١٩٦٠ .
- ٨ - أسباب النزول ... الواحدى أبو الحسن على بن أحمد . تحقيق الدكتور السيد الجميلى - دار الكتاب العربى - بيروت سنة ١٤١٢ - ١٩٩١ .
- ٩ - الإسلام بين العلماء والحكام ... عبد العزيز البدرى - باكستان سنة ١٣٩٩ .
- ١٠ - الإسلام وأصول الحكم ... على عبد الرازق . نقد وتعليق الدكتور ممدوح حقى - دار مكتبة الحياة - بيروت سنة ١٩٧٨ .
- ١١ - الإسلام والفلسفات المعاصرة ... الدكتور محمد البهى - المكتب الفنى للنشر - القاهرة سنة ١٩٥٩ .
- ١٢ - الأسلوب ... أحمد الشايب - دار النهضة المصرية - القاهرة - الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٨ .

- ١٣ - أصول التشريع الإسلامى ... على حسب الله - دار المشرق العربى - الطبعة السادسة - القاهرة سنة ١٩٨٢ .
- ١٤ - أصول الشريعة ... محمد سعيد العشماوى - مذبولى الصغير - الطبعة الرابعة - القاهرة سنة ١٩٩٦ .
- ١٥ - أصول الفقه ... محمد زكريا البرديسى - مطبعة دار التأليف - الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٦١ .
- ١٦ - أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية ... الدكتور محمد سليم العوا . دراسة فى مجلة وجهات نظر - العدد ١٧ - يونية ٢٠٠٠ .
- ١٧ - الأغاني ... أبو الفرج الأصفهاني . تحقيق إبراهيم الإبيارى - دار الشعب - القاهرة (د . ث) .
- ١٨ - أنساق القيم فى الإبداع المصرى ... طلعت رضوان . وزارة الثقافة المصرية . سلسلة كتابات نقدية ١٠٣ - مايو ٢٠٠٠ .
- ١٩ - بين الكتب والناس ... عباس العقاد - دار الكتاب العربى - الطبعة الأولى - بيروت سنة ١٩٦٦ .
- ٢٠ - التاريخ الحديث لهزيمة الحب والثورة ... دراسة لمحمد برادة . أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ .
- ٢١ - تاريخ الخلفاء ... السيوطى - جلال الدين عبد الرحمن . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - باكستان (د . ث) .
- ٢٢ - تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبرى) ... محمد بن جرير الطبرى . تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٧ .
- ٢٣ - تحليل السرد الروائى ... الدكتور أحمد صبرة . دراسة بمجلة فصول . مجلد ١٦ - العدد ٤ - ربيع ١٩٩٨ .
- ٢٤ - التشريع الجنائى الإسلامى ... عبد القادر عودة - دار الكاتب العربى - بيروت (د . ث) .
- ٢٥ - تفسير الجلالين ... جلال الدين محمد بن أحمد المحلى ، وجلال الدين السيوطى - دار المعرفة - بيروت (د . ص) .

- ٢٦ - تفسير القرآن العظيم (المعروف بتفسير ابن كثير) ... إسماعيل بن عمر - مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر سنة ١٩٩٦ .
- ٢٧ - التفسير النفسى للأدب ... الدكتور عز الدين إسماعيل - دار النهضة المصرية - القاهرة سنة ١٩٨٦ .
- ٢٨ - التفكير فريضة إسلامية ... عباس محمود العقاد - دار الهلال - القاهرة (د . ث) .
- ٢٩ - The Element Of Drama : I.L. Styan (Combridg univ press 1969)
- ٣٠ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن (المعروف بتفسير الطبرى) ... أبو محمد ابن جرير الطبرى . تحقيق صدقى العطار - دار الفكر - بيروت سنة ١٤١٥ - ١٩٩٥ .
- ٣١ - الجامع لأحكام القرآن (المعروف بتفسير القرطبى) ... أبو عبد الله محمد ابن أحمد - دار الشعب - القاهرة (د . ث) .
- ٣٢ - جاهلية القرن العشرين ... محمد قطب - دار الشروق - القاهرة سنة ١٤٠٩ - ١٩٨٩ .
- ٣٣ - الجمالية الماركسية ... هنرى أورفون . ترجمة جهاد نعمان - دار عويدات - بيروت سنة ١٩٧٥ .
- ٣٤ - جوهر الإسلام ... محمد سعيد العشماوى - دار مديولى الصغير - الطبعة الرابعة - القاهرة سنة ١٩٩٦ .
- ٣٥ - الحريات العامة فى الفكر والنظام السياسى فى الإسلام ... الدكتور عبد الحكيم العيلى - دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٨٣ .
- ٣٦ - حقائق غائبة فى قضية الوليمة ... الدكتور فؤاد زكريا - مجلة المصور . العدد ٣٩٤٥ .
- ٣٧ - الحكومة الإسلامية ... الدكتور محمد حسين هيكل - دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٧ .

- ٣٨ - الخراج ... أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم - دار الاعتصام - القاهرة
سنة ١٩٨١ .
- ٣٩ - الخلافة الإسلامية ... محمد سعيد العشماوى - دار سينا للنشر - الطبعة
الثانية - القاهرة سنة ١٩٩٢ .
- ٤٠ - ديوان أبى نواس ... أبو نواس الحسن بن هانئ . ضبط وتحقيق ، وشرح
أحمد عبد المجيد الغزالي - دار الكتاب العربى - بيروت (د . ث) .
- ٤١ - رسالة الغفران ... أبو العلاء المعرى . تحقيق وشرح بنت الشاطئ عائشة
عبد الرحمن - دار المعارف - القاهرة - الطبعة السادسة سنة ١٩٧٧ .
- ٤٢ - الرواية فى الوطن العربى : نماذج مختارة ... الدكتور على الراعى . دراسة
عن رواية حيدر -- أخبار الأدب - العدد ٣٥٦ - ٥/٧ - ٢٠٠٠ .
- ٤٣ - رواية ما بعد الحداثة ... عابد الخازندار - الطبعة الأولى - جدة سنة ١٩٩٢ .
- ٤٤ - سارتر والوجودية ... الدكتور مصطفى غالب - دار ومكتبة الهلال -
بيروت سنة ١٩٨٦ .
- ٤٥ - السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) ... حققها وضبطها مصطفى السقا
وآخرون - الطبعة الثانية - مصطفى الحلبي سنة ١٣٧٥ - ١٩٥٥ .
- ٤٦ - السيميولوجيا والأدب ... الدكتور أنطوان جمعة . دراسة فى مجلة عالم
الفكر (الكويتية) . المجلد ٢٤ - العدد ٣ يناير / مارس سنة ١٩٩٦ .
- ٤٧ - الشخصية العربية فى القصة العبرية ... الدكتور محمود حميدة . دراسة فى
مجلة عالم الفكر الكويتية . المجلد ٢٤ - العدد ٣ يناير / مارس سنة ١٩٩٦ .
- ٤٨ - الشروط الاجتماعية للإبداع ... الدكتور مصطفى سويف . دراسة بمجلة
فصول . المجلد ١١ - العدد الأول : ربيع ١٩٩٢ .
- ٤٩ - الطب النبوى ... ابن القيم . تحقيق شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر
الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة - بيروت سنة ١٩٨٢ .
- ٥٠ - طرائق تحليل السرد الأدبى ... من منشورات اتحاد كتاب المغرب - الطبعة
الأولى - الرباط سنة ١٩٩١ .

- ٥١ - الظاهرة الجمالية في الإسلام ... صالح أحمد الشامي - المكتب الإسلامي -
الطبعة الأولى - بيروت سنة ١٤٠٧ - ١٩٨٦ .
- ٥٢ - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ... الدكتور يوسف القرضاوى - مكتبة
وهبة - الطبعة الأولى - القاهرة سنة ١٩٧٧ .
- ٥٣ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ... ابن حجر العسقلانى - دار الريان
للتراث - القاهرة سنة ١٤٠٧ - ١٩٨٧ .
- ٥٤ - فن القصة ... محمد يوسف نجم - الطبعة الثالثة - بيروت سنة ١٩٥٩ .
- ٥٥ - فن كتابة القصة ... حسين قباني - الدار المصرية - القاهرة (د . ث) .
- ٥٦ - فى الثقافة المصرية ... محمود العالم ، وعبد العظيم أنيس - مكتبة النهضة
المصرية - القاهرة سنة ١٩٨١ .
- ٥٧ - فى الشعر الملحمى ... أحمد أبو حاقه - دار الشرق الجديد - الطبعة
الأولى - بيروت سنة ١٩٦٠ .
- ٥٨ - فى ظلال القرآن ... سيد قطب - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٧٨ .
- ٥٩ - فى نظرية الرواية (بحث فى تقنيات السرد) ... الدكتور عبد الملك مرتاض -
العدد ٢٤٠ من سلسلة عالم المعرفة - الكويت سنة ١٩٩٨ .
- ٦٠ - القصة القصيرة ... رشاد رشدى - الطبعة الثالثة - مكتبة الأنجلو - القاهرة
سنة ١٩٧٠ .
- ٦١ - القصة من خلال تجاربى ... عبد الحميد جودة السحار - معهد الدراسات
العربية - القاهرة سنة ١٩٦٠ .
- ٦٢ - القصة والرواية ... الدكتورة عزيزة مريدن - دار الفكر - دمشق سنة
١٤٠٠ - ١٩٨٠ .
- ٦٣ - كتاب الصناعتين ... أبو هلال العسكري . تحقيق الدكتور مفيد قميحة -
بيروت سنة ١٩٨١ .
- ٦٤ - كتاب الأموال ... القاسم بن سلام - دار الفكر - القاهرة سنة ١٩٨١ .
- ٦٥ - لباب النقول فى أسباب النزول ... جلال الدين السيوطى - دار إحياء
العلوم - بيروت - الطبعة الثامنة سنة ١٤١٤ - ١٩٩٤ .

- ٦٦ - لله يازمري ... كريمان حمزة - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩٩ .
- ٦٧ - مبادئ النقد الأدبي ... أ.م. رتشارد . ترجمة الدكتور مصطفى بدوى - مطبعة مصر - القاهرة سنة ١٩٦٣ .
- ٦٨ - مجتمع يشرب ... خليل عبد الكريم - دار سنا - القاهرة سنة ١٩٩٢ .
- ٦٩ - مدخل إلى تحليل النص الأدبي ... الدكتور عبد القادر أبو شريفة ، وحسين لافى - دار الفكر - عمان سنة ١٤١٣ - ١٩٩٣ .
- ٧٠ - المدخل إلى القيم الإسلامية ... الدكتور جابر قميحة - دار الكتاب المصرى اللبنانى - القاهرة سنة ١٩٨٤ .
- ٧١ - مطالعات فى الكتب والحياة ... عباس محمود العقاد - الطبعة الثالثة - بيروت سنة ١٩٦٦ .
- ٧٢ - المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق ... الدكتور جابر قميحة - الطبعة الأولى - دار الجلاء - القاهرة سنة ١٩٨٨ .
- ٧٣ - المعارضة فى الفقه السياسى الإسلامى ... الدكتور نيفين عبد الخالق - مكتبة الملك فيصل الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٨٥ .
- ٧٤ - معجم مصطلحات الأدب ... الدكتور مجدى وهبة - مكتبة لبنان - بيروت سنة ١٩٧٤ .
- ٧٥ - من فنون الأدب (المسرحية) ... الدكتور عبد القادر القط - دار النهضة العربية - بيروت سنة ١٩٧٨ .
- ٧٦ - منهج العقاد فى التراجم الأدبية ... الدكتور جابر قميحة - دار النهضة المصرية - الطبعة الأولى - القاهرة سنة ١٩٨٠ .
- ٧٧ - منهج الفن الإسلامى ... محمد قطب - دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٧ .
- ٧٨ - موسوعة السياسة ... عبد الوهاب الكيالى وآخرون - بيروت سنة ١٩٩٠ .
- ٧٩ - الموشح : مأخذ العلماء على الشعراء فى عدة أنواع من صناعة الشعر ... المرزبانى : أبو عبيد محمد بن عمران بن موسى . تحقيق على محمد البجاوى - دار نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٦٥ .

- ٨٠ - نشيد الثورة المجهضة ... محمود أمين العالم . دراسة فى مجلة (أخبار الأدب) - العدد ٣٥٦ - ٢٠٠٠/٥/٧ .
- ٨١ - النظريات السياسية الإسلامية ... الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس - دار التراث - الطبعة السادسة - القاهرة سنة ١٩٧٦ .
- ٨٢ - النقد الأدبى : أصوله ومناهجه ... سيد قطب - دار الشروق - الطبعة السابعة - القاهرة سنة ١٤١٣ - ١٩٩٣ .
- ٨٣ - النقد الأدبى الحديث ... الدكتور محمد غنيمى هلال - دار النهضة - القاهرة سنة ١٩٧٣ .
- ٨٤ - هوامش على دفتر التنوير ... الدكتور جابر عصفور - الهيئة العامة لقصور الثقافة - الطبعة الثالثة - القاهرة سنة ٢٠٠٠ .
- ٨٥ - الوافى بالوفيات ... صلاح الدين الصفدى . عناية س ايدرنيغ فيسبادن - القاهرة سنة ١٩٧٢ .
- ٨٦ - الوساطة بين المتنبي وخصومه ... القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني - مطبعة صبيح - القاهرة سنة ١٩٤٨ .
- ٨٧ - وليمة لأعشاب البحر ... حيدر حيدر - الهيئة العامة لقصور الثقافة فى مصر - القاهرة سنة ١٩٩٩ .

* * *

من الدوريات :

- ١ - جريدة آفاق عربية .
- ٢ - مجلة أخبار الأدب .
- ٣ - مجلة أكتوبر .
- ٤ - جريدة الأهرام .
- ٥ - مجلة الأهرام العربى .
- ٦ - جريدة الأيام الجديدة .
- ٧ - مجلة روز اليوسف .
- ٨ - جريدة السياسى المصرى .
- ٩ - جريدة الشعب .
- ١٠ - مجلة عالم الفكر (كويتية) .
- ١١ - مجلة فصول .
- ١٢ - جريدة القاهرة .
- ١٣ - مجلة المصور .
- ١٤ - جريدة الميدان .
- ١٥ - مجلة وجهات نظر .

* * *

الكاتب دكتور جابر قميحة فى سطور

- من مواليد مدينة « المنزلة » بشمال دلتا النيل بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٣٤ م .

حاصل على المؤهلات الآتية :

- ليسانس دار العلوم التربوى من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .
- ليسانس الحقوق - من كلية الحقوق بجامعة القاهرة .
- دبلوم عال فى الشريعة الإسلامية - من كلية الحقوق - جامعة القاهرة .
- ماجستير فى الأدب العربى الحديث - من جامعة الكويت .
- دكتوراه فى الأدب العربى الحديث - من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

عمل بالتدريس فى الكليات الآتية :

- كلية الألسن - جامعة عين شمس .
- جامعة (يل) Yale ، بولاية (كنكتكت) بالولايات المتحدة .
- الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .
- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (قسم الدراسات الإسلامية والعربية) - الظهران - المملكة العربية السعودية .

حضر كثيرًا من المؤتمرات العالمية .. منها :

- مؤتمر الشباب المسلم العربى بمدينة (سبرنج فيلد Spring Field) بالولايات المتحدة .
- مؤتمر شباب الجامعات الإسلامية بإسلام آباد .
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بأسطنبول - تركيا .

- مؤتمر « ظاهرة ضعف اللغة العربية في التعليم الجامعي » - جامعة الإمام محمد ابن سعود - الرياض .
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالدار البيضاء بالمغرب .

عضو في :

- اتحاد الكتاب المصريين .
- رابطة الأدب الإسلامي العالمية .

الكتب المطبوعة للمؤلف :

- ١ - « منهج العقاد في التراجم الأدبية » .
- ٢ - « أدب الخلفاء الراشدين » .
- ٣ - « أدب الرسائل في صدر الإسلام » .
- ٤ - « التقليدية والدرامية في مقامات الحريري » .
- ٥ - « صوت الإسلام في شعر حافظ إبراهيم » .
- ٦ - الشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود .. أو : ملحمة الكلمة والدم .
- ٧ - « التراث الإنساني في شعر أمل دنقل » .
- ٨ - « في صحبة المصطفى ﷺ » .
- ٩ - « المدخل إلى القيم الإسلامية » .
- ١٠ - « المعارضة في الإسلام بين النظرية والتطبيق » .
- ١١ - « الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف » .
- ١٢ - « آثار التبشير والاستشراق في الشباب المسلم » .
- ١٣ - « الزحف المدنس » (ديوان شعر) .
- ١٤ - « لجهاد الأفغان أغنّى » (ديوان شعر) .
- ١٥ - « حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري » (ديوان شعر) .
- ١٦ - « لله والحق وفلسطين » (ديوان شعر) .
- ١٧ - « أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في اللغة العربية » .
- ١٨ - « الإمام الشهيد حسن البنا بين السهام السوداء وعطاء الرسائل » .

البحوث المنشورة :

وهي عشرات من البحوث والمقالات نشرت في المجلات الآتية :

- ١ - مجلة الدارة (سعودية - فصلية - محكمة) .
- ٢ - مجلة الدراسات العربية (مصرية - فصلية - محكمة) .
- ٣ - مجلة الدراسات الإسلامية (فصلية - باكستانية - محكمة) .
- ٤ - مجلة الشعر (مصرية - شهرية) .
- ٥ - مجلة الفيصل (سعودية - شهرية) .
- ٦ - مجلة الحرس الوطني (سعودية - شهرية) .
- ٧ - المجلة العربية (سعودية - شهرية) .
- ٨ - مجلة المنهل (سعودية - شهرية) .
- ٩ - مجلة الوعي الإسلامي (كويتية - شهرية) .
- ١٠ - مجلة المجتمع (كويتية - أسبوعية) .
- ١١ - مجلة المنتدى (تصدر في دبي - شهرية) .
- ١٢ - المسلمون (سعودية - أسبوعية) .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

فخرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣٠ - ٥	مدخل وتوطئة
	● قصورنا فى مواجهة المشكلات ، والاستهانة بالصغائر حتى يستفحل الخطر ، وتتحول إلى كبائر ماحقة
	● من مظاهر العدوان على الإسلام والقرآن والأنبياء والصحابة :
	كتابات سعيد العشماوى - تدريس رواية دعارة فى الجامعة الأمريكية - تشويه الحضارة الإسلامية - تشويه طبيعة الفتح الإسلامى - نوال السعداوى والشذوذ الفكرى - الهجوم على تشريع الميراث - دعوة أحمد عبد المعطى حجازى إلى « التعرى » من أجل الفن - السقوط الإعلامى، وخصوصًا فى التلفزيون - توالى إصدارات وزارة الثقافة التى تحارب الإسلام والخلق والفكر السوى
	● تهمة التطرف الدينى تهمة ساقطة
	● لماذا لا يتكلمون عن التطرف اللادينى ؟
	● حقيقة محمد عباس .. أو المشجب الذى علقوا عليه الأحداث
	● من مناهج دفاعهم عن حيدر حيدر وروايته

القسم الأول

مع الرواية دينًا وأدبًا

- عرض الرواية : عرض موجز للرواية من بدايتها إلى نهايتها ٣٣
- البناء الفنى وعناصره : رواية سياسية ماركسية مصابة بالتضخم الحبيث ٣٧
- أولًا : بيئة الرواية : المساحة المكانية : العراق - الجزائر - البحر

- والأهوار - المزج بين المكان والشذوذ والجنس الساقط - تكرار المشاهد بصورة مملة . زمان الرواية : الزمان التاريخي : إغراق في التفصيلات الطويلة - التركيز على عرض الأيديولوجية الشيوعية . الزمن النفسى : وتوظيف الصيغ الفعلية الثلاث : الماضى والحاضر (المضارع) والمستقبل - التداخل الزمنى - التحرر من التتابع الحداثى ٤٠ - ٤٩
- ثانياً : الحدث : أهمية الحدث فى العمل الروائى بصفة عامة - فى رواية الوليمة أحداث تاريخية ، وأخرى متخيلة - الأحداث التاريخية : ضخمت الرواية ، وأضعفت الطابع الدرامى ، واهتمت بالدعاية للماركسية ، ولم يطوعها حيدر للمنطق الروائى - صلة هذه الأحداث بالاسترجاع واليوميات - تاريخيات المجتمع الجزائرى : تشويه وسقوط - الأحداث المتخيلة : اتسمت بالبطء والتسطيح ، والطروحات الجنسية الشاذة - بصمات الوجودية فى هذه الأحداث ٥٠ - ٥٧
- ثالثاً : الشخصيات : مفهوم الشخصية وأبعادها فى العمل الفنى بصفة عامة - العلاقة بين شخصية الكاتب ، وشخصيات روايته - سيطرة الجنس الساقط على أغلب شخصيات رواية الوليمة - أهم شخصيتين : مهدي ومهييار مسكونان بالأيديولوجية الشيوعية - أغلب الشخصيات تتسم بالاستهتار والجرأة على الله والدين - تشويه الدين فى شخصية « الشيخ محمد » - الجنس الداعر هو « بطل » رواية الوليمة ٥٨ - ٦٩
- رابعاً : الحوار : أهمية الحوار ووظيفته فى العمل الروائى بصفة عامة - المفهوم الصحيح لواقعية الحوار - الفرق بين لغة السرد ولغة الحوار - حوار الوليمة فيه ثرثرة وتمطيط - عدم توافق مستواه اللغوى مع طبيعة الشخصية - تعدد مستوياته أحياناً فى نطاق الشخصية الواحدة - وأحياناً يرد فى صياغة علمية جافة - فى الحوار جرأة على الله والخلق - الحوار الداخلى ومكانه فى الرواية ٧٠ - ٨٠

خامسًا : السرد : مفهوم السرد - طريقة السرد الذاتي وطريقة السرد الغيبي - الفرق بين السرد والوصف - نصوص مختارة من رواية الوليمة

من آليات السرد في الوليمة :

١ - الاسترجاع الفني Flash Back

٢ - اليوميات Diaries

الاسترجاع وارتباطه بالأيدولوجية الشيوعية في الرواية - أنواع اليوميات : الخاصة الخالصة - الخاصة العامة - العامة الخالصة . رومانسية أسلوبها - أغلبها جاء ختامًا لمواقف ومشاهد ، لا اختتامًا

لفصول ٧٨ - ٨١

٨٨

سادسًا : اللغة ومعجم الهبوط :

١ - قطرات عذبة في بحر الظلمات :

نصوص قليلة جدًا ذات معان طيبة عامة ٩٦ - ٩٢

٢ - كلمات وتراكيب شعوبية :

ورودها في الحوار والسرد - فيها اتهام خسيس للعرب والعروبة ، وتعصب شعوبى شنيع - بصمات الأدب الصهيوني في أدب الوليمة

٣ - بلا خلق في مستنقع الجنس :

كثرة هذه العبارات في السرد والحوار - ورودها في الحوار مزيجًا من العامية والفصحى ، مما ترتب عليه الخلل الفني كذلك - لا يمكن الاحتجاج بالواقعية لتبرير هذا السقوط - دلالة هذه العبارات على

أبعاد شخصية حيدر كاتب الرواية ١٠٣ - ٩٧

٤ - عبارات العدوان على الله ، والدين ، والرسول ﷺ ، والقرآن

الكريم :

كثرة هذه الألفاظ والتراكيب بشكل فاحش - إنها تمثل عدوانية صريحة على ذات الله والرسول ﷺ والقرآن والقيم . كثير من هذه العبارات ينطق بالكفر البواح - فيها دليل على أن « حيدر » فقير جدًا

فى الثقافة الإسلامية وآدابها .. وخصوصًا القرآن والحديث - هذه اللغة العدوانية تعكس شخصية كاتبها .. فالأسلوب هو الكاتب - كما يقول النقاد . والكاتب هو الذى يختار شخصياته وحواره ، وسرده بوعى كامل ، ولا يشفع له أن يدفع عنه المسئولية بقوله : إنه حوار جاء على ألسنة شخصيات خيالية مخترعة ١٠٤

* * *

القسم الثانى

الرواية بين التحدى والتصدى

١١٩

[١] تقرير اللجنة القطية : ذلك العزف المنفرد :

تشكيل اللجنة لاعدالة فيه - التقرير مجرد تفصيل لرأى وزارة الثقافة ورؤية حيدر حيدر - مظاهرات طلاب الأزهر وطالباته عمل تلقائى مشروع ، وظاهرة صحية ، وأتى بنتائج طيبة رغم الضحايا . مضمون تقرير اللجنة ومناقشته :

- تحديد التقرير لوظيفة الرواية ومناقشته - دعوة التقرير إلى ما يسمى بالقراءة الأدبية بعيدًا عن الدين . (تنفيذ هذه الدعوة) - اتهام القراء بسوء فهم الرواية والتعامل معها بفهم سطحي (نقض هذه التهمة) - تبريرات اللجنة لسقوطات الرواية ، وموقفنا من هذه التبريرات الغريبة . مسائل ثلاث من التوابع : تبرير عدوان الرواية على شخصية الرسول ﷺ . ونقض هذا التبرير - الدفاع عن حيدر بقاعدة « راوى الكفر ليس بكافر » (نقض هذا الدفاع) . إصرار القط على تبرير الحوار الحيدري الساقط وردنا عليه ١٣٧-١٢١

* * *

(أ) حيدر يعلن أنه مؤمن بالله ، وأنه ينفع الإسلام أكثر من هاجموه
(لن نناقش إيمان الرجل .. وحسابه على الله)

(ب) يدعى أن « النص المقدس » حَمَالُ أوجه القرآن نصه مفتوح
لأى مسلم أن يجتهد فيه . والاجتهاد نشأ أيام المعتزلة أرباب الحرية
(خطؤه في عبارة « النص المقدس » حَمَالُ أوجه - الاجتهاد بدأ في
عهد النبوة لاهد المعتزلة - لاجتهاد لمن لا يملك عُدَّتُهُ العلمية
والعقلية والفقهية ، وحيدر لا يملك من ذلك شيئاً - المعتزلة خاصمو
حرية الرأى .. وعلى أيدي المعتزلة كانت محنة أحمد بن حنبل
وغيره في مسألة خلق القرآن)

(ج) روايته - كما يقول - تعبير عن الواقع العربى المأزوم

(الرواية دعاية للأيديولوجية الشيوعية فى المقام الأول)

(د) ليس فى الرواية ما يسىء إلى الإسلام .. بل هى تمجد الإسلام ،
وترفع من شأن الجهاد والمجاهدين

(عرضنا ما فى الرواية من إجرام ضد العرب والذوق والدين والخلق ،
وقد لجأ حيدر إلى تزوير نصوصه فى الدفاع عن نفسه)

(هـ) من هاجموا الرواية أصوليون من أجل مكاسب مادية وسياسية ،
وضرب التنويريين ، والتيار التنويرى

(لم يثبت حتى فى التحقيقات القانونية ما يدل على صحة ادعاء
حيدر فيما اتهم به من هاجموا الرواية)

(و) لامتسولية عليه فيما جاء بالحوار لأن الشخصيات خيالية
(الكاتب الروائى - كما قلنا مراراً - يكتب روايته بوعى كامل ،
وهو مسئول عن كل ما فيها شكلاً ومضموناً حواراً ، وسرداً ،
ووصفاً)

(ز) كلمة « خراء » ليست وصفاً للقرآن .. لأن قبلها نقطة .. وقد

رد مهدي جواد على ذلك
 (فندنا ذلك من قبل أكثر من مرة)
 (ح) يدعى أنه مجد الجهاد الجزائري .. فلا حق لمن قال : إنه شوهه ،
 وأساء إليه
 (في الرواية إساءة .. بل إساءات متكررة إلى الجهاد الجزائري ..
 ومثل طيب واحد لا يلغى عشرات التشويهات التي ألصقتها الرواية
 بالمجاهدين الجزائريين ، وخصوصًا على لسان « فلة بوعناب »)

١٨٤-١٦٦

[٣] وبالقرآن يدافعون عنه :

- ادعاء التنويريين بأن من حق حيدر أن يضمن حوار ما شاء من
 معان خارجة على الدين والخلق مادام ذلك متفقًا مع طبيعة
 الشخصيات .. وذلك قياسًا - في زعمهم - على ما جاء في القرآن
 على ألسنة الكفار واليهود والمنافقين من كفرات
 (تفنيد هذا الرأي ، وتقديم شواهد متعددة من القرآن الكريم)
 الزعم بحق حيدر في تقديم مشاهد جنسية ، وتوظيف ألفاظ جنسية .
 قياسًا على القرآن في زعمهم
 (نقض هذه المقولة ، والاستشهاد بالنماذج القرآنية)
 الدفاع عن حيدر بمقولة وجود كتب تراثية تناولت الجنس بجرأة
 وصراحة
 (نقد هذه المقولة وما فيها من تهويل ومغالطات وهشاشة)

٢١٢-١٨٥

[٤] حرية الإبداع أم حرية العدوان :

ادعاء التنويريين أن حكم الإسلام هو حكم الظلم والغشومة
 والاضطهاد ، والرعايا يعيشون للعبودية والاستسلام
 نقض هذا الافتراء : الإسلام هو دين الحرية بأوسع معانيها - تكريم
 الإسلام للإنسان ، ودعوته إلى أعمال العقل واحترام الفكر - حرية
 العقيدة في الإسلام - حرية التعبير في الإسلام - فعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾
 هو أكثر الأفعال استعمالًا في القرآن ، ودلالة ذلك : نماذج ميدانية من

حرية التعبير فى عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم - الحرية فى الإسلام حرية حقيقية شاملة .. ولكنها منضبطة لا تعرف الغلو والإسراف - التنويريون والبكاء بين يدى حمراء اليمامة - الحرية التى يريدون - موقف التنويريين جدًا من محنة مصطفى أمين - التنويريون والماركسيون ومحنة الكاتب السوفيتى باسترناك - بين « دكتور زيفاجو » و « وليمة لأعشاب البحر » - موازنة بالنظر تقود إلى مفارقة مذهلة : لجنة بل لجان تهاجم عملاً روائيًا إنسانيًا راقياً .. ولجنة تدافع عن عمل روائى شعوبى ساقط

* * *

خاتمة المطاف

حكمتنا النهائى على الرواية من وجهات النظر الإسلامية والعقلية والنقدية - هل أخطأنا إذ تصدىنا لهذه الرواية المجهولة ؟ ضرورة تدرك الخطر قبل استفحاله - التصدى ينطلق من قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - معركة الرواية أبانت عن « معدن » وزير ثقافتنا وحقيقته - رعاة الثقافة يحتاجون إلى « تثقيف مكثف » - وزير ثقافتنا ونظريته فى نسبية الأخلاق - التنويريون يصنفون الناس - وقوعهم فى الخلل والتناقض - التنويريون جدًا وتلميع حيدر - الحجج إلى بيت حيدر . خلاصة حكمنا على الرواية ٢٢٠-٢١٣

ملحق : وثائق	٢٢١
المراجع	٢٤١
تعريف بالكاتب	٢٤٩
الفهرس	٢٥٣

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٠/١٣١٥٠

دارالنصر للطباعة والإشراف
٢ - شارع فضائل شبرا القاهرة
الرقم البريدي - ١١٢٣١